الهيئة العامة السورية للكتاب

مقهى البيانو

الهيئة العامة السورية للكتاب

تصميم الغلاف

عبد الله القصير

المشروع الوطني للترجمة

الرواية العالمية

مقهى البيانو

تأليف: فرهاد جعفري

ترجمة: د. فاطمة صفا

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٣م

العنوان الأصلي للكتاب:

كافه پيانو

الكاتب : فرهاد جعفری

الناشر : چاپ جهل دوم، ١٩٦٤

المترجم : د. فاطمة صفا

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر (بالضرورة) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

مقهى البيانو/ تأليف فرهاد جعفري؛ ترجمة فاطمة صفا. - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٣م .-٢٦٤ص؛ ٢٥ سم . (المشروع الوطني للترجمة. الرواية العالمية)

١- ٨٩١,٥٣ ج ع ف م ٢- العنوان ٣- جعفري ٤- صفا

مكتبة الأسد

مدخل المقهى

لم أخفِ يوماً شيئاً حقيقياً، والآن ليكن ما يكون، خلف قناع كاذب، فلم أتعلم أن أكون على النقيض مما أنا عليه، أو أن أتظاهر بشيءٍ ما، لأمنح بعض الناس منزلة روحية، هذه المنازل الروحية إن أمعنت النظر إليها سوف يتبين لك زيفها، ولهذا ودون أدنى عناء، سأخبرك أمراً، ولا أبالي إلى درجة من الممكن أن يكون استنتاجك من هذا الأمر خاطئاً، أعترف بأنني قد بدأت أنفر من كل شيءٍ حولي وبالأخص من نفسي، من أنه خلال ست إلى سبع سنوات مضت من العمل الدؤوب لم أستطع أن أشتريَ سترة أو بنطالاً جديدين استمد منهما الثقة، فأقرر أنه لا بد من فعل شيء ما، وإلا فإنني لم أعرف قدر وقيمة جاكيت وبنطال بهذا الجمال، ولم أمتلك خلال السنوات الماضية حذاءً تكون إحدى فردتيه نظيفة، وعندما أنتعله أشعر أنه يجب عليّ أن أتخذ خطوة كبيرة نحو الأمام، وإلا فإنني قد بخسته حقه، ولم أمتلك قميصاً عندما أنظر إليه في المرآة وأنا أغلق أزراره تباعاً، أفكر مع نفسي اللعنة على مثل هذه القمصان، فما إن تلامس جسدك حتى تشعرك وكأنها تقول لك هيا تحرك بسرعة وافعل شيئاً ما، ولطالما ارتديت من تلك الجوارب الرخيصة (ثلاثة أجواز منها بتومان واحد)، التي تشعر رجلا المرء فيها بالخسة والوضاعة، وتسلب ثقة المرء بنفسه، فكلما هممتَ بالنظر إليها، حدثتك نفسك بأنه من الأفضل أن تهتم بشؤونك الخاصة، وكنت خلال السنوات الماضية أحلق ذقني بتلك الشفرات؛ ثلاث علب بألف تومان كل

علبة تحتوي على خمس شفرات، وكنت كلما نظرت إليها من خلال المرآة وأنا أمررها على وجهي قلت في نفسي: رحم الله أيام شفرات الحلاقة الماركة (شفرة الجليت) كم تمنح المرء الثقة بالنفس.

افتتحت مقهى لأشتري بدلة أو بدلتين أشعر فيهما بانتمائي، وأشتري حذاءً جلدياً عندما أنتعله أفكر والآن ليكن مايكون، ولكن يجب علي أن أتقدم، وأشتري قميصاً عندما أغلق أزراره أفكر أن الأوان قد حان للتغيير في حياتي وحياة من حولي.

افتتحته لألبس من تلك الجوارب الأنيقة المقبولة الثمن التي لا يشعر المرء وهي في قدمه بالخفة، فيمكنه أن يخطو بها خطوات عالية، افتتحته لأحلق ذقني مرة أخرى بشفرة حلاقة غالية الثمن، وطبعا افتتحته، لأتمكن من جمع مهر زوجتي فتذهب وشأنها وتتركني وشأني وتكف عن إهانتي.

كل هذا الكلام أخبرتكم به لأقول لكم: إن الثياب لأمرٌ مهمٌّ للغاية، فهي تحدد وجودنا وكيفيته، وإن رأيتم رجلاً لا يملك في حياته أمراً عظيماً ليفعله، فاعلموا أنه إما ليس لديه ثياب تمنحه واجباً ليقوم به، وإما من الأساس هو شخص ذليل.

الهيئة العامة السورية للكتاب

هذه المرة أشتري
اللون الكرزي منه

ما إن دخلت من باب المقهى حتى أمسكت أنفها بيدها وقالت: يا إلهي، رائحة دخان سجائرك خانقة، ومن ثم، بلامبالاة جميلة تنمّ عن طبيعتها، ألقت حقيبة ظهرها الكحلية التي أعطيناها ليخيطوا اسمها عليها، ألقتها على عنق الكرسي البولندي، توجهت نحوي وجلست أمامي، وكنت آنذاك مشغولاً بإعداد القهوة.

قالت: سلام

قلت: سلام يا بنيتي

سألت: ما الطلبية التي في يدك؟

أجبتها بينما كنت أدور مغلاة الحليب حول سيخ بخار الآلة مثل الأرض المتراقصة، وأغليه: لا شيء يمكنك فعله... كيف ربطت شعرك اليوم؟ مثل جودي آبوت أم ذيل حصان؟

بملل، خلعت مقنعتها البيضاء، وأعطتني إياها لأضعها على البار في مكان بعيد عن أعين الزبائن، فأرى بأنها ربطت شعرها مثل جودي آبوت وليس ذيل الحصان كوالدتها، ومن ثم أخبرتني أنها أخذت في الإملاء سبع عشرة من عشرين. كنت ما أزال أغلي القهوة وأشتم رائحتها، قلت لها: أمر جيد، عندها أخبرتني أن صديقتها قد قالت لها إنني سوف أوبخها، ولا شك، على هذه العلامة.

كانت عيني على قلب ركوة القهوة، ومع ذلك لمحت وجهها المدور منعكساً على إستيل قِدر القهوة فبدت وكأن وجنتيها قد تطاولت كل منها في جهة.

قلت: وهل سيوبخها والدها، برأيي سبع عشرة ليست أسوأ من ست عشرة بكثير، وكما أنها ليست أفضل من ثماني عشرة بمراتب.

سألتني: ماذا يعني بمراتب يا أبي؟

أجبت: بمراتب؟

قالت أجل، بمراتب

وقفت حائراً كيف أفسر لها معنى الكلمة، فاضطررت أن أغلق قبضة بخار آلة القهوة، وأضع مغلاة القهوة فوق الآلة، لأحدد لها بيدي الطول والعرض قلت: بمراتب يعني...هذا، قالت: يعني كثيراً صحيح؟

قلت: ليس تماماً، فقياسها يختلف قليلاً، فكلمة كثيراً لا يمكن مقايستها مع أي شيء بالعادة، أما مراتب، فهي بالمقايسة مع شيء آخر تكون أكثر منه.

صببت القهوة التي بدا أنها تخمرت في الفناجين الشكلاتية اللون، التي أعتقد أنها عندما كانت لا تزال طيناً وحسب، شقوا حافتها بسكين عند الزاوية ٣٥ درجة إلى الأسفل، أعلى بقليل من مسكة الفنجان، وضعت الصينية أمامها لتأخذها وتضعها فوق طاولة شاب وفتاة متحابين كانوا قد وصلوا قبلها إلى المقهى، وجلسوا إلى الطاولة المحاذية للنافذة.

عندما عادت أخبرتني أنها تشاجرت مع فتاة في مدرستها، سألتها عن سبب الشجار؟ فأجابت أن الفتاة قد مدت لها لسانها، هكذا ودون أن أفعل ما يستحق ذلك، ومن ثم ضربتها بقوة على زندها، قلت: حسناً.

قالت: حسناً، وأنا لم أقف مكتوفة اليدين، لقد نالت مني ما تستحق.

ثم، نظرت إلي خلسة وقالت: أنت من علمني هذا.

قلت: حسناً فعلتِ، ينبغي أن ينال الظالم ما يستحق، وأكثر من ذلك كان عليك أن تضربيها بمقدمة حذائك على ساقها لتتألم بحق، تعالي، تعالي إلى هنا واغسلي الفناجين ما دامت الأوساخ لم تجف عليها بعد.

عندما رأت الفناجين ارتفع صوتها معترضة: لقد تركت كل الفناجين لأغسلها أنا؟!.

قلت: إنك تتقاضين على ذلك أجراً أليس كذلك؟

في لحظتها انحنيت وهمست لها في أذنها إن سمحت ألا ترفع صوتها أمامي، وإلا فإنني مضطرٌّ أن أشدها من أذنها ولا شك أن الأمر سيكون مؤلماً.

بدأت تغسل الفناجين بوسواس تام قد ورثته عن أمها، فبدايةً، أغلقت مجرى المجلى، ثم صبت القليل من سائل الجلي على الفناجين، وفتحت صنبور الماء الساخن ليصل إلى عنق الكاسات ويرتفع مستوى الماء، خلال هذه المدة، لبست كفوفها الصغيرة الليمونية في يديها، طبعاً قالبها لم يكن يناسب مقاس يديها إلا أنه لم يكن يناسب مقاس أيدينا أيضاً.

عندما كانت تضعهما في يديها قالت: عليّ أن أشتري لها غيرهما، من ثم حكت أنفها بظاهر يدها، وتابعت: هذه المرة اشتري اللون الكرزي منه، فأنت لم تشتر لي قط اللون الكرزي منه...موافق؟

سألتها: ولِمَ؟ ضحكتُ ضحكةً مشاكسةً، قلت: عندما ترتدينهما تعتقدين بأنك تشبهين الخادمات؟

قالت: أجل، تماماً كتلك السيدة التي تأتينا كل ثلاثاء لتنظف لنا البيت،... كيف عرفت ما أقصد أيها الماكر؟

قلت: من أين تريدين أن أعرف؟... لأنه يوم الأربعاء.

من شدة تعبي، جلست على الكرسي في مكاني المعتاد في البار، لففت السيجارة، وأشعلتها بالقداحة المعدنية التي أهداني إياها أمير قادري الأسبوع الماضي خلال دعوة العشاء في منزلي. لقد ردد مراراً كم هي شهية القورمة سبزي، فقد ذكرته بالقورمة التي تعدها والدته. دخان السيجارة الذي كنت أجعله دوائر بصعوبة، كان يدور في فضاء المقهى الدافئ من ثم يذهب مباشرة إلى ابنتي وردة الضفيرة التي كانت قد بدأت لتوها تفض الفناجين بالماء.

سألت: ألا تستطيع الإقلاع عن التدخين؟

أجبت: إن الأمر ليس بالسهولة التي تظنين.

قالت: إذن كيف تمكن عمي منوتشهر أن يترك التدخين؟

كنت قد أخبرته أن صديقي - وهو مصور، يعمل في لندن هذا كل ما أعرفه عنه - قد أرسل إلي بريداً إلكترونيّاً طلب فيه عنواني ليرسل لي شيئاً من خلاله استطاع عمك الإقلاع عن التدخين.

قالت: ما اسمه؟

كان انتباهي منصباً على البراد الذي تكاسل اليوم، فلم يتجمد الماء في داخله.

سألتها: عمّاذا تسألين؟

قالت: اسم الآلة.

قلت: هيلتور، أو هالتور، أو شيء من هذا القبيل.

قالت: اسمه صعب لا أستطيع أن أنطقه.

طلبت منها أن تغسل فناجينها، وتأخذ أجرها وتمضي إلى عملها، فلا تتدخل في شؤوني وتدخيني، وعندما تكبر ستتمكن من أن تلفظ كلمة هيلتور، فلا داعي للقلق.

قالت: إنها تهتم لأمري، لقد قالوا في التلفاز: إن التدخين يسبب سرطان الرئة.

حينئذ التفتت إلي وسألتني: ماذا يعني سرطان الرئة؟

أجبتها: تلك الرئة التي يتحدثون عنها هي رئتي أنا، وأنا أعلم ماذا أفعل بها، وسرطان الرئة هراء وحسب، وعادة ما يُبتلى به المدخنون، فلا تكاد تمضي مدة من الزمن،حتى يسوء حالهم، ويشتد عند الموت سعالهم.

لم تقل شيئاً، غرقت في عالمها الخاص، عندما أنهت فض الفناجين تباعاً، وضعتها بالقرب من المجلى ليجف عنها الماء. خلعت مئزرها وعلقته على قبضة باب أحد خزائن البار تحت المغسلة، وسألتها إن كانت تريد مني أن أوصلها إلى المنزل، فأجابت أنها تريد أن تذهب مشياً على الأقدام، وأن تحصي خطواتها، هذا ما دفعني لأقترح عليها أن تأخذ علبة بلاستيكية فارغة من علب البيرة (بالتيكا) تجعلها أمام قدميها على رصيف المشاة، وتدحرجها أمامها بقدمها إلى أن تصل إلى المنزل، إنها متعة لا توصف، بالأخص إن كان المرء ينتعل حذاءً جديداً في قدمه.

لبست حجابها (المقنعة)، ووضعت حقيبتها على ظهرها، ثم قربت وجهها مني لأرفع لها الحجاب وأقبّل أذنها. أدخلت يدها في سلة المهملات وأخرجت علبة بلاستيكية وأخذتها.

أرتني العلبة وسألت: هل يمكنني أن آخذها؟!

حسناً إنه لمن الجيد أن تطلبي الإذن.. ولكن ماذا ينفع الإذن بعد أن أخذتها؟

لذا ألقت العلبة البلاستيكية في الحاوية وسألت من جديد: هل أستطيع أن آخذها؟

قلت: الآن تستطيعين.

ضحكنا معاً، وضعتُ ألف تومان في جيبها، وضربتها بيدي على ظهرها بخفة، أي من الأفضل أن تنطلق الآن قبل حلول الظلام.

وهنا بدأت المسير، توجهت نحو باب المقهى، وبينما كان الباب ينغلق وراءها عادت فوق عتبة المقهى وقالت بشقاوة: أيها الأب الفاقد الإرادة.

مثلاً، لقد أثار كلامها غيظي عندما قالت هذا أمام الزبائن، فهجمت نحوها لعلي أمسكها، على الأقل هذا ما أردت أن يظنه الزبائن أنني أريد الإمساك بها وتعنيفها على ما قالت، ولكن الحقيقة كانت أمراً آخر، لم يكن لدي النية للإمساك بها ناهيك عن أن أعنفها، أما هي فقد تملكها الخوف، فأغلقت الباب بإحكام، ولاذت بالفرار.

بعد لحظات خرجت من المقهى، تتبعتُها بنظراتي على ممر المشاة المكتظ بالأشجار الخريفية العارية. لقد ألقت العلبة البلاستيكية على الأرض أمام قدمها، وأخذت تدحرجها مراراً وتكراراً إلى الأمام وصوت العلبة يقرقرع على الطريق، دون أدنى شك لقد أغضبت الجيران في مثل هذا الوقت من الظهيرة.

متوسط الحال،

أمر مزعج يا وردة الضفيرة

كعادتها، دخلت المقهى ووضعت يدها على أنفها، ولكن بخلاف المعتاد لم تلق بحقيبة ظهرها على عنق الكرسي البولندي بالقرب من البار، هي التي دائماً ما ألقته هناك دون مبالاة أو اكتراث، من ثم تأتي إلى منصة البار تقف هناك تتحدث إلي بشرح مفصل حول ما فعلته في المدرسة أو عن علاماتها، أو فحوى الرسالة التي أرسلها المعلمون لي اليوم، ولكن دخلت إلى البار مباشرة، وأشارت بإصبعها إلى أنفها الذي كانت تمسكه بيدها، أي افهم واعقل بنفسك دون أن أقول لك شيئاً، وضعت حقيبتها وقبعتها على الكرسي الذي أجلس عليه عادة لبضع دقائق فأدلك أقدامي برفق كلما لمعت من التعب وخوفاً من دوالي الأقدام.

على هذه الحال، ألقت علي السلام بصوت خرج من أنفها: سلام ببعي **(أي أبي)**.

لطالما قالت كلمة بابا وكأنها تقول ببعي، وكنت دائماً سعيداً بمزاحها هذا.

أمسكت أنفي بيدي وقلت: سلام.. أنت الببع.

ضحكت وتركت أنفها، وبدأت تروي لي ما حدث في حافلة المدرسة، فقد كادت فتاة تسقط من باب الحافلة الذي فُتح فجأة، لأنها لم تتوخ الحذر، فالباب لم يكن قد أغلق بشكل كامل عندما صعدت الفتاة.

قلت: أنت لا تجلسين قرب الباب، هل تفعلين؟

قالت: لا، أجلس دائماً في الوسط لئلا تقلق أمي، وأضافت: لقد قطعت لها وعداً بإصبعي، طبعاً في كل مرة تريدني فيها أن أقطع لها وعداً وأفي به، تمد خنصر يدها اليمنى الصغير وتعقفه على خنصر يدي اليمنى، ومن ثم تبدأ بتكرار الوعد بتأن شديد، ولكأنها أبو قراط الطبيب اليوناني، وهو يملي قسم التخرج على عدد من طلاب السنة الأخيرة في الطب.

سألتها: هل استمتعتِ بالأمس؟

سألتني بينما تخلع حجابها لتضعه خلف البار وترتدي مئزرها الزهري المطرز برسمة البيانو: بماذا استمتعت؟

قلت: طبعاً أعني العلبة البلاستيكية.

أجابت: أجل، ولكن للأسف عند تقاطع الطريق وقعت العلبة تحت عجلات سيارة كبيرة، من تلك السيارات التي تقودها السيدات المتدينات (السيدات اللواتي يرتدين العباءة) منذ السنة الماضية أو التي قبلها، تلك السيارات...

قلت: باجيرو.

قالت: أها، باجيرو.

وعندها سألتني: أبي هل نحن أغنياء؟.

فقلت: لا نحن من الطبقة المتوسطة فما دون.

سألت: وماذا يعني هذا؟

أي إن ما نملك ليس بالكثير فلا نعلم كيف ننفقه، ولا بالقليل فلا نعلم ماذا نفعل بحظنا العاثر.

وأضفتُ: متوسط الحال، أمر مزعج يا بنيتي ابتعدي عنه واهربي منه قدر المستطاع، ضعيه خلفك، حسناً؟ لا تدعيه يصل إليك.

أتت نحوي وقالت: هلا عقدت لي مئزري؟

أدارت ظهرها لي وناولتني طرفي الكمر لأعقده لها من الخلف، فلا يتحرك المئزر يميناً وشمالاً، قلت: إن فكرت في الأمر ملياً فلن تحتاج إلى مساعدتي لأربط لها الكمر، على أية حال أعطتني طرفي الكمر وعقدته لها من الخلف.

وبينما هي تسير نحو المجلى لتغسل الفناجين وكؤوس البوظة سألتني: وكيف ذلك؟

أجبتها وكأنني أريد معاتبتها: من المفترض أن تُعمِلي عقلك أنت لا أنا.

إن السيد باربد زبونٌ دائمٌ في المقهى، رجل في متوسط العمر، متخصص في الخط المسماري، ولأوضح لكم شكله العام ما عليكم إلا أن تتخيلوا معي رجلاً بشرته خليط من الحمرة والبياض، شعره يخالطه المشيب، لحيته وشارباه مصفران، تلاحظها أكثر عندما ينفخ دخان سيجارته من خلف تلك الشفاه نحو الأعلى أو الأسفل، فينطبع اللون الأصفر الجميل على القهوة بشكل ما، يخبرنا أن عدم زواجه لا علاقة له بلحيته وذقنه المصفرتين، فهو رغم كل شيء جميل وبالطبع لا يسوء السيدات أن يحظيْنَ بزوجٍ محبّ وعطوفٍ مثله، أضف إلى ذلك ما يمتلكه من الفضيلة والآداب التي يتفرد بها، هو لم يتزوج لأنه متخصصٌ بالخط المسماري وحسب، فأي أنثى قد تتباهى بين جيرانها وعائلتها بأن هناك شخصاً واحداً يجيد ويتقن الخط المسماري وهذا الشخص هو زوجها؟.

وجهه مزيج غريب عجيب من الألوان المتناسقة المتناغمة، ولاسيما عندما يميل الطقس إلى البرودة، فيرتدي تلك الصُّدرة الخمرية ذات الياقة السباعية الشكل، فوق ذلك القميص الرمادي بياقته الملساء المرتبة الخالية من الانحناءات والانكسارات، إن كان الأمر كذلك، ينبغي لك أن تجلسي، وتضعي يديك على وجنتيك وتمعني النظر بدقة، لا يهم فهمتِ أو لا، فقط أمعني النظر لمدة في هذه اللوحات الانطباعية الملأى بالتجليات اللونية المتعددة الأطياف، تأمليها وكأنك لا يمكنك أن تشيحي بناظريك عنها، هو هادئ السيد باريد، وساكت، وغير فضولي إلى درجة تدفعك للقول: يا ليت السيد باربد كان أبي وأنا أقول لك: هذا ما أتمناه أنا أيضاً، فلو كان والدك لما أرغمتِ للتشاجر معه كل العمر فقط لتفهميه أنك ملك لنفسك ولست ملكاً لأحد، وجلّ حقه عليك يتمثل في الاسم الذي منحه لك عندما أتيتِ لهذه الدنيا، هذا الاسم الذي أحب هو أن يمنحه لك، فقط، والآن وقد استخدم هذا الحق وأعطاك الاسم الذي يحب، عليه أن يدعك وشأنك.

حقاً، لو كان هناك من طريقة يستطيع بها الإنسان أن يختار اسمه بنفسه، أو أن يسألوه رأيه منذ الأسبوع الأول لولادته عن الاسم الذي يرغب في أن يطلقوه عليه، عندها سنسلب هذا الحق أيضاً من الآباء، عليهم أن يدعو المرء يختار الاسم الذي يرغب به، فلو كان الأمر ممكناً لعدت بالزمن إلى الوراء، واخترت اسماً لي أحبه وأفضله، فمصير الإنسان مرتبطٌ بشكلٍ غامضٍ بمصير أول من امتلك الاسم، والآباء عموماً قلما يأبهون بهذا الأمر، ولذلك ربما اختاروا لفلذات أكبادهم اسماً يترتب عليه مصير مأساوي.

في إحدى المرات حدثت ابنتي وردة الضفيرة بهذا الأمر، كان ذلك في ظهيرة يوم صيفي عندما ذهبنا معاً لركوب الدراجات النارية، كنا متعبين

لدرجةٍ أخذنا ندفع الدراجات بأيدينا نحو الأمام، وكأن المكان خلا من الجميع سوانا، تجاذبنا أطراف الحديث وحينئذ سألتها: هل تعرفين يا بنيتي ما هو أفضل شيء قدمته لك؟ أومأت لي برأسها وكأنها فهمت ما أريد قوله، ومع هذا قالت: لا يا أبي ما هو؟، توقفتُ للحظة، فتوقفت هي معي أيضاً، قلت لها: اخترت لك اسماً لا يملكه أحد سواك، أنت محظوظة لأنك أول من حمل هذا الاسم، عديني أن تمنحي الاسم قيمته فيرغب عندها الجميع أن يسموه لأولادهم تيمنا بك، أتعديننني، حسناً؟

لا أعلم هل أدركت ما أعني أم لا؟ أجابت بالإيجاب، ومدت خنصرها نحوي لتعاهدني به، عاهدتني أن تحسن التصرف دائماً، فلا يندم أحدٌ في المستقبل لأنه سمى ابنته على اسمها.

كعادته دائماً أدار السيد باربد رأسه نحوي، وأشار إلي بيده إلى ما يريد، وبالطبع كان علي أن أفهم من إشارة يده ما يريد، الأيام الفردية والزوجية للأسبوع، الظهيرة من الليل، ومتى كان هنا، فأخمن طلبه، قهوة تركية أم فرنسية، كابو أم إكسبيرسو، فالآن هو يريد قهوة تركية سادة قليلة السكر، هو هكذا دائماً، عند ظهيرة كل يوم ثلاثاء، يحتسي ثلاث مرات الشاي بقطعات كبيرة من السكر الكوبي، ومن ثم يدخن سيجارتين من السيجار الإيراني الرفيع على طريقته الخاصة، فيعبق الهواء برائحة دخانه المنفرة، من ثم يطلب فنجان قهوة تركي سادة، يدخن معه نصف علبة السجائر، ليحين موعد الطعام، فيطلب البطاطا المقلية (رقائق البطاطا المحمرة) مع جبنة خاصة وافرة بحبات الذرة المعلبة والصلصة التي هي مزيج عجيب طلب هو بنفسه أن نعدها له، بطعم وعطر فريدين، وأن توضع دائماً على طاولته، وكأنك تعد الطعام لأمير أو شخصية

مهمة، فيوضع كل شيء باحترام تام على الطاولة، وطبعاً لا تنتظر منه مكافأة على ذلك، ونادراً ما اصطحب أحدهم معه إلى المقهى وإن حدث وأحضر أحداً، كانت سيدة مسنة يستشف من شكلها وقوامها وكيف يمسك أحدهما بيد الآخر، إنها أمه، مع هذا يجلسان على الطاولة كالغرباء، وكأن أحداً ما أجبرهما على الذهاب إلى مكان معاً لقضاء بعض الوقت برفقة بعضهما بعضاً، لأنه لم يحدث ولو لمرة أن تبادلا أطراف الحديث طيلة فترة جلوسهما أكلا أم لم يأكلا، ربما قد تحدثا بينما كنت غافلاً عنهما أو بينما كنت منشغلاً مع زبون آخر، ربما، لكن لم أكن الوحيد الذي انتبه لهما، بل لقد أثارا فضول ابنتي وردة الضفيرة، التي سألتني بعد مدة من الزمن: أبي هل هذه السيدة زوجته؟

حالما فرغت من سؤالها: رفعت زاوية شفتي إلى الأعلى كما لو أنها سألت سؤالاً غير مناسب.

قلت: أيبدو لك أنهما زوجان؟، أجابتني: هل تريد القول إنها أمه؟

قلت: ممكن.

قالت: ماذا يعني ممكن؟.

أخبرتها أن عليها أن تكون ذكية وتفهم معاني الكلمات بنفسها من خلال طريقة أدائها ناهيك عن هذا، فلو توجب علي أن أجيبها عن معنى كل كلمة في هذا العالم فمتى سيتسنى لي إنجاز عملي؟

قالت لي: حسناً، ومن أسأل إن لم أسألك أنت؟

أجبتها: اسأليني عن الثلث، وخمني أنت الثلث، واسألي أمك عن الثلث المتبقي.

قالت: كم يساوي الثلث؟

كنت مرهقاً، أخذت نفساً عميقاً أخرجته بهدوء من أنفي وأجبتها: اسألي أمك عن هذا، ففي مطلع كل شهر تدفع ثلث راتبها المتواضع لقاء الحُصر التي أكرهها، وثلثه الآخر لقاء البسط التي تتخلص منها بعد شهر من شرائها فتضعها رأس الزقاق، والثلث الأخير تنفقه على الصبار، تضعه خلف النوافذ ويقع على عاتقنا واجب سقايته وإلا سوف يجف ويموت وعندها لا ندري ما نصنع بالأصيص.

استغربت وردة الضفيرة جوابي وسألتني: اليوم إلى أي منزل علي الذهاب؟

قلت: إلى منزل والدتك، ولا تنسي أن تشتري علبة حليب من الدكان عند رأس الزقاق وتأخذيها معك.

كل ما قصصته عليك الآن يعود إلى ذلك الوقت الذي اعترى فيه الفضول ابنتي حول السيد باربد والسيدة التي ترافقه، وإلا في حقيقة الأمر عندما أنهت غسيل الصحون، فكت مئزرها وقبل أن تطويه وتضعه في مكانه المعتاد في الدرج حيث تضع أشياءها، أتت نحوي وهي تقول: لقد أعملت عقلي والآن أدرك كيف علي أن أربط كمر المئزر دون الحاجة إلى العون من أحد، ألبس المئزر بحيث يكون وجهه إلى الخلف وعندما أعقد الكمر من الأمام، أدير المئزر نحو الخلف، ثم نظرت إلي وكأنها إقليدس وقد استطاعت أن تكتشف المثلث الذي غفل عنه الجميع إلى الآن، سألتها عن سبب هدوئها طيلة غسلها للآنية، هل للأمر علاقة بتفكيرها حول كيفية عقد كمر المئزر بنفسها؟ ما أعنيه هل حقاً كان الأمر بمنزلة أُحجية صعبة تطلبت كل هذا الوقت منها لحلها؟

فقالت: لا، كنت أفكر لعلهما متخاصمان (السيد باربد والسيدة)، وإلا فما الذي يمنع الرجل من أن يحدث والدته؟

قلت: كفاك تطفلاً على حياة الآخرين، اليوم وحسب الاتفاق عليها أن تذهب إلى منزل والدتها، ولكن أمها تريد الذهاب إلى المكتبة للحصول على مراجع لرسالتها، فعلى وردة الضفيرة إذن أن تذهب إلى بيتنا، فتستحم قبل وصولي إلى المنزل.

هذا ما جرى، تهيأت للذهاب، أعطيتها أجرتها اليومية، ورافقتها إلى أمام الباب، كانت يدي ما تزال على كتفها حينما سألت: أبي، ماذا يعني حسب الاتفاق؟

قلت: سأوضح لك الأمر لاحقاً في المنزل.

قبلت جبينها، وضربتها بخفة من الخلف، أي هيا انطلقي، سألتني: هل أرسلت منشفة الحمام إلى المغسلة، قلت: لا، لقد غسلتها بالأمس بنفسي، ضعيها قرب المدفأة لتذهب رطوبتها وحسب.

في خارج المقهى، تابعتها بنظراتي كيف كانت تمشي على الرصيف، مطرقة رأسها، أقدامها على شكل سبعة تجر أمامها أوراق الأشجار اليابسة المتساقطة على رصيف المشاة. شيئاً فشيئاً بدأت تغيب عن ناظري إلى الحد الذي لم أعد أراها فيه.

عش عصفور حقيقي

هل أنت متأكدة؟!

إلى غروب الشمس، لم يأت أحد إلى المقهى ليسأل عن عنوان ابن خالته أين يقع بالتحديد، حسناً، لقد رُتبت أرقام المباني حول المقهى بطريقة مضحكة، شغلت الجميع بها، فلا يمر يوم إلا ويأتي ما يقرب السبعة عشر إلى ثمانية عشر شخصاً، يمدون رؤوسهم إلى داخل المقهى ويسألون بتعجب: هل البناية رقم تسع عشرة هنا؟، إذن لماذا البناية ذات الرقم واحد وعشرين ليست مجاورة لها، لأنه وحسب المعتاد يجب أن تكون مجاورة لنا...

هاتفتني ابنتي وردة الضفيرة لتخبرني أن معلمتها طلبت منهم أن يحضروا هذا الخميس إلى الصف عش عصفور حقيقياً.

سألتها: عش عصفور حقيقي، هل أنت متأكدة؟

أجابت: أجل، هكذا قالت المعلمة يجب أن يكون حقيقياً.

أخبرتها بأني سأخابر المدرسة لأتأكد من حقيقة الأمر، فأعرف ما هو المطلوب بالتحديد، ومن ثم سأعاود الاتصال بها، أقسمت لي بأنهم قالوا: إنه لا بد أن يكون العش حقيقياً، أبي أقسم بالله إني أقول الحقيقة.

قلت: علي أن أتأكد.

أعطتني وردة الضفيرة رقم المدرسة، دونته على التلفون لأخابرهم فوراً، فلم أكن يوماً صاحب ذاكرة جيدة، ولم أكن لأتذكر أي شيء مهما كان، إلى

درجة كنت مجبوراً أحياناً أن أتصل بزوجتي أو أحد ما لأسأله في أي وقت من الشهر نحن الآن؟ أو لأسأل عن رقم أحدهم، أو في أي يوم نحن؟

رفعت السماعة سيدة على ما يبدو أنها ناظرة المدرسة، فأدركت من نبرة صوتها المبحوح ماذا كانت تفعل منذ بكرة الصباح، لقد كانت تصرخ على الأولاد الذين أودعوا أمانة لديها لتربيتهم، ظناً منها أن الصراخ هو الوسيلة الأمثل للتربية الجيدة، سألتها حول مسألة عش العصافير الذي طلبوا من الطلاب إحضاره ليوم الخميس، فأخبرتني أن معلمة العلوم هي من طلبته من الطلاب فهي تريد أن تشرح لهم كيف تبني الطيور أعشاشها. سألتها عن مغزى أن يكون العش حقيقياً؟ أحقّاً عليّ أن أصعد بجهد جهيد إلى أعلى شجرةٍ لأجد عش عصافير، فاقتلعه وأنزله للأسفل وأعطيه لابنتي فتأخذه إلى المدرسة معها، وعندها تستطيع المعلمة أن توضح لها كيف تبني العصافير أعشاشها؟

ضحكت وقالت: على الأغلب لقد أوصلت لك ابنتك الأمر على نحو غير دقيق، فلم تقصد معلمة العلوم في الصف الأول السيدة شيباني أن يأخذ أحدهم عش عصفور سيّئ الحظ يتيم ويشرده في هذا الوقت من الشتاء، وأكدت أن عليها فقط أن تحضر بعض الأوراق الإبرية الشكل من شجرة الصنوبر.

هذا ما جرى، اضطررت أن أُودع المقهى في يد الله لعدة دقائق، خرجت إلى الشارع وبحثت على جوانب الطرقات التي يقع المقهى على هوامشها، عن شجرة صنوبر أصيلة تناثرت أوراقها أمامها، ولم يتسن للكناسين أن يجمعوها بعد، فيجعلوا منها حطباً لنيرانٍ يتحلقون حولها، ويحتسون الشاي وينفضون

تعبهم، لقد جمعت ما يقرب كيساً ورقياً متوسطاً من العيدان اليابسة التي تعود إلى شجرة صنوبر كبيرة قريبة من المقهى، جمعتها وأحضرتها معي إلى داخل المقهى، ووضعتها في مكان قريب من ناظري لئلا أغفل عنها، فأتذكر في الليل عندما أغلق المقهى، وأقفل عائداً لمنزلي أن آخذها معي.

صببت لنفسي فنجان قهوة تركياً مراً، وجلست إلى أحد النوافذ المطلة على الشارع، التي طلبتُ أن يرسم عليها إلى النصف لوحة من تلك اللوحات التي يرسمونها على زجاج النوافذ الثابتة في سقف الكنيسة، كانت اللوحة تمثل إنساناً معلقاً في الهواء حوله الكثير من الدوائر النورانية، إنسان مقدس، ملاك، شيء ما من هذا القبيل، أسفل منه في اللوحة مجموعة من الرجال الملتحين يمتطون الخيل وعلى رؤوسهم الخوذ وفي أيديهم الهراوات والسيوف، يسيرون في طريقهم، دون اكتراث لهذا الرجل النوراني الذي ينظر إليهم من الأعلى... وفي يده صليب فضي اللون وكأنه علامة لشيء مقدس آخر غيره، كان القلق بادياً على محياه، فهو يريد أن يخبرهم بأي طريقة وبأي قيمة أن يغيروا الطريق الذي يسلكوه، ولكن بدا وكأنهم لا يرونه أبداً، ولكنني لطالما اعتقدت أن هؤلاء الرجال الملتحين تعمدوا عدم رؤية هذا الرجل، وأن يظهروا جهلهم بما يجري، ففي النهاية، لقد أعدوا عدتهم وتجهزوا للحرب ولا مجال للتراجع بحجة أن هذا الرجل المعلق في الهواء ذا الهالات النورانية قد أمرهم بذلك.

دائماً ما أحتسي القهوة التركية المرة، فلا أضيف لها السكر أبداً، أبداً، هذا الأمر لطالما رافقني حتى قبل أن أفتتح مقهاي الخاص، فعندما كنت أرتاد المقاهي الأخرى كنت مضطراً دوماً لتذكيرهم ألا يجتهدوا من تلقاء أنفسهم ويضعوا السكر في قهوتي، فلا شيء يثير اشمئزازي أكثر من رؤية أحدهم يقرر

مقدار السكر الذي يريد أن يضعه في فنجانك، حتى ولم يعجبك الأمر فهو يريد أن يضيف لك السكر إلى قهوتك، ما أريد قوله هو أن حلاوة القهوة أمر غاية في الأهمية بالنسبة إلي، ولو كانت حبيبات السكر أكبر مما هي عليه الآن، واليوم هم يصنعون حبات السكر الكبيرة، أي لو أمكنني أن أعد حبات السكر دون أن يهزأ الآخرون من فعلي هذا، لفعلت ذلك ومن ثم لأضفتها إلى قهوتي.

وينبغي أن تمتزج رائحة القهوة مع رائحة توتون الغليون الخاص بي، ولن أسمح لأي أحمق أن يستخدمه، فيضع غليوني على طرف فمه مفرغاً فيه من لعابه، في المكان الذي أضعه بين طبقات أسناني لأنفخ فيه فأصل إلى نشوتي الخاصة، فأبعث للطرف المقابل برسالة أنه كم هو غليون مميز، ولا أحد يمتلك نظيره في كل الدنيا، فلا يوجد منه سوى قطعة واحدة وهي ملكي أنا، وهذا ما جرى، وقفت، أخرجت غليوني من الدرج الرفيع الموجود في البار حيث أضع أشيائي، أشعلته، ولكن رنين الهاتف جعلني أضع الغليون جانباً، ما أريد قوله كيف يمكن للمرء أن يتحدث مع زوجته عشراً إلى عشرين دقيقة مع التحيات والمجاملات وفي الوقت نفسه يستمتع بالغليون بطقوسه الخاصة، لذلك، آثرت أن أشعل سيجارة بدلاً عن ذلك، وآخذ الهاتف إلى جوار النافذة، أجلس على الكرسي المقابل لها، وأمدد أقدامي على الكرسي الذي أمامي، أتأمل من خلف الزجاج أغصان شجرة العرعر المواجهة للمقهى على رصيف المشاة، أخرج الدخان من حلقي على شكل حلقات أتاملها كيف تختفي في هواء المقهى القاتم، وأستمع لحديث زوجتي بريسيما، وفي الوقت عينه أسرح في النافذة العلوية للشقة المقابلة للمقهى في البناء المكون من ستة إلى سبعة طوابق، ولكنني لا أرى من حيث أجلس إلا الطابق الثالث، الحق أنني كلما جلست هنا

ووضعت القدم على القدم، كانت تهرع نحو النافذة فتاة فظة مجنونة، لعلها تظن واهمة أنه بالإمكان استبدال شعرة عفنة وسخة من زوجتي بريسيما بها، تأتي تتكئ على يدها عند حرف النافذة الذي يصل إلى خصرها بصعوبة، فتبدو وكأنها تنظر إلى البيانو داخل المقهى، ولكنني كنت على يقين من أنها كانت تتأملني بعينها الثالثة.

بصدق، كم هو أحمق وحمار ذلك الشخص الذي يمتلك زوجة وأطفالاً ويسلم نفسه لإغراءات فتاة مريضة تلبس صدرية برتقالية وبنفسجية، وتظهر بعض مفاتن جسدها بشكل يتنافى مع المعايير الأخلاقية للمجتمع ولا يمكن وصفها، وهي تظن أنها بهذه الطريقة تصطادك، حقاً إني لأشعر بالانزعاج من مثل هؤلاء الرجال، عندما يخلو المقهى من الزبائن عادة ما آتي إلى هنا، أجلس وأسرح في نافذة الطابق الثاني من البناية فقط لأفهمها أنها لم تحظ بمرادها، ولكم هي ساذجة إن اعتقدت أنها ستنال مني بمثل هذه الحركات، من جهة أخرى إن أصر أحدهم على سؤالك بينما تتأمل أغصان شجر العرعر المقابلة لمنزله عن سبب تسمية مثل هذه الشجرة الجميلة بهذا الاسم؟ تماماً مثل تلك النساء الفاسدات خلف النوافذ اللواتي يظهرن لك على الدوام أجزاء من أجسادهن تمنعك المنظومة الأخلاقية لمجتمعنا من وصفها، بحق لماذا عليك أن تحرم نفسك من مثل هذه الفضيلة؟ عندها ستدركون أنكم عليكم كبح جماحكم عن الخوض في مخططات لا يحبذها النظام الأخلاقي للمجتمع والنظام الأخلاقي الخاص بكم، فهل يستطيع المرء عندما يشاهد فيلم «الغريزة الأساسية» أن يحتضن بطلة الفيلم شارون ستون؟ هذا من ذاك، فالمشهد جميل لكن الزجاج أو أي شيء آخر سيحول دون وصولك إليها، هذا أقل ما أشعر به نحو تلك الفتاة المجنونة، وإلا فإنني أرغب وبشدة أن أصل إلى شارون

ستون فأمسك بين بيدي خنصر قدمها اليسرى وأتأمله قدر ما أشاء لعلي أفهم أي نوع من النساء هي؟ من النساء الوفيات أو الخائنات؟ هل هي من تلك النساء اللواتي يقمن اعتباراً وأهمية لجمال ورجولة روبرت ريدفورد أم لا؟ أم إنها من تلك اللواتي يرغبن ألا يكون المرء منحوساً كشون بين وحسب؟

بصوتها المبحوح المتعب الخاص بها سألتني: أين جلست؟ لم أسمع في حياتي صوتاً مشابهاً لصوتها على الهاتف، أي إنك تشعر وكأنها استيقظت لتوها من النوم، وتهمس لك في إذنك بأمر سري للغاية خشية أن يسمعها أحد آخر.

أجبتها: إذا سمحت ارفعي صوتك.

من جديد ولكن بصوت أعلى، سألت: أين تجلس؟

أجبت: خلف النافذة.

قالت: ماذا عن الفتاة لا بد أنها هناك أيضاً؟

أجبت: أجل، ولكنها لا تبدو على ما يرام.

قالت: كيف ذلك؟

أجبت: لأنها ما انفكت تحك جسدها.

قالت: استمع لهذين البيتين من الشعر ولكنني لا أعلم من قائلهما، كتبهما أحد الطلاب لي على زاوية ورقته الامتحانية.

فلتكن ملحداً أو دهرياً أو كافراً فتلكن عدواً للخلق وفتانا

لا بد أن يذوق ألم الوحدة رجل قد سبق زمانه

قلت: حسناً، المعنى؟

أعلم أنها الآن ممددة على الأريكة الحمراء في وسط غرفة الضيوف في منزلها، فلطالما رغبت بواحدة ولكن لم أستطع أن أشتريها لها، تلف شريط الهاتف حول إصبعها، ومن ثم تحرره، ومن ثم تلفه حول أصبع يدها الأخرى، نفس الأصبع الذي كنت مجبوراً ليلة زفافنا أن أضع فيه ذلك الخاتم الرخيص الذي اشتريته لها، لقد تعجبت من طول إصبعها ومن التقوس اللطيف لأظافرها، وحسناً، في قرارة نفسي حمدت الله كثيراً بأنني لست مضطراً أن أقضي كل عمري في تأمل مجموعة من الأصابع القصيرة البشعة من تلك التي أكره، فيضيع عمري وأنا ألعن حظي العاثر.

قالت: لا شيء، ظننت أنها جميلة، فأحببت أن أسمعك إياها.

قلت: هذا من لطفك، ولكنك لم تخابريني الآن لتخبريني عن أحد طلابك وما كتبه على زاوية الدفتر الامتحاني، هل ظني صحيح؟

ضحكت قليلاً، من ثم قالت إنها تريد أن تحدثني عن ابنتنا وردة الضفيرة، فهي تريد إقناعي بأن تكون حضانتها من نصيبها.

وضعت فنجان القهوة الذي كاد يصل إلى أطراف شفاهي فوق صحن القهوة من جديد، تماماً في المكان الدائري المخصص له فلا يضطر المرء أن يضع فنجانه أينما كان، وربما لئلا يرتطم أثناء حمله على الصينية بما حوله وتنسكب القهوة منه، سحبت سحبة من سيجارتي، وقلت غير ممكن مستحيل، ومن ثم تأملت دوائر الدخان التي كنت أصنعها من دخان السيجارة، كيف كانت تخرج متتالية وفق نسق واحد، تصعد في الهواء أعلى وأعلى، فتتوسع أكثر وأكثر ومن ثم تتلاشى في جو المقهى العكر.

سألت: لماذا؟

أجبت: لأنها ابنتي.

لقد قلت كلمة ابنتي وكأنني وحدي وحسب السبب في وجودها.

قالت: وابنتي أيضاً.

قلت: لو كانت ابنتك كما تدعين، لنادوها في المدرسة سيدة جوادي تعالي إلى اللوح، أو لتذهب السيدة جوادي وتحضر الطبشور، ولكنهم لا يفعلون، هل تعلمين لماذا؟

قالت: هذا ليس دليلاً.

قلت: بل هو دليل جيد جداً.

صمتت لبضعة ثوان، أخذت نفساً عميقاً وأخرجته داخل السماعة، وضعت سماعة الهاتف من يدها من ثم تناولتها وقالت: إنه لا يمكن الحديث والنقاش معي دون أن يؤول الأمر إلى الصراخ وأذية نفسها (تخرمش نفسها).

قلت: أنت مخطئة، فيومياً يتحدث معي الكثيرون، ولا يؤول الأمر بهم أن يؤذوا أنفسهم، ولكن أجل، لدي أسلوب في المحاججة لا يمكن إنكاره أو تجاهله، لذلك يستنتجون أنه لا طائل من الحديث معي، وهذا يعود لكوني لا أقيم وزناً للكثير من تلك المقدمات الهزلية التي لا توصل إلى أي مكان، فأدخل مباشرة في صلب الموضوع، فأجعل جنديّ وزيراً، وأقول: كش ملك، وأنبه الخصم إلى خطورة موقفه فيظن واهماً أنه ما زال في اللعبة فيبحث عن مخرج له من هذا الخطر، ولكن وبعد فترة وجيزة يدرك أنه لا

مخرج، وأنني قد هزمته منذ البداية، فيعتريه الغضب ويقول: لا يمكن للمرء أن يلعب معك.

قالت: وكأن (تاس الكباب) الطعام يحترق وعليه أن يطفئ النار تحته لأن صوت التصاقه بدا يعلو شيئاً فشيئاً، واقترب من الاحتراق.

قلت: كم هو أمر مثير حسب ما أعتقد أن يتمكن المرء من أن يضيف لطعامه (تاس الكباب) قدر ما يشاء من عصير الخوخ فلا يدعه يجف، والحق أني لست مستعداً للشكوى دائماً، من أن أي عديم ذوق يضيف كل هذا القدر من عصير الخوخ إلى طعامه (تاس الكباب) بقدر ما تضيفين أنت؟

ضحكت وقالت لي: نكمل لاحقاً، في وقته، سوف تتصل بي مرة ثانية، وقبل أن تغلق الخط قالت لي بنبرة مؤكدة: إن لم يكن شيء ملكاً لي، فإن تاس الكباب هو تاس الكباب الخاص بي، وهذا لا يمكن أن تنكره، أليس كذلك؟

قلت: حسناً، ولكن أذعني للأمر يا بريسيما جوادي، فلا أحد يضيف هذا القدر من الخوخ إلى تاس كبابه كما تفعلين أنت.

الفتاة، عندما رأتني منشغلاً بالحديث على الهاتف ولا أعيرها اهتماماً، انصرفت إلى أمورها الصبيانية الخاصة، فلم تعد خلف النافذة منحنية تضع يدها على ذقنها، تتأمل بمكر بعينها الثالثة البيانو، تلك العين التي تجدها عند أغلب النساء، ولا يمكن أن تعرف بالضبط أين تقع هذه العين، ما أريد قوله، لا يمكن للمرء أن يضع إصبعه في مكان ما على جسد المرأة ويقول: هنا تقع العين الثالثة للنساء، فموقعها يختلف من سيدة لأخرى، وكل عين

تشغل مكاناً خاصاً لديهن ومعلومات عن المحيطين بهن ومن جملتهم الرجال، مثلا بريسما، عينها الثالثة مستقرة تماماً في آخر فقرة من فقرات رقبتها، ولذلك حين ترتدي حجابها، لا تدرك أي شيء مما يحدث من وراء ظهرها، وهذا ما يعذب قلب المرء، ألا يدرك ما يدور حوله، أما وردة الضفيرة ابنتي عينها الثالثة في أناملها لأنه لاشيء تقريباً يقع خارج مجال رؤيتها النسائية.

الهيئة العامة السورية للكتاب

ما أجمل هذه الأشياء
غير المتوقعة

لم أشعر يوماً بحضوره، فور وصوله إلى مكتب المجلة، كان يعلق ملابسه في المكان المخصص لها على مدخل الباب؛ لباسه الخاص بالمطر ومظلته والجاكيت التي كان يرتديها حسب فصول السنة، من ثم يذهب ويلقي التحية على الجميع، فالعدد لم يكن كبيراً، من ثم يأتي ويجلس بالقرب مني، يسلمني الأخبار التي أوكلتُ إليه كتابتها، عندها فقط تدرك أنه قد وصل. حقاً، وصوله كذهابه لا يمكن أن تشعر به، إلا إن دعاك لتحتسي كوباً أو كوبين من القهوة في مقهى كنج، المقهى الوحيد في العالم - بعد مقهاي - الذي كنت أشعر فيه بحس التملك أو كنت أود لو أنه كان ملكاً لي. وعندما يدعوك، عليك أن تترك كل شيء من يدك، وتؤجل أي عمل تقوم به إلى ما بعد، تلف شالك حول رقبتك، وتذهب معه إلى مقهى كنج، حيث كنا نتبادل أطراف الحديث لساعة أو ساعتين دون أن نشعر بمرور الزمن.

لا المسألة ليست بالإجبار، لا، فمن الممكن أن تستبدل الجلوس معه ومحادثته بأقل الأشياء، فبغض النظر عن تلك البرودة الإنكليزية التي تضرب على وترك الحساس، أحياناً وليس دائماً كان الشخص الوحيد الذي يمكن أن تحدثه عن مواضيع لا تمت للنميمة أو الغيبة بصلة، دون أن يكون في نيته أن يؤذيك كما البقية، الذين وعلى الرغم من أن آباءهم على قيد الحياة، لم يكن ليفكر مثلهم، بأنك قتلت أباه وعليه بأي وسيلة أن يلسعك بكناياته أو تلميحاته أو يلزمك أن تدفع ثمن تلك الجريمة النكراء.

ما أريد قوله، لم يكن على خصره سيف أو سكين يحملهما ليستخدمهما لاحقاً، فيشعر بأنه قد أنجز بهما أمراً مهماً ولم يكونا قط زينة وحسب. ما يميزه من غيره هو تلك العادة، فأثناء الحديث كان يستعين بيديه، وهذا بحد ذاته مكسب في هذا الزمن، أي أن يحبك أحد ما إلى درجة يستعين بها بحركات يديه من أجل أن تفهم بدقة ماذا يريد أن يقول، فأنا لست من هذا النوع من المتكلمين، أي لا أستطيع أن أساعد الآخرين من خلال حركات اليدين لأخلق لهم تصويراً في أذهانهم حول ما أريد قوله فيدركونه بشكل أسهل، مع أنني أحب أغلب الناس من حولي.

اليوم كالعادة، أتى، خلع معطفه المطري علقه في المكان المخصص للملابس جلس خلف الطاولة المخصصة لشخصين الموضوعة في الزاوية اليسارية من المقهى، في مكان نوره ملائم، وهذه الأيام كان هناك مدفأة حطب صغيرة حقيقة موقدة، طبعاً ليست إلى هذه الدرجة حقيقية، أي ليست من تلك التي نضع فيها الحطب والخشب ليحترق، لا، أعني من تلك المدافئ التي تشبه مدفأة الحطب يخرج من وسطها من الخلف أنبوب غير منتظم يظهر للجميع، ومن ثم يتواري في بطن الجدار، وطبعاً إن لم أذهب إليه لأخذ طلباته فإنني ولا شك لن أدرك بأنه يجلس في المقهى، فأتعجب ماذا يفعل هنا؟ فعليه أن يكون في مصنع السماد الخاص بوالده يراقب العاملين لئلا يسرقوا شيئاً.

لو أمعنت النظر جيداً - قبل الذهاب إليه والسؤال عن طلباته - كان علي أن أعرفه وأخمن من شكل رأسه من الخلف أنه هو بذاته، فقصة شعره ما تزال على حالها لم تتغير، والكنزة الصوفية الرقيقة الحمراء التي ما تزال ترافقه منذ عامين والقميص الأبيض الذي تظهر أكمامه وياقته من تحتها، أيضاً لم يتغيرا.

بالفعل جلس خلف الطاولة كما يجلس في قهوة كنج، فرد نفسه على الكرسي، ومد أرجله من على جانبي الطاولة، فيخيل إليك ولكأن المقهى إرث ورثه عن جده، وإن لم تصدقوا ذلك، أقول لكم إنه يستطيع أن يريكم سند ملكيته، كانت يداه إلى المعصم في جيب بنطاله الرمادي الذي يبدو وكأنه قد وصل الآن من المكوى.

انشغالي بالزبائن أبعد عن خاطري فكرة قدومه إلى هنا، لذا لم أعرفه، وكما أفعل عادة فأذهب وأخذ طلبات أي زبون تقدمت نحوه وسألته ماذا يرغب في أن يأكل وماذا أقدم له، رفع رأسه نحوي وقال: يكفيني أن يُنجز عمله، فعليه أن يعرف ماذا يريد الزبون ومن ثم تماماً كما اليوم الأول للقائنا أخذته الحماسة - لدرجة أنه نهض وعانقني - نهض لنتعانق، ولكن المختلف هذه المرة بأنني كنت أنا من أصابتي الحماسة وتسمرت في مكاني.

لم أنس ذلك اليوم، عندما أوصى بأحد الطلاب فقال لي سيأتي اليوم إلى هنا نصف أستاذ ويقترح علي صفحة، هو من أصدقائه، وطالب في جامعة طهران، يدرس الكيمياء، ومختلف عن غيره، ومع أنه ليس لديه خبرة في الكتابة إلا أنه على قدر عال من الذكاء، ويمكن الاعتماد عليه، فانتظرت حضوره. حين وصل، لا بد أنه كان قد فكر مع نفسه كل الطريق، بأي مدير تحرير ذي عظمة ووقار سوف يلتقي، شبيه بأولئك الذين ترى منهم المئات في كل مجلة، لأنه لحظه جلوسه سألته ماذا يقترح عليّ، فقال: أعطني ورقة لأكتب شيئاً حول الفلسفة.

قلت: فلسفة ماذا؟

على الرغم من تعجبه قال: الفلسفة المعاصرة.

قلت لعلك أخطأت بالعنوان، أمعن النظر في هؤلاء الرفقاء الذين يتسكعون بين ردهات الجريدة وكل اهتمامهم منصب على العجة المُعدة لوجبة الغداء، والذي جف لأننا لم نتناوله، لينظر ويتأمل هل يرى بينهم مثقفاً واحداً؟ وهل أعطيك أنا الآخر انطباعاً بأنني مولع بمثل هذه الخزعبلات والكلام الفارغ فأعطي نقودي لمجلة لتطبعه، ليشار إلى من قبل الجميع فيقولون: هذا الشخص يفهم الكثير من الأشياء؟ هل ظننت أني أعمل كل الأسبوع هنا كالحمار من أجل أن أمنح الناس شيئاً عن الفلسفة المعاصرة؟.

عندما كان يتعجب أو يسمع استهزاءً من أحدهم، تكون ردة فعله أن يبقي جسده إلى الكرسي، ويكتفي برفع كتفه المقابل لكم إلى الأعلى، يعدل رقبته بشكل مستقيم ويطوف بعينه، يحدق في نقطة مجهولة في المكان - وكأنها امتداد لذهنه - وكأنه يدعي بأنه يجمع المعلومات في رأسه ويحللها، ولكن لم يصل إلى نتيجة، في لحظتها وبفارق ثانيتين يعود إلى أرض الواقع وبعيونه المستغربة، يحدق في عيونكم. في ذالك اليوم، التزم بكل هذه البروتوكولات، ولكنني لم أرتح لنظراته، تابعت، أنه إن أراد يستطيع الحصول على صفحة باسم ملعب مشجعي مانشستر يونايتد، وطبعاً لم أكن مهتماً هل يشاهد المباريات أم لا، من معجبي فريق مانشستر أم لا، جل همي هو أن يبدأ بسرد قصة على الصفحة يتحدث فيها عن مانشستر وجمهوره ويقدم نفسه للقراء وكأن كل حياته متوقفه على إريك كانتوناغش، فإن لم يفعل فليعد أدراجه، وليجلس إلى مجموعة من الأساتذة الذين يشبهونه، ويتحدث إليهم عن الفلسفة المعاصرة ما شاء، فيشعر بأنه يفهم شيئاً ما، لقد قلت له إني مندوب القراء إلى المجلة، ولن أسمح بأن يطبع شيء فيها يكون صعباً علي فهمه، قد قلت كلمة فهمي وكأنني

متخلف أو شيء من هذا القبيل، وقف وكأنما أثارته كلماتي فلم يستطع كبح جماح نفسه - تلك النفسية الإنكليزية لم تكن لتنفعه بشيء- بدأ يسير بالغرفة مستعيناً بيديه ليوصل ما يريد قوله بشكل أفضل، سألني: هل تعني ما تقول؟

عندما يقف، ويريد أن يتأكد من شيء ما، يضع يديه على خاصرتيه بشكل نصف دائري، ويجعل إحدى قدميه أمام الأخرى، لا بد أنه يظن أنه إسحاق نيوتن، ومن المقرر أن يأخذوا له صورة ليطبعوها على غلاف العدد الجديد من مجلة العلوم. عدت وقلت له، لسنا أصدقاء لهذه الدرجة لأمزح معك، على الأقل يجب أن تمضي دقائق عشر لأشعر بالقرب من أحدهم فأتحدث معه بتلقائية، وأبدأ بالمزاح، سألني: يعني تريد صفحة عن معجبي مانشستر يونايتد؟ حقا؟ لا أصدق هذا.

قلت: وهل سمعت شيئاً آخر؟

قال: لا، ولكن يصعب تصديقه.. وهل يعقل شيء كهذا؟

وكأنه أراد العون من أحدهم ليساعده على تصديق ما سمعه للتو، ولكنه كان وقتاً خاصاً، لم يكن هناك من أحد لمساعدته، وإن كان من أحد فاهتمامه منصب على الأوملت الموجود في المطبخ على شعلة الغاز.

هذا ما جرى عندما قلت له هنا - أي في مجلتي - عليك أن تتوقع ما لا يمكن توقعه من باقي المجلات. لقد عجزت عن فهم ردة فعله ماذا تعني، فلقد وقف من جديد متمثلاً بشخصية إسحاق نيوتن، فكان على أن أستنتج بنفسي هل رفض أم قبل اقتراحي، لأنه عندما يكون مشغولاً بتجزئة وتحليل القضايا، حقاً لا يمكن أن يستشف شيئاً من خلال حركاته أو وضعية يديه ووجهه، أو حتى من نبرته في بيان جملاته، لا يمكن أن تفهم ماذا يجري في عقله

كأي رجل أصيل آخر. فقط، عندما تقدم إلى الأمام ومد يديه ليصافحني - وكأنه على أن أمضي إليه وأعانقه- قال: هذا الثلاثاء ستكون الصفحة الأولى على طاولتي وعندها فقط علمت بأنه وافق على اقتراحي. هنا أيضاً أدركت أنه إن صافحني فهو أحد أشد المعجبين المتفقهين بفريق مانشستر يونايتد ويفكر مثلي أنه على دوايت يورل وأندي كول أن يعبرا من دائرة خط الوسط ويهجما نحو خطوط دفاع الأرسنال الفاشلين فيضعا هدفاً في مرماهم.

الآن من جديد هو هنا، أي إننا في نفس المكان جلست بقربه وسألته في أي مكان ولدت هنا؟ أين هي مظلتك؟

أخبرني أنه مدعو لحضور جلسة مدارسة ليوم واحد حول الأسمدة وفضلات الحيوان، وصل صباحاً وعليه المغادرة ليلاً بالطائرة، أي لديه ما يقرب الساعتين من الوقت ليعود إلى الفندق ويجمع أشياءه ويذهب.

سألته: متى سيترك ما تحت البقرة والخروف ويترك مخلوقات الله وشأنها، فمنتجاتها ملك لها تلقيها أينما أرادت على الأرض، ولا يحق لأحد أن يتدخل بها مطلقاً، أي لا يأخذوها فيحللونها ماذا تحتوي وماذا لا تحتوي، لأنها حيثما سقطت يبدأ علف ذلك المكان بالنمو شيئاً فشيء ليصل إلى المتر، طبعاً، واضح أنني أتفوه بالحماقات لأشعره بعد مضي فترة من الزمن بقربه مني، فلا يظن مثل اليوم الأول بأنه التقى بشخص محترم ذي أخلاق وأصول، فيختفي خلف تلك الشخصية فلا نستطيع أن ندير حواراً كما يفعل البشر، وإلا فمن الواضح أن عمله شيء آخر لا علاقة له بما تحت الأبقار....

كنت قد قلت له لأكثر من عشرة مرات بأنني كلما فكرت في بناء مصنع للأسمدة، يتجسد في عقلي صورة لبقرة اصطناعية كبيرة جداً، عيونها من شدة

الألم قد جحظت من مكانها، ودفعة واحدة -أي دون أدنى استراحة تنفسية - تخرج من تحتها الفضلات التي غُلفت على شكل مئة كيلو، غير مشذبة، وكلها تشبه بعضها بعضاً، فلا يسمحون لأحد أن يجلس ويصمم الأكياس لتبدو أنيقة مرتبة وجميلة، والسبب أنهم يعتقدون بأن أهل الريف لا يدركون معنى الجمال أو لا يستحقونه، مع أن روث الحيوانات من البقر والخروف لا يشبه أحدهما الآخر، فلكل منها جماله الخاص، وعندما تقع على الأرض تصدر منها تلك الرائحة القاتلة التي تفتك بالإنسان بمجرد أن يشمها من على بعد بضعة أمتار، على الأقل هذا حالي معها.

سألني عن ابنتي وردة الضفيرة، حسناً دائماً هكذا كان ديدنه يسأل عن أحدهم ليوقن أن انتباهكم منشد نحوه، فيسأل عن الزوجة أو الزوج، أخبرته أن ابنتي كانت هنا منذ ساعتين ولسوء الحظ لم يتسن له أن يراها كيف أصبحت سيدة نفسها، تأتي كل يوم إلى المقهى، ومنذ الصباح الباكر تغسل الأواني المتكدسة بعضها فوق بعض، من ثم تأخذ أجرة عملها حتى آخر قرش وتذهب إلى منزلي أو منزل أمها.

رفع من جديد كتفه نحو الأعلى عدل رقبته، وسرح في مكان ما في الفضاء الخالي، ولكن قبل أن يحدق في عيني كعادته دائماً ومن ثم يسألني عن شيء ما، أخبرته أنني قد انفصلت عن بريسما.

سألني: ماذا تعني؟ ورسم بيده في الهواء علامة تشبه علامة الضرب التي تعني تقريباً أن أحدكما تقدم بدعوى قضائية، ومن ثم بعد مدة تمت دعوتكم لجلسة استماع أمام القاضي الذي استمع لما لديكما، ومن ثم أصدر قراره على الرغم من عدم اقتناعه، فلطالما ردد على مسامعكما كم أنتما

مناسبان بعضكما لبعض، ولكن كان من الجلي أنكما لا تستطيعان بعد الآن أن تحييا معاً بسعادة وهناء، لذا كان لا بد من أن تذهبا للمحكمة وتوقعا أسفل ورقة الطلاق، كلمة بالتراضي، لقد ذهبتما وأنجزتما كل الإجراءات وانفصلتما بصورة رسيمة؟

أجبته: لا، لم يحدث أي من هذه الأشياء التي رسمتها في الهواء، بريسما ذهبت إلى المحامي من أولئك العاطلين عن العمل والمستعدين ليرفعوا دعوة ضد والدتهم من أجل تومان واحد، جلست الغبية وأفضت له بمكنونات قلبها المتألم، المحامي صدق نفسه وبعث لي بمذكرة يبين فيها أنني لست رجلاً جيداً وكما تقول زوجتي، فإنها لم تعد تستطيع أن تبقى معي، ومن الأفضل أن أجمع لها مهرها كرجل عاقل وأعطيه لها وإلا فمن الممكن أن يفعل شيئاً يجعلني أقضي بقية عمري في السجن.

تخيل أن تكون متعلقاً بزوجتك وهي كذلك، وفي لحظة ضعف، تذهب إلى المحامي وتجلس وتفضفض له عن مكنونات قلبها وتقول الأشياء السيئة عن زوجها، لقد أخبرتها مئات المرات بأن النساء كثيراً ما يضرب الاستحمار رأسهن، فلا يدركن فداحة الخطأ الذي يرتكبن، لذا عليهن في مثل تلك الأوقات أن يفهمن هذا الأمر جيداً فلا يذهبن إلى أحد ويجلسن معه يفضفضن له، لأنه من الممكن أن يصدقهن هذا الأخير، فيظن أن أزواجهن لا يحببنهن، مع أن الحقيقة خلاف هذا،... وهي من بين الجميع اختارت واحداً من أولئك المحامين الذين يظهر خبزهم الحرام والنجس في وسط الخلافات والدعاوى.

كأن أحد الزبائن يريد شيئاً، لأنه كان يمد رأسه هنا وهناك عله يجدني، حسناً، ولم يجدني، ولم يكن ليتصور أني جلست إلى طاولة أحد الزبائن،

فليس من عادتي أن أصبح صديقاً للزبائن، وأسوّق لنفسي بهذه الطريقة التي يعلمونك إياها في كتب الدقيقة الواحدة. من أين كان سيعلم أني جلست إلى صديقي الذي أود بشدة أن أجلس معه، دون أن يأتي أحد بإثري ليطلب قهوة أو أي شيء آخر، ويتطفل علي، هنا نهضت وقلت لعلي: سأعود حالاً.. أخبرني.. ما زلت تبدأ بالإسبرسو؟

أن يمتلك المرء مقهاه الخاص أمر إيجابي من جوانب عدة، أقلها أنه يستطيع أن يضع قدر ما يشاء من السكر في قهوته التركية، أما الوجه السلبي للأمر أنه عليك أن تكون متيقظاً للزبائن، فلربما بحثوا عنك ليطلبوا شيئاً ولم يجدوك، لأن انتباهك كان منصباً على مكان آخر على لوزات ابنتك، أو على رسالة الدكتوراه الخاصة بزوجتك، هذه الأشياء تسلبك راحة البال، فيقف المرء عاجزاً بحق، أيهما أنفع له، أن يمتلك مقهاه الخاص أم أن يعمل في مقهى الآخرين؟! وليضعوا الكمية التي يريدون من السكر في قهوتك التركية، أم من الأفضل أن يفتتح بالقرض الذي أمّنه مقهاه الخاص، فيتحكم بكمية السكر التي يريد ويحب في قهوته التركية؟

الهيئة العامة السورية للكتاب

الآن إلى الجحيم
إن لم ترد مصروفاً

عندما عدت إليه كان ينظر إلى ساعته، قال: إن الشمس تغرب هنا بسرعة!

قلت: لا بأس، فهي تشرق بسرعة أيضاً.

ضحك وسألني إن كان لدي سجادة صلاة أم لا، أجبته أنني قد فكرت بالأمر فذهبت واشتريت واحدة لأجله ولمن يشبهه من الأشخاص، وسيشعر حتماً بالسكينة حين يتأمل ما عليها من الرسوم والتطريزات، سألني إن كانت صلاته هنا محرجة؟ قلت له: لا، اطمئن، فكر وكأن المقهى إرث لك عن جدتك، من يكترث يا علي؟

ذهبت لأحضر له سجادة الصلاة، في هذه الأثناء غيّر أماكن الطاولة والكراسي في تلك الزاوية دون أن يسمع أحداً صوتاً لها، ووسع المكان على نفسه ليتمكن من وضع سجادة الصلاة مقابل القبلة، فيبدأ حالة العشق والوجد مع الله.

وبينما كنت أضع لإحدى الفتيات الرغوة على الكابتشينو كانت الأخيرة مستغرقة في علي - يصلي في تلك الزاوية منفصلاً تماماً عن العالم الخارجي- وكأنها كانت ترى براد بيت أمامها في لباس الإحرام لذا كانت تحدق بالشاب، فكرت مع نفسي كم هي جميلة تلك الأشياء العفوية وغير المتوقعة، أن ترى شخصاً عاشقاً للإسبرسو مثل علي في تلك الزاوية من المقهى الملأى بالأشياء

الدنيوية المعاصرة، وقد فرش سجادة الصلاة الملأى بالرسوم والنقوش المطرزة يدوياً، يصلي الصلاة على وقتها، فأنا مستعد لدفع عمري من أجل شخص - أياً كان هذا الشخص - يكون على طبيعته، فلا يخفي نفسه خلف ظواهر لا تساوي قرشين أسودين، أو خوفاً من كلام الآخرين، فلا يظهر ما ليس عليه، أولا يظهر ما هو عليه. حقاً، لطالما أعجبت به، فلم يكن ليكترث، وعندما يحين وقت الصلاة يفرد سجادته دونما خوف من نظرات الآخرين الذين يحدثون أنفسهم فيقولون إنه ترك كل الأماكن وجاء ليصلي في المقهى.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الأداء

منذ نحو أسبوعين ظهرت، كانت زرقاء من شدة البرد الذي وصل باكراً هذه السنة، عندما دخلت إلى المقهى توجهت فوراً نحو المدفأة وأدارت ظهرها لها، كانت تنفخ أنفاسها الدافئة داخل يديها اللتين كورتهما وقربتهما من فمها، أما أنا فكنت عند البار أعد رقائق البطاطا والجبنة لأحدهم لم أكن قد رأيته من قبل في المقهى، هو شاب نحيف وطويل، لحيته مخضبة، شعره طويل منسدل على كتفيه، شديد بياض الوجه، ملون اللحية، وكأنه المسيح نزل عن صليبه وأتى إلى هنا إلى مقهى البيانو ليبارك عائدات المقهى، فما إن دخل المقهى حتى توافد الزبائن من الباب والحائط، ولم أتمكن من أن أحك رأسي من ضغط العمل.

عندما شعرت الفتاة بالدفء توجهت نحوي وقالت أنها تريد أن تتحدث مع مدير المقهى، أشرت لها أن تذهب وتجلس على الكرسي الذي كنا قد وضعناه بالقرب من الكانتر تحسباً في حال لم يجد أحدهم مكاناً ليجلس فيه أو إن أراد أن يرى البار ليشعر بالحميمية، أو أراد أن نتبادل أطراف الحديث، وطبعاً، قيمة الفاتورة ستختلف حينئذ، أريد القول، لو شاء أحدهم أن يتحدث معي وهو يمزمز قهوته عليه ألا يتعجب إن أُضيف إلى فاتورته ثلاثون بالمئة زيادة على القيمة. لم نكتب ونعلن هذا الأمر للجميع، ولكن عندما يختار الزبون أن يجلس إلى البار ومن ثم يريد أن يدفع الحساب وقتها يفهم أن للحديث معي سعره الخاص لا يقل عن قيمة القهوة التي شربها، هذه القاعدة وضعتها لراحتي عندما

لا يكون هناك طلبات، ويكون وقتي ملكاً لي أفعل به ما أشاء، أشعل غليوني، أقرأ عدة صفحات لتافلر أو هانيغتون، مع أنني قرأتهما لأكثر من مئة مرة إلا أنني لا أكتفي من أن أجدد قراءتي لهما، أشعل غليوني، وأفتح صفحتي على النت التي لا يتجاوز عدد روادها الخمسة عشر، ولكنها تستحق مني أن أجعلها مواكبة للأحداث يومياً، أمسك هاتفي وألعب مع ابنتي، أو ألقي نظرة على الموقع، وأرى ما في الدنيا من يوم أودعتها في يد الله، أين أصبحت...

أشرت لها أن تجلس هناك، كان غليوني في فمي، وكنت أجفف الصحن الصيني الذي غسلته لتوي، كان دخان غليوني يزحف من جوار أنفي مثل الأفعى ويتسلل إلى طرف عيني ويدخل إليهما فيحرقهما، لذا كنت أحاول قدر المستطاع أن أغلقهما، تماماً كما في أفلام الغرب الأمريكي التي يمثل فيها كلينت إيستوود، فدائماً ما يضع السجائر الورقية على طرف شفاهه، ويغمض عينيه، فتظن أن طلقته الآن سوف تخطئ الهدف، وهو من سيتلقى الرصاصة، ويموت بدلاً من الرجل الواقف أمامه الذي ما انفك يكيل إليه التهديدات، ولكن ما يحدث دائماً أن ذلك الرجل المنحوس واليتيم، هو من يتحسس القلادة التي على صدره، ليصدق أنه قد مات، فيسقط صريعاً على الأرض، أي دائماً ينزع القلادة عن صدره ويرى سطحها وقد ثُقب، وحسب القاعدة لقد اخترقتها الرصاصة، ونفذت إلى قلبه، وعليه أن يدعي الموت وإلا سيوقفون التصوير، وسيكون فمه عند المشهد القادم ملطخاً بالطين.

عندما جلست، رأيتها، كانت فتاة ممشوقة القد سمراء، شفاهها وفمها وأسنانها منسقة، تلمع أسنانها كاللآلئ، من تلك اللواتي يمنحن المرء ابتسامة ناعمة، تنظر إلى وجهها من الجانب، فترغب بأن تجلس وتنظر إليها

ما دامت الحياة مستمرة، طبعاً، إلى أبد الآبدين، هذا إن تبسمت على النحو الذي تحبه منها، وإلا فإنها حين تطبق شفاهها لا تختلف عن أي امرأة أخرى لا تمتلك مثل هذه الشفاه وذلك الفم، حتى وإن نظرت إليها مباشرة وجها لوجه وضحكت لك، لن يتعلق قلبك بها، ولن ترغب في أن تتأملها، ما أريد قوله أنه من المهم جدا من أي زاوية تنظر إليها من الأمام أم من الجانب. أخبرتني أنها طالبة فنون جميلة، وأتت لتقترح علي أن تأتي كل سبت من كل أسبوع فتقدم أداءً في المقهى لا مثيل له في باقي المقاهي.

أجبتها: موافق، متى نبدأ؟

لقد أفرحها جوابي، وكان واضحاً أنها لم تتوقع أن أوافق على طلبها بسرعة دون تململ أو شكوى، فبدأت تشرح لي ماذا يعني الأداء وماذا تريد أن تفعل، جففت الصحن جيداً، وأطفأت سيجارتي في منفضتي التي كان عليها لصاقة منمنمات ماركة ريجستون.

هذا ما جرى، جلست وكانت مستمرة بالشرح فقلت لها إنني أعلم ماذا يعني الأداء، وماذا يمكن أن تكون قد رسمت في رأسها من الخطط لذا لتختصر الكلام وتخبرني متى تريد أن تبدأ عملها، ومتى سيكون أول برنامج لها من أجل تنسيق البوستر، ووضع الإعلان على مرأى الجميع.

كانت تشبه ابنتي قليلاً، نصف التفاحة الأخرى عن والدتها، ولكن بشرتها ووجها ورثتهما عني، أضف إليهما شامتي المتحركة التي استقرت في الآونة الأخيرة تحت صدري الأيسر، كانت تتحرك هنا وهناك وكلما أردت أن أريها لأحدهم، كان علي أن أترك كل شؤون حياتي وأبحث على جسدي لأجدها، وفي النهاية يقول لي الشخص الذي أريد أن أريه إياها: إنها هنا،

فأكف عن البحث عنها، وعلى هذا المنوال، كانت مصيبة بحق إن أردت أن أريها لأحدهم، ودائماً حينما كنت أرى الفرصة مناسبة كنت أسأل نفسي هل شامات الجميع كشامتي لا تركن في مكان واحد أم إنني أنا محظوظ بامتلاك واحدة لعينة لا تستقر في مكان واحد.

سألتني: ما رأيك أن نبدأ من هذا السبت؟

قلت: لا بأس، لدينا ثلاثة أو أربعة أيام لنخبر الجميع.

أخبرتني إن كنت موافقاً فسوف تشتري الضمادات الطبية، فهي تريد أن تضمد رأس الزبائن بها، نفس الضماد الذي يلفونه حول يديك عندما تُكسر ويعلقونها على الرقبة، كانت فكرة حسنة، تستطيع أن تثير حنق الجميع بها أو تسعد حالهم، الأمر منوط بحال رواد المقهى من أي فئة هم، من أولئك المتحجرين الذين لا يرتادون المقاهي ليشاهدوا مثل ألعاب السيرك هذه، أم من أولئك الذين يحبون بين الحين والآخر الاستمتاع بمثل هذه الألعاب البهلوانية.

سألتها: كيف أنت والقهوة؟

أجابت بأنه لا يسوؤها أن تشربها.

قلت: سأشرب قهوة تركية.

قاطعتني قائلة: قهوة فرنسية.

من أولئك شبيهي عود البخور فوق النار، أي هكذا ودون سبب يذكر، لا يهدؤون في مكان واحد، وإن خطر لك أن اقترحت عليهم شيئاً، فهم مستعدون منذ الصبح الباكر للمجيء معك إلى المناطق الشعبية، ليأكلوا حتى التخمة من أكلة الرؤوس والمقادم إلى جوار مجموعة من عمال البناء الذين

يريدون المغادرة بعد نصف ساعة ليسلموا الآجر أو لخلط مزيج الإسمنت المسلح للبناء، وأجسادهم تفوح منها رائحة عرق تعب الأمس، يأكلون الرؤوس والمقادم دون خوف أو مهابة من العمال، الذين ينظرون إليهم بتعجب وغرابة، وكأن بيونسي قد أتت إليهم، وأوصت على لحمة الرأس.

شربت قهوتها الفرنسية، بحثت عن حقيبتها فظننت أنها تريد أن تدفع الحساب، ولكنها أخذت حقيبتها الجلدية ووضعتها على كتفها، ومن ثم طلبت مني ثلاثة أو أربعة آلاف تومان من أجل أن ترتب موضوع شراء الضمادات الطبية لأداء يوم السبت، لقد أثارت إعجابي بشدة، أريد القول، أثارتني ثقتها بنفسها وصراحتها، فهي لا تشبه أولئك المرائين محبي المال الذين يجاملونك دائماً، فلم يستغرق الأمر من وقتي أكثر من نصف ساعة لتقنعني أن تأخذ أموال الضمادات وتكون قهوتها على حساب المقهى، لقد انبهرت بها إلى درجة حييت فيها عزة النفس التي لديها.

إن أكثر ما أبغضه أن يتدلل أحدهم عليّ لأجل مالٍ هو من حقه، فيقول دوماً: خلها علينا، نتصافى لاحقاً، هذا النوع من النفاق المنفر لم أكن لأتحمله يوماً، ومتى ما واجهني، تتملكني حالة من الاستفراغ أرغب في إفراغها في وجه الطرف المقابل، وحقاً في وقت لا يوجد مناديل ورقية حولنا حتى لا يتسنى له تنظيف نفسه، وطبعاً، أرغب في أن أتقيأ عليه بصورة يجبر فيها على ركوب التاكسي والذهاب لمنزله، فيغتسل ويغير كل ملابسه، ومع أنه أعطى ملابسه المتقيئ عليها ليغسلوها له إلا أنه وفي كل مرة يفكر بارتدائها يحس بحموضة قديمة، فلا يعرف من أين تدور في أروقة أنفه فيحين دوره ليتقيأ.

عندما خرجت، تذكرت أني لم أسألها عن اسمها، فلم أعرف ماذا علي أن أكتب فوق إعلان الأداء المقرر إقامته يوم السبت - فعلي أن أعطيه لأحدهم ليصممه، أو إن كان لدي الوقت والرغبة أجلس بنفسي أمام برنامج الفوتوشوب وأنسق شيئاً جميلاً- أي اسم علي أن أكتب على الإعلان ومع أنني ناديتها مراراً سيدتي، سيدتي المحترمة، لم تلتفت إلي.

الهيئة العامة السورية للكتاب

شوكولا ساخنة

لو رأيتموه، كان من المستحيل أن تظنوا أنه يعاني الارتياب أو جنون الشباب، وبغض النظر صيفاً كان الجو أم شتاءً كان دائماً ينتعل الأحذية العسكرية دون أن يربط أربطتها فيتركها تتدلى أسفل الحذاء، ولا يعير اهتماماً إن اتسخت أو اهترأت، في الحقيقة لا فرق يذكر بيننا وبينه حتى نتحدث عنه هاهنا، إنه غريب نوعاً ما، فملابسه قديمة قليلاً لونها باهت، وجينزه الأسود قد أصبح فاتحاً من كثرة الاستعمال، ولكن مع هذا لا شيء مما ذكرت يعطيكم الحق أن تحكموا عليه بأنه مصاب بمرض ما، أو أنه قد فقد صلته بالواقع، أو أنه شخص خيالي.

عمله على الشكل التالي، دون خطة مسبقة وبرنامج معد سابقاً، يسير في الشوارع يذهب إلى شركة ما، ويعرف عن نفسه بأنه مترجم، فإن كان لديهم نص أو رسالة يريدون ترجمتها فسوف يترجمها لهم، يأخذ لقاء أتعابه ما يكفيه ليوم واحد، ومن ثم يمضي وشأنه، لذا لا ترونه كل يوم ينهض ويأتي إلى هنا ويطلب الشوكولا الساخنة، أي في كل مرة ترونه بها، يبدو واضحاً جلياً أنه قبل نصف ساعة كان لديه ترجمة أو شيء من هذا القبيل، حصّل القليل من النقود لينفقها على الشوكولا الساخنة، وعلى الأغلب يشربها بسرعة كبيرة، وما إن أشحت بناظريك عنه حتى يختفي.

لقد أخبرتكم بذلك حتى لا تظنوا أنه مجنون أو مختل، لا، إنه شاب محترم ومنطقي، لا يقدم على شيء فيخيف من حوله، فتضطر لترك مسافة بينك وبينه، وتحذر الناس من الاقتراب منه خشية أن يفعل شيئاً سيئاً لك أو للآخرين

لا سمح الله، لا! أريد أن أقول، حتى من هذه الناحية هو شخص مريح، ولا يجعل نفسه أسير تلك الآداب والأخلاقيات كما يفعل الكثيرون منا، وهذا أمر قابل للثناء.

طبعاً، أخبرتكم أنه كلما جاء إلى مقهى البيانو، وقبل أي شيء، كان يطلب كأساً من الماء، فيدخل يده باضطراب في أحد جيوب سترته الكحلية التي لطالما زر أحد أزرارها بالخطأ، وقلما حدث أن زره في مكانه الصحيح، ويخرج من العلبة البلاستيكية الخاصة بمسودة فيلم تصويري الأقراص الملونة المتنوعة، ويضعها على كفه، ويجعلها كلها في فمه وبجرعة ماء واحدة يبتلعها، وبعد قليل أي بمقدار إعدادي لفنجان قهوته التركية، يصبح السيد الشاب والمعقول كما قلت لكم، وعندما أقول شاب، لا أقصد أحداً يبلغ من العمر خمسة عشر أو ستة عشر عاماً، لا، لعله في الخامسة والأربعين أو السادسة والأربعين من العمر، ولكن كأن الطفل الصغير بداخله لم يكبر قط، أو لعل والده كان قاسياً عليه، فلم يمنحه المجال ليكبر، فهو طاهر ومعصوم، كشخص في السادسة عشرة من عمره، وكلما تأملته لم يخطر لك مطلقاً أنه أكثر من ثلاثة وعشرين أو أربعة وعشرين عاماً، أعني لهذه الدرجة قد بقي شاباً، فهو لا يكترث للدنيا ولا يؤذي نفسه بسبب المصائب التي تعصف به، أريد القول، لا يشبه أي أحد منا، غير راضين عن أي شيء دائماً نلعن حظن، ونرجع الأمر كله لمصيرنا الأسود.

اليوم أيضاً جاء وجلس في مكانه المعتاد، وإن لم أذهب إليه وأجلس معه فإنه حالما ينهي الشوكولا الساخنة سوف يضع الكأس من يده ويغادر، ولكأنه لم يكن يوماً هنا، وتبقى روحه تائهة لا تجد سكينتها في أي مكان، تشبه حقاً شامتي التي حدثتكم عنها، فإلى هذه اللحظة لا أعلم أين هي إن أردت أن أريكم إياها.

كان المقهى خالياً من الزبائن، ولم أكن لأهتم بهذا الأمر فيشغلني، ما كان أنه عندما كنت أحضر له الشوكولا الساخنة لأضعها على الطاولة، طلب مني الجلوس إليه، ولم أكن لأقول له عفواً لدي عمل أقوم به على أن أذهب، ولكن سحبت الكرسي للخلف وجلست، وما إن جلست حتى أدخل أصبعه الصغير في أذنه وقال: أشكرك أنك جلست معي، وبعد أن أخرج أصبعه من أذنه، ألقى نظرة تحت أظفره الذي قد صبغ باللون الأصفر، ولكنه لم يكلف نفسه عناء تنظيفه.

من تلك الفئة من الناس لا يسأل عن أحوال أحد، ويقول: إنه لمدعاة للسخرية عندما ترى أحدهم سالماً معافىً واقفاً أو جالساً وتسأله كيف حاله. حسناً، إنه أمر بديهي، فلو كان مريضاً لما جاء وجلس بالقرب منك، أي لما استطاع أن يفعل ذلك، وحتماً لبقي في بيته طريح الفراش، وكان مجبوراً على الذهاب بشكل مستمر للحمام ليخرج البلغم البني أو الأخضر من صدره في حوض الحمام، من ثم يفتح عليه صنبور الماء، فيتلوى أمام ضغط الماء ويذهب إلى الأرض ويختفي إلى غير رجعة.

عاش خمسة عشر عاماً من حياته في أمريكا، ويخبر عن نفسه فيقول: إنّ هذه الخصلة رافقته من تلك الأيام، فلا يقع في فخ الأعراف أو المبالغات الإيرانية وكأنها ضريبة عليه أن يدفعها، ولذلك هو منكفئ على نفسه مبتعد عن الجميع، أما الآخرون فيعتقدون أنه شخص بارد المزاج، متعال، مع أن الحقيقية هي عكس ذلك.

وهكذا وبينما هو يحرك الشوكولا أضاف: احذر من أن تكون حياتك بدون طائل لأنه إن كانت كذلك سوف تعنف في تلك الدنيا بشدة بصورة لن تتخيلها أبداً.

فسألته من أين لك مثل هذا الخبر الدقيق، قال: أنهم أتوا بالأمس ليأخذوه معهم، ولكنه قاومهم، واستطاع خداعهم.

سألته: من الذي أتى إليك ليأخذك؟

قال: لا أعرف الأسماء، ما أعرفه أنهم كانوا مأمورين أن يحذفوا عديمي الفائدة، يا حسب قولهم: عديمي الجدوى من دورة الحياة، وحالما يرون أحدهم يضيع حياته بالمجان ودون فائدة، يأتون إليه ويأخذونه معهم.

سألته: والآن أخبرني كيف خدعتهم فانصرفوا عنك؟

قال وعيونه تلمع قلت لهم: اليوم لم أكن عديم الفائدة، فلقد ترجمت شيئاً في الصباح، وبينما هو يرقبني بنظراته ليرى ردة فعلي على ما قال، أضاف: هل تريد الحقيقة اليوم لم أترجم شيئاً، ذهبت إلى خمس ست شركات ولكن لم يكن لدى أي منها عمل توكله إلي. كنت لأسأله ما داموا دقيقين إلى هذه الدرجة ولا يتركون أحداً يضيع حياته دون فائدة، كيف انخدعوا أمامه وأبقوه ليحيا على هذه الأرض بضعة أيام أخرى؟! ولكنني قلت لنفسي لماذا أزعجه، وأجعل الشوكولا كالسم على قلبه، فلأدعه يستمتع، ويفكر بأنه قد خدعهم، وبأنني قد صدقته.

قال: وكأنك لم تصدقني؟

قلت: لا، لقد صدقتك.

قال: لا، واضح أنك لم تفعل.

سألته: ما الداعي من أن أكذب عليه؟ إن لم أصدق كلامه فلماذا أدعي أني صدقته؟

وكأنه يريد أن يلوم نفسه، أطرق رأسه، وبينما هو يحرك الشوكولا، قال: إن هذه أكبر عيوبه، فالأشياء الحقيقية لا يفهمها معظم الناس، وتصديقها

صعب بالنسبة لهم، وهو لا يتوخى الحذر، فيسوقها على لسانه بدون تجملات وبشفافية، وهذا ما يجعل الكثيرين يظنون بأن مشاعره مختلة وبأنه مجنون.

طمأنته إلى أنني لا أفكر مثل هؤلاء الناس، وبرأيي أنه أكثر عقلانية من كثير ممن أعرفهم.

أسعده ما قلت كثيراً، لأنه قال: سيدي، الشوكولا الساخنة على حسابي، فاقترح أن أذهب للبار وأعد لنفسي قدحاً من الشوكولا الساخنة وأضعها على حسابه، ومن ثم أجلس بقربه، وأحتسيه.

قلت: كأن عملك اليوم كان مربحاً؟ ولكن سرعان ما اعتراني الندم من قولي هذا، حسناً، لا بد أنه يمتلك في جيبه مقداراً من المال يدفع فيه قيمة حسابي، وإلا فإن المرء لا يتفوه على لسانه بأي شيء دون تدبر، بالطبع لم يكن قصدي التقليل من شأنه، ولكن من الممكن أن يظن أنني أريد أن أذكره برزقه اليومي، لذلك وبسرعة تداركت الأمر وقلت: حسناً، واحد خاص من الشوكولا الساخنة لنفسي وعلى حسابك. خاص؛ يعني عوضاً عن أن أسكب مثل الغشاشين بودرة الكاكو مع حفنة من السكر والحليب في فنجان واسع الفم، أغليه جيداً حتى لا يمكن تمييزه من حليب الكاكو، بدل هذا كله أتناول قطعة من الشوكولا الأصلية أغليها في فنجان أبيض اللون نقش عليه عدد من الورود الناعمة باللون الأصفر الفاتح، وعندما تحرك ملعقتك داخل الفنجان لتتناول القليل منه تمسحه على لسانك فتشعر بقطع الشوكولا تنفصل عن الفنجان.

قال: لا ضير، وعندما أذهب لأعد الشوكولا لنفسي، فلأتلطف وأحضر له غليوني، الذي رآني أحياناً أدخن منه، ليأخذ بضع سحبات من الدخان، لقد مضى وقت طويل، ولم يدخل فيه الدخان إلى رئتيه، والآن وقد تناول الشوكولا

لا شيء في الدنيا يعدل أخذ عدة سحبات من الدخان، حقاً، إنني مستعد أن أعطي رأسي ولا أعطي غليوني لأحد ليضعه في فمه ويبزق فيه، قلت: حسناً، وعندما عدت إلى الطاولة أخرجت غليوني من غلافه الجلدي ووضعته في يده، رأيته قد دهن باقي الشوكولا على جدار الفنجان من الداخل، بإظفره، وكان واضحاً أن تأمله لم يكن في جدار الفنجان، بل في مكان آخر ما فوق سطح الطاولة، ولم يكن واضحاً ما هو معادله الذهني أو أين..

قطعاً لم أكن أريده أن يفكر أن تلك الجملة التي خرجت من فمي المنحوس فجأة، وجعلتني أشعر بالسوء لقلة فهمي، تعود إلى أنني شخص سيئ ومصطنع، أي لهذه الدرجة أنا سيئ، فلا أقبل أن يضع الآخرون غليوني على زاوية شفاههم، ليس لأني لا أحب أن يتف أحدهم لي فيه، بل لأني إنسان عديم الإحساس وأميز نفسي من بقية خلق الله.

الهيئة العامة السورية للكتاب

لا تخبره بهذا

هاتفتني حماتي وقالت: أينما كانت ستظهر قريباً، لقد استقلت الباص منذ ثلاث أو أربع ساعات وانطلقت، واضح أنها لم تكن تتحدث عن نفسها، بل عن ابنتها الأخرى أخت زوجتي بريسما التي تصغرها بعشر إلى اثنتي عشرة سنة ولكنها تشبهها كثيراً، وكأنهما سندريلا وقد قسمت إلى نصفين، أعني كيف يمكن للخالق أن يشكل مخلوقين من نفس القالب، أمر يجعل المرء يقف عنده متحيراً متعجباً.

هما شبيهتان إلى درجة لا يمكن أن تمييز إحداهما من الأخرى، قطعاً هذا لا يعني أنه ليس بالإمكان إيجاد اختلاف بينهما، فزوجتي بريسما تعيش في برجها العاجي بخلاف أختها التي تسير على الأرض وتقف بإحكام عليها.

أريد القول: إن زوجتي حبيسة رؤياها، ففي كل مرة أحاول أن أتصورها في مخيلتي أراها ترتدي ذالك البلوز وتلك التنورة الزهرية التي يرثى لحالها -من الموديلات التي كانت رائجة في أمريكا في أربعينيات القرن الماضي، تعج بالزركشات الكبيرة والصغيرة التي لطالما أثارت إعجابي- تجلس على حافة غيمة تتدلى منها أقدامها الحافية نحو الأسفل، تحمل في يديها كأساً من الحليب المملوء حديثاً، تحدق فيه مثل قطة أرستقراطية وهي تتوق لشربه وتنتظر حتى يذهب سيدها وشأنه فتستطيع أن تنقض عليه.

لطالما بينت لبريسما المسألة التالية، بأنها قد بلغت الثلاثين من عمرها، ولكنها حتى الآن ما تزال تظن بأن الحياة تشبه القصص التي عندما نفتحها

يخرج لنا من بين صفحات الكتاب حذاء السندريلا أو هي نفسها أو العربة التي أرسلوها معاها لتوصلها إلى حفلة الأمير، من تلك القصص التي تهواها ابنتي وردة الضفيرة، وقد جمعت مجموعتها بعناية بالغة ولا تسمح لأحد بالاقتراب منها أو أن يفهم كيف رتبتها، أظن أنها عندما تزوجتني لا بد أنها خالتني أميراً أو شيئاً من هذا القبيل، وقد رتبت لها غرفة نوم تشبه تلك الغرف التي رتبها الأمير لسندريلا أقصد مملوءة بالستائر المخملية الغالية الثمن، والأغطية المحاكة من الذهب والناموسيات الحريرية التي تنصب كخيمة فوق السرير الخشبي المدور الذي طبع عليه ستة عشر إلى سبعة عشر دولاب هواء مخنثاً، أنا لست مستعداً لأن أنظر لمثل هذا السرير فكيف بأن أستلقي فوقه، وأبدأ بقراءة عقائد مهرج ما لا يقل عن مرتين ثلاث مرات في السنة لتكون تلك سنة بحق، وتستحق أن تحسب من عمر الإنسان.

عندما وضعت أم زوجتي الهاتف من يدها، اتصلت على ابنتي وأخبرتها بأن خالتها ستأتي إلى المقهى، وإن كانت ترغب تستطيع مخابرة مكتب التكسي الموجود رأس الزقاق، فتطلب سيارة وتأتي إلى هنا، وبالطبع هي من ستدفع أجرة التاكسي، فلست أنا من أريد أن أرى خالتي، لقد رأيت خالاتي بما يكفي، قالت: لا، أنت من سيدفع الأجرة.

قلت: لو كنت عازماً على الذهاب لمكان ما لأرى خالتي بالطبع سأدفع الحساب دونما شك.

قالت بأسلوب أكثر طفولية، أنت من سيدفع أجرة التاكسي، وكأنني إن لم أرضخ لطلبها سوف تنزعج، ولعل الأمر يطول حتى تغفر لي تقصيري في حقها.

سألت: إذن لماذا تتقاضين راتباً؟ حسناً، لمثل هذه الأوقات.

أجابت: إلى حد خمسمئة تومان أنا أدفع، لا أكثر.

قلت، حسناً، لا ضير، ما دفعني للموافقة على دفع أجرة التاكسي إن زادت على خمسمئة تومان أن فرحناز ليست فقط خالة ابنتي، بل هي أخت زوجتي أيضاً، وواجبي كأب أن أرتب لقاءات بين ابنتي وأقاربها كل مدة من الزمن.

من شدة حبها لخالتها، وصلت إلى المقهى بسرعة البرق، وما إن دخلت طلبت مني ثلاثمئة تومان فلن تتركني وشأني حتى تحصل عليها، وتضعها في حقيبة المال الزرقاء التي تعلقها على عنقها فحزامها طويل، الحقيبة اشترتها فرحناز لنفسها من ثم عادت وأعطتها لها.

وبينما هي تنتظر خالتها، خرجت من المقهى على الأقل عشرة مرات، تنظر إلى رصيف المشاة الذي ينتهي إلى شارع رئيسي، لعلها تحظى بخالتها، دخلت المقهى وسألتني بقلق وأكثر من مرة: أين هي خالتي فرحناز؟ ماذا إن لم تأت؟

أجبتها بنبرة توضح لها أنه لا أساس لقلقها واضطرابها: ستأتي لا تقلقي، عندما تقول: ستأتي، فهي حتماً ستأتي.

كان المقهى مليئاً بالزبائن، ودخان السجائر يعكر جو المكان بأسره من ارتفاع متر ونصف فأعلى، وكلما ارتفع أكثر زادت كثافته وتراكمه، لذا طلبت من ابنتي أن تشغل مكيف السيمنز، فلقد بحثت عنه طويلاً وطلبت أن يضعوه أعلى مدخل المقهى الرئيسي، بحيث لا يظهر للجميع، ولكن كان

واضحاً جلياً أن ماركته سيمنز، طلبت من وردة أن تشغله لأن يديّ كانتا في وعاء البوظة، فكنت أتناول البوظة بشكل منظم بواسطة ملعقة البوظة الإنكليزية الليمونية المقبض، وأضعها في الكؤوس الرفيعة ذات اللون الزهري الفاتح، ولها قاعدة خاصة وكنت أحبها جداً، طقم الكؤوس نفسه الذي كسرت بالأمس تلك الفتاة الفوضوية الصفراء واحدة منها، إذ ارتطم بالمزهرية الفخارية الصغيرة فوق الطاولة فطارت حافته، بينما كانت تحاول أن توصله لصديقها ليتذوق البوظة التي بداخله، وعند الحساب لم تعتذر عن الأمر، أو على الأقل لم تظهر ندمها.

وصلت فرحناز وعانقت وردة الضفيرة من الخلف، كانت الأخيرة مشغولة بلعبتها المعتادة، تلعب بالخلاط اليدوي الذي لم أر مثيلاً له إلا في مقهى غلاسه، أما بقية المقاهي فاكتفت لتييسر عملها بخلاط ذي ضجيج عال يتلف أعصاب المرء، حسناً، لقد شاهدت وصول فرحناز ولكنني لم آت بأي حركة لتتمكن من أن تفاجئ وردة الضفيرة وتعانقها من الخلف، فأكثر ما يرغب به الأطفال أن يأتي أحد يحبونه فيغافلهم ويحتضنهم من الخلف فلا يمنحهم مجالاً ليلتفتوا برؤوسهم وينظروا إليه.

ليس لدى أدنى فكرة عن أخلاق هذا الجيل، فلا شيء يظهر في عيونهم، أما أنا فعندما كنت صغيراً كنت أتوق أن يحتضني أحد ما عمي أو عمتي أو أياً كان - دون أن انتبه - وحين التفت برأسي أتفاجأ بأنهم هم من يحتضنني وأبقى متعجباً لمدة من الزمن متى أتوا وكيف لم أرهم؟

طبعاً هذا الأمر لم يحدث معي قط، فهم لم يقيموا للأمر وزناً، وأنا لطالما علمت مسبقاً بقدومهم أو في أسوأ الحالات عندما كانوا يصلون كان وجهي دائماً مواجهاً لهم.

صاحت وردة الضفيرة: خالتي فرحناز، كم أنت سيئة!، وحاولت أن تفلت من بين يديها فتنسل منهما وتلتفت نحوها، وتقفز إلى أحضانها، ولكن الخالة لم تكن لتعطيها المجال لذلك، فتضطر الفتاة في آخر الأمر أن تطلب منها ذلك قبل أن تبدأ بالبكاء، فتقول: حبّاً بالله اتركيني خالتي فرح.

عندها فقط تركتها فأدارت وردة الضفيرة رأسها واستمتعت بالقفز إلى أحضان خالتها، التي انحنت أمامها وفتحت لها ذراعيها على مصراعيهما لتتمكن وردة الضفيرة لحظة ارتمائها بين أحضانها بسعادة من أن تلف قدميها حول خصرها.

وإلى أن أضع طلب الزبون على الطاولة وأعود إليهما، سيكونان قد فرغتا من لعبتهما هذه، وستكون وردة الضفيرة قد جلست على ركبة خالتها، ومع أنني نبهتها مئات المرات ألا تسأل الضيف فور وصوله من السفر إلى متى سيبقى هنا؟ لأنه من الممكن أن يظن بأنه لم يصل بعد حتى يبدأ أحد ما يعد له لحظة رحيله، مع هذا كانت تسأل خالتها: إلى متى ستبقين عندنا؟

ذهبت إليها لأوبخها على فعلتها، فلا يجب أن تسأل خالتها بإصرار إلى متى ستبقين هنا، ولكنها قالت لي: أبي، إن هذه خالتي وليست ضيفة.

قلت: خالتك فرح ليست فنجاناً أو صحناً حتى تقولي لها (هذه) إنها من بني البشر.

قالت: حسناً، أعتذر.

قلت: لست أنا من يجب أن تعتذري إليه ويسامحك.

ما جرى أنني أدرت وجهي نحو فرحناز وسألتها: هل تسامحينها خالة فرح؟

كانت المنفضة ملأى برماد وأعقاب السجائر البيضاء الرفيعة التي انطبع عليها بالقرب من الخط الذهبي نهاية الفلتر أحمر شفاه باهت، ويبدو أنه يعود لسيدة ذات شفاه مقلوبة كبيرة - من تلك الشفاه التي تراها فقط عند كلوديا كاردينالي- أفرغت المنفضة في سلة المهملات المعدنية، فيكفي أن تضغط بقدمك على ذلك اللسان الصغير الموضوع على الجزء الأسفل من السلة فيرتفع الباب نحو الأعلى ويفتح فمه ليلتقف القمامة. أريد القول: لقد صُممت سلة المهملات بطريقة وكأنك تنظر إلى بطريق أو شيء آخر، ولكنه تجريدي إلى درجة تظن أحياناً أنه من الممكن أن يكون فقمة سمينة وقفوا على ذيلها بلهفة، فاتسعت عيونها من شدة الفرح، وتنتظر وتتلهف ليرموا لها بسمكة.

قالت فرحناز: أسامحها بشرط أن تترك رقبتي، أكاد أختنق.

قلت بصرامة: وردة الضفيرة اتركيها.

عنفتها، وعندها فقط رفعت يدها عن رقبة خالتها - وهذا ما كان يمنعها من التنفس جيداً- رفعت فرحناز رأسها وهي تقول: آه الآن ارتحت، عدلت حجابها الذي كاد ينسل من على رأسها.

سألتها: ماذا تأكلين؟ هل أعد لك رقائق البطاطا والجبنة؟

وما إن همت لتقول مع الصلصة الخاصة بالسيد بربد، قفزت وردة الضفيرة من حضنها وقالت: سأعده لك بنفسي، لا تلمسوا شيئاً، فهي تحب أن تعد رقائق البطاطا والجبنة لأحدهم، ليس حبًّا بالطبق لذاته، لا، بل لأن الأمر فيه إثارة بالنسبة لها نوعاً ما، أن تضع الطعام في المايكروويف ومع أنه لا أثر لشعلة أو حرارة، فهو يمكنه أن يطهي الأشياء، لابد أنها عندما تختبر الأمر لأكثر من مرة ستتركه من تلقاء نفسها وتمل منه، ولكن في الحقيقة ليس من

الممكن أن تسمح لأي منا ما دامت هي موجودة أن يعد هذا الطبق وبالأخص إن كان لخالتها فرحناز.

وإلى أن تضع وردة الضفيرة رقائق البطاطا الرفيعة في الصحن وتضيف بالترتيب المرتديلا فالصلصة فالذرة بوسواس ودقة متناهية ورثتها عن أمها، وتضع رقائق الجبنة فوقها، وتدفع الصحن داخل المايكرويف، إلى أن يحدث هذا قلت لفرحناز: ألم يجدوا أكبر منك ليرسلوه من أجل الوساطة؟

اكتفت بالضحك، هي على النقيض من زوجتي، التي تحيا دائماً بين الغيوم متأثرة بتلك الكتب القصصة الثلاثية الأبعاد، فرحناز واقعية، وفي الوقت نفسه خجول، وقلما تبدأ حديثاً مع أحدهم، وعندما تضحك تجمع شفتها العليا وتسحبها نحو الأسفل لئلا يرى أحد أسنانها، ليس الأمر أنها لا تمتلك أسناناً بيضاء جميلة، بل لأن أحد أضراسها اتكأ على سنها الآخر، إن فهمت ما أعني، ودائما كانت زوجتي -لتضايقها- تقول لها: إنها عندما تضحك تشبه مصاصي الدماء في الأفلام، فحتى عندما يكون فمهم مغلقاً تبقى أضراسهم بارزة إلى خارج شفاههم، وفي الغالب تسيل منها الدماء.

مع أن الحقيقة شيء آخر، وقد قلت لها من قبل: ألا تحرم نفسها من متعة الضحك بسبب شيطانات زوجتي، فلا تمد شفتها العليا نحو الأسفل لتخفي أسنانها فلا تُرى، الأمر الذي اعتادته، وبالطبع لم يكن أمراً جميلاً، أو أن تضطر لزيارة أحد أولئك الأطباء المجانين ليضعوا لها جسراً لأسنانها، فهبة الله شيء جميل كما هي، ولا بد أن يكون لعمله حكمة ما، وإلا، حقاً، ألم يكن باستطاعة الله أن يفعل شيئاً فلا يتكئ سنها على الآخر؟ وألا تضطر أن تمد شفتها العليا إلى الأسفل لتخفيهم فلا يراهم أحد؟ أو أن تخاف أن تضحك؟

هذا لأن زوجتي مرة كل مدة من الزمن تسخر من فرحناز فتقول لها: إنها عندما تضحك تشبه مصاصي الدماء في الأفلام، وتلك بعض الشيطانات الصغيرة التي تتماز بها زوجتي. أريد القول، هذه هي شيطاناتها الخاصة، ولا بد أن يكون المرء سيئاً ليفعل مثل هذه الشيطنات وإلا فإنها ملاك، إنني ولمدة طويلة بعد زواجنا كنت أشك بها هل هي حقاً من جنس البشر أم لا، لذلك كنت في بداية زواجنا معظم الوقت، أجعل أصبعها بين أصابعي وأضغط عليه لأرى هل تتألم أم لا، فأفهم أهي حقيقية أم إنني ضغطت على نبات مخدر، وأتوهم بأن من أضغط على أصبعها بين يدي وتجلس قربي هي إنسانة حقيقية.

كنت دائماً أذكرها بشيطناتها هذه، وإلا فهي بحق ملاك بين الغيوم التي ذكرتها لكم سابقاً، وليس واضحاً بأي طريقة نزلت إلى الأرض لتحيا بيننا، هذا وكأس الحليب دائماً في يدها لا يفارقها، لأنه ومتى ما رأيتها يكون في يدها تشرب منه، وإن صدف يوماً ولم يكن في يدها، فاعلموا أنه في مكان ما قريب، اضطرت لتركه هناك لتنظف أسنانها بالخيط.

أريد القول، لو شاءت الأقدار أن تسكنوا معها، فعليكم أن تأخذوا الحيطة والحذر لئلا تصطدم أقدامكم يا أيديكم بكأس الحليب خاصتها، فحيث يكون خيط أسنانها، يكون كأس الحليب انشغلت عنه لتستعمل الخيط وتفتك بأسنانها التي تنظفها بالسنة على الأقل عشراً إلى عشرين مرة، دون أن تعاني أيّ مشكلة.

وأعتقد أن عصبيتها ترجع لهذا السبب، أي كلما تسنت لها الفرصة ووصل المال إلى يدها، تنقفه على حشوات أسنانها، التي تجعلها تذرف الدموع.

أيضاً، من مسؤولياتكم معرفة مكان خيط أسنانها، أين وضعته آخر مرة، أريد القول، هي لا تقبل أبداً أن تتحمل المسؤولية بأي وجه من

الوجوه بأن تضعه في مكان، فتعثر عليه متى ما أرادت، أو أن تتذكر أين وضعت آخر مرة هذا اللعين، الذي كانت مجبورة ربع عمرها أن تبحث عنه، أين وضعته آخر مرة، فتستطيع على الأقل أن تعثر عليه بسهولة.

بغض النظر عن كونها ملاكاً لا يعرف أبداً أين وضع خيط أسنانه، لا يوجد من بين البشر حسب اعتقادي أحد ما يعادلها في العناد والحقد، فلا يمكنه أن يسامح من أخطأ بحقه أبداً، بحيث لطالما ظننت أنها آلهة الانتقام والحقد، وأن اسمها قد سقط من فهرست أساطير اليونان لسبب ما، ربما لأنها إيرانية وهم لايفهمون الفارسية، ولربما حدثتهم أنفسهم بأنه بأي دليل أو مناسبة ينبغي لنا أن نعطي مكاناً لإيراني بين أساطيرنا، هل تنقصنا الأساطير فلا ندري ماذا نفعل؟

تأملوا هذا، مثلاً منذ خمسين عاماً مضت، في تمام الساعة الحادية عشرة وثلاث وعشرين دقيقة في التاسع والعشرين من شهر تشرين الأول قد قلتم لها إنها لا تجيد حساب العشرين بالمئة من العدد أربعين، وضحكتم لذلك، ستبقى ستذكر دائماً متى ارتكبتم هذا الظلم في حقها، أي من الممكن فجأة ودون مقدمات أن تختلي مع نفسها في غرفتها، وتبدأ بالنحيب والبكاء، وعندما تسألونها عن السبب تقول: لا أستطيع أن أنسى أبداً ولا بأي شكل أنه في التاسع والعشرين من شهر تشرين الأول منذ خمسين عاماً قد قلت لي إنني لا أستطيع حساب العشرين بالمئة من العدد أربعين، ومن ثم ضحكت لذلك.

بالمقابل لا تعكر فرحناز صفو خاطرها بهذه الأمور، فهي تفهم بأن الحياة لم تمنحها هذه الفرص كي تقضي كل حياتها تسجل أخطاء الآخرين بحقها واحداً تلو الآخر، وذلك بتأمل ودقة متناهية، وعندما يحين الوقت المناسب يبدأ الحساب لكل واحدٍ منها.

أحد الزبائن يشير إلي بإصبعه بأنه يريد كأساً من الماء، وضعت حبتي زيتون في كأس مخروطي الشكل وغمرته بالماء المثلج، فهذا كان طلب الزبائن المعتاد بعد شرب القهوة، كان مثلجاً وبارداً لدرجة تشكل البخار على الفور على جدران الكأس، وبدأت تسيل منه حبيبات الماء من الخارج لشدة برودته، وضعته على الصينية فوق البار، وذهبت إلى الجهة الأخرى من البار، وتناولت الصينية لأضعها على طاولة الزبون الذي طلبه.

الأسهل بالنسبة إلي - ويدر ربحاً لا بأس به- أنه عندما يريد أحدهم ماءً، أن أحضر له قنينة مياه معدنية لا يعرف من أي مجاري قد ملؤوها وأضعها على طاولته، لأنه إن تركتها جانباً مدة من الزمن سترى بأم عينك كيف يتجمع الوسخ على سطحها، ولكن ما يحدث هنا أنني لا أريد لأي شيء في مقهاي أن يشبه ما يقدم في باقي المقاهي، لا، لا أريد، فلا أحبذ أن يفكر أحدهم في نفسه في أن ما يقدم هنا هو نفسه ما يقدم للزبون في باقي المقاهي، أو أن يقول في نفسه: اللعنة عليهم إنهم يبيعون الماء لنا، ولهذا أفضل أن يكون الماء في مقهى البيانو مختلفاً عن غيره، آخره ممزوج بنكهة الزيتون أو الكرز، وعلى جدار الكأس قد انعقد بخار الماء من شدة البرودة، بحيث يرغب الزبون بأن يضع إصبعه فوقه ويتحسس برودته، ويرسم أشكالاً وأشياء يحبها قلبه، أو يرغب في أن يكون على جدار كأسه مثل هذا الشكل.

المسافة التي طويتها من البار إلى قلب المقهى جعلتني حقا أشعر بالقليل من الخجل بأنني قهوجي أجلب الماء لهذا أو ذاك، أو أي سم آخر، الآن فليكن مقهاي أو مقهى أي مصيبة أخرى من تلك المصائب التي تضع لك السكر في قهوتك التركية قدر ما تشاء، ويظنون لأنهم أصحاب المقهى لهم الحق أن يجعلوا قهوتك حلوة بالقدر الذي يحبونه لأنفسهم.

حقيقة الأمر أنني خجلت من نفسي وانقهرت عليها، لأن فرحناز كانت تجلس هناك، وإلا فإنني لا أخاف مما يجب أن أكون وما أنا عليه، أو أين يجب أن أكون وأين أنا الآن، وكثيراً ما فكرت بالأمر ووصلت إلى أنه ومن جهات عدة ملء بطون الناس فيه شرف أكثر من أن تزرع شيئاً في عقولهم، لأنهم يعطونك المال الوفير لتملأ بطونهم، بأي شيء كان، ولا يعطونك حمل فضلات حيوانات لتملأ عقولهم، لا بد لأنهم يعتقدون بأنه مملوء بما يكفي ويفهمون أكثر من اللازم، فما حاجتهم إلى المزيد؟

عندما رجعت من الطاولة التي أخذت الماء إليها، حاولت ألا تقع عيني في عين فرحناز، وأظهرت وكأنني غير مكترث لأي شيء، مثلاً أن أبدو شبيهاً بندلاء الأفلام، فآخذ مثلهم الأشياء لهذا وذاك وأضعها على طاولاتهم ليتسمموها، فالمرء أمام أخت زوجته التي كبرت أمام عينيه، وليس أمام أخيها، له اعتبارات خاصة لا تشبه أي شيء أمام أي أحد آخر، يرجع هذا الشعور إلى أن أخت الزوجة دائماً، أعني في أي وقت تفكر بالرجال تستحضرك في ذهنها وتفكر مع نفسها بأن الرجل الحق هو ولا شك مثل زوج أختها، في المقابل الرجال - حسب اطلاعي ومعرفتي - مئتان إلى ثلاثمئة نوع، أي يختلفون عن النساء في هذا الأمر، ولكن حسناً، أخت الزوجة تفكر بطريقة مختلفة ولا يمكن أن تتخلى عن هذا النوع من التفكير.

وكأن فرحناز شعرت بخجلي من عملي لأنه لحظة وصولي إلى الطاولة القريبة من البار أدارت برأسها - إذ كانت تسترق النظر إلى خلسة - لتبدو مشغولة بتأمل صغيرتي وردة الضفيرة، التي كانت تحدق بشعلة المايكرويف، وتتأمل نهاية قطع الجبنة التي كانت تذوب وتتلاشى تحت ضغط شيء لا يُرى.

أنت لم تبك
يوماً عليها، أبكيت؟!

ذهبت وردة الضفيرة مع خالتها فرحناز إلى بيت والدتها، البيت عبارة عن سويت أرضي في أحد شوارع المدينة المعروف بوفرة شجرة الآكاسيا المعمرة والكثيفة، استأجرته قبل ثلاثة أشهر ونقلت إليه الأثاث.

ما جرى في ذلك الوقت من الليل، كنت أسحب باب المقهى الرئيسي نحو الأسفل تحت وطأة الثلج الثقيل الكثيف، الذي كان يهطل بهدوء من قلب السحاب الأبيض، فكرت في نفسي بأن الطقس لطيف ويمنح المرء شعوراً بأنه يمكنه التنزه بمفرده في تلك الشوارع قدر ما يشاء، فأمشي على الثلج، أجمعه بين يدي، وأسمع صوته تحت أقدامي وأدخن السجائر، وأنتظر أن يأتي أحدهم وينبهني، أليس من المؤسف أن تدخن السجائر في مثل هذا الطقس؟

فأضربه على فمه وأقول: وما شأنك أنت؟! بمقدار ما تملك من حق في هذا الهواء أنا لي مثله، فحينئذ يسحب ياقة قميصه من بين يدي ويقول لي: حقاً إنني متأسف لأجلك، أقول له: فلتأسف على والدك.

لم أنتبه لوجود أبي داخل سيارته مطلقاً، فقد كان يركنها في تلك الجهة من المقهى، وكان يرسل لي الإشارات بضوء سيارته، وقد رأيته فقط عندما كنت أسحب السحاب إلى نهاية الياقة لئلا تتسل إلى حلقي الرياح المؤذية في هذه الساعة من الليل، رأيته كان يلوح لي بيديه من خلف زجاج السيارة لأذهب إليه، كانت

ماسحات زجاج السيارة تتأرجح يمنة ويسرة لتزيح عنه قطع الثلج الكبيرة، وكان هو يطفئ ويشعل ضوء السيارة باستمرار، خشية ألا أراه، لا سمح الله.

لقد جاء في إثري عندما شاهد هطل الثلوج بكثافة، وكان ما يزال مستمراً ولا أمل من أن يتوقف، وصل ولكنه لم يدخل إلى المقهى، اكتفى بالجلوس داخل سيارته مبدداً الهواء النقي بداخلها مما اضطرني لأن أسحب زجاج النافذة حيث أجلس إلى الأسفل، أنزلته قليلاً ليدخل الهواء المنعش ويسهل علي التنفس.

لحظة انطلاقنا، سألني عن عملي، أخبرته بأنه ليس سيئاً فهو يتحسن بمرورو الأيام، ولكأنه في علاقة متضادة مع الطقس فكلما كان الطقس أكثر برودة كان عملي أكثر دفئاً (أي مدر للمال)، قال: هذا أمر طبيعي، من ثم وبلحن أقرب إلى الملامة سألني: أين ذهبت؟ ولماذا تأخرت إلى هذا الوقت ولم أذهب إلى المنزل لئلا تبقي وردة الضفيرة وحدها، فأخبرته أنها ذهبت مع خالتها إلى بيت أمها، وأنا أردت أن أمشي قليلاً تحت الثلج.. في الواقع فوق الثلج، ولكنني لم أخبره بأنه أتى دون علمي وألغى كل خططي لهذه الليلة، تريدون الحقيقة، لم يطاوعني قلبي أن أحزن الرجل العجوز، فلقد خرج في هذا الجو البارد لئلا أمرض، فلا أستطيع تجاهل هذا الأمر اللطيف الذي فعله لأجلي.

رغبت في أن نتجول بالسيارة قليلاً على الطرق السريعة خارج المدينة أولاً، وألا نذهب مباشرة إلى البيت، ومن ثم إن أراد إيصالي إلى البيت فليفعل، فالآن لا رغبة لي بالعودة إلى المنزل، فعندما لا تكون وردة الضفيرة في المنزل وكأنني أدخل إلى صندوق ثلاجة هرمة، إلى درجة يموت فيها قلب الإنسان وكأنه حقاً داخل هكذا مكان.

هذا ما جرى، قرر أبي أن يمضي بنا إلى شارع يفضي إلى أحد الأتوستراد خارج المدينة، والذي بدوره يوصلنا إلى أوتوستراد جبلي متعرج تتوزع على طرفيه وبوفرة بساتين التفاح والدراق الممتدة من سفح الجبل إلى قمته، في مشهد يأسر القلوب لشدة جماله ولا سيما أن الثلج قد كساها بغطائه الأبيض.

كانت السيارة تتموج بنا على الأتوستراد الضيق عند المنعطفات وتمضي بنا نحو الأمام، وكان نور أشعة الغمازات العلوية للسيارة يتموج هو الآخر بين هذه الجهة وتلك، على أنغام لحن أغنية سايمون لبون واسمه الحقيقي كامان دوان، فلا يمر يوم دون أن أستمع إليه على الأقل عشراً إلى عشرين مرة، كل هذا والثلج ما يزال يهطل بكثافة، ومع صوت ماسحات زجاج السيارة، شكلت كلها مجتمعة مزيجاً رائعاً من الأشياء الجميلة التي لا مثيل لها.

مزيج لا يحدث إلا مرة واحدة كل بضع سنين، أي كل شيء في مكانه، إلى درجة يعجب فيها المرء من كل هذا القدر من السعادة، لذلك حين يصل إلى المنزل عليه أن يشعل البخور احتفاءً بنفسه وحظه كيلا يصاب بالعين.

في نهاية المطاف، طلبت منه أن يصعد نحو الأعلى من تلك النقطة على الأوتوستراد حيث التعرجات أقل، وتستطيع السيارة أن تصعد بسهولة، فيصعد ويصعد بنا حتى نصل إلى أعلى التلة، فنقف هناك، ونتأمل معاً لعدة دقائق تحت نور الغيوم التي تبدو وكأن أحداً أشعل داخلها نوراً فأخاف أن أنظر إليها وحدي، ونرى كيف غطى الثلج كل شيء بعدالة عجيبة وسوية واحدة.

تريدون الحقيقة، لم أتجرأ يوماً أن أطلب منه شيئاً كهذا، أو من الأفضل القول أن أطلب منه مثل هذه الأشياء، أريد القول، لم أشعر يوماً بأنني قريب منه لهذه الدرجة، فأقول له ماذا أرغب، وهو الآخر لم يكن ليدعني كما الليلة أقول ما أريد فيوافق عليه كله، ولا يكسر خاطري.

هذا ما جرى، في النهاية، أوقف السيارة وأطفئها أعلى التلة بالقرب من الحافة التي تنتهي إليها جادة الجبل، التي تصل إلى فسحة واسعة.

قبل تلك الليلة لا أعتقد أنه في أي وقت مضى من حياته أن نظر إلى الجبل من الأعلى، فذهب إلى أعلى نقطة في الجبل ليفرغ مكنونات نفسه ومخاوفه وقلقه، وعندما ينزل يقول في نفسه كم أصبحت الآن أفضل.

عمل عندما أفعله، ومن ثم أنظر لنفسي من بعده، أرى أن حالي الآن أفضل بكثير عما كان عليه عندما كنت في الأسفل ولم أصعد بعد إلى الجبل، وكأنني قد أزلت الشوائب من جسمي وأصبح دمي نقياً للغاية.

أنزلنا زجاج السيارة نحو الأسفل، سحبناه أكثر إلى الأسفل من أجل أن أتمكن من إخراج يدي من النافذة عندما أدخن فلا يتجمع دخانها في السيارة، فيسوء حاله.

في هذه الأثناء خلعت قبعتي عن رأسي، والنظارة عن عيوني، فأصبح كل شيء معتماً بدرجات، دقيقاً كتلك اللوحات الانطباعية التي لا شيء من مكوناتها له حدود وعليك أن تركز عيناك عليها بدقة ربما في النهاية تفهم شيئاً منها، ولكن ما يحدث أن الألوان الحية وتركيبها تسلب عقلك.

منذ اللحظة التي سألته فيها أن نذهب إلى خارج المدينة لم يقل شيئاً ولاحتى كلمة، هذا ما حدث، أطفأ السيارة، تأملنا الثلج لدقيقة أو دقيقتين دون أن ينظر أحدنا للآخر- سألته آنذاك ما أردت دوماً أن أسأله عنه - ولكن لطالما فكرت في نفسي أنه من الممكن أن يتضايق من سؤالي أو أن ينزعج، سألته عن شعوره عندما مات والده.

سألني: ماذا تعني؟

قلت: لا شيء، مجرد سؤال أريد أن أعرف.

أجابني: أنه كان يمسك بيد والده المسن في اللحظات الأخيرة من حياته حيث كان يعاني مرضاً مميتاً في الكبد، وبهدوء كان يودع الدار الفانية، وكان جسده يصبح بارداً فأبرد، لذلك كان جدي يعتقد أن يد ابنه دافئة أكثر من اللازم، وربما يكون لا سمح الله يعاني الحمى، فقال له: هل أنت مصاب بالحمى يا بني؟

عندما قال والدي هذا كان صوته يرتجف، وكان واضحاً أنه يمسك نفسه عن البكاء، ولكن بعد وقت قليل، أي عندما تمكن من أن يستعيد توازنه، قال: هكذا هو حب الآباء لأبنائهم، أي إن عشقهم عميق وخالص، لذا عندما يكون جسدهم يتجمد وهم في لحظة الموت ما تزال قلوبهم معلقة بأولادهم، ويظنون أنهم يعانون الحمى، ولا سمح الله بأن يحدث لهم شيء جراء هذه الحمى.

سألته: هل حدث أن تشاجرت معه؟

أجاب: لا، ليس إلى الحد الذي تتشاجر أنت به معي.

وأضاف لا يوجد على الإطلاق ولد يوازيني في مشاجراتي معه، أي لا يعرف أي ولد آخر إلى هذا الحد وإلى هذه الدرجة من العنف، فيستل السكين على والده.

نظرت إليه وقلت: إنني آسف.

ليس الأمر أنني لست حقاً آسف، وقد أقول أي شيء على لساني لأكسب رضاه، لا، قلت له كلمة آسف من أعماق قلبي، آسف لأنني كنت مجبوراً أن أجرد سيفي من غمده وأهجم عليه، فأضيع الأمر على كلينا، فلا

يفتك بروحي مثل الأفعى من شدة الحب، وطبعاً يظن كعادته أنه أعقل مني، ويضايقني أكثر مما أنا متضايق.

استغرق الأمر لحظات عدة ليقول شيئاً، وفي النهاية قال إنني من بين أولاده أشبه أمي، فهي مقاتل من الطراز الأول، تجبر الخصم على الإقرار بخطئه وإلا فإنها لن تنسحب من أرض المعركة، كثيراً ما كان يحدث أن أنهزم أمامها ولكن سرعان ما كان يعود كل شيء إلى طبيعته.

سألته: أتحبها؟

قال: حسناً، أجل، عندما كنت أدفنها لم أكن أصدق ما يجري.

سألته: هل تمعنت بها؟

أجاب: أجل، تمعنت.

سألته: عندما انتشلوها من بين الأنقاض كيف كانت تبدو؟ هل كان جسدها مسحوقاً؟

أجاب: ليس إلى هذا الحد.

من ثم لكأنه كان يريد أن يشتكي وفي الوقت نفسه أن يعاتبني، التفت إلي وسألني: أنت لم تبكها يوماً هل فعلت؟

قلت: لا، ولكنني كنت أكذب عليه، فمنذ نحو الشهر وقفت فوق رأس ابنتي وكانت نائمة تحتضن لعبتها كلبها البني - آذانه كبيرة متدلية على عيونه وكأنهم حشوه بالرمل، فلا يمكن إيقافه على قدمية وإلا سيقع - عندما هممت بتقبيلها، لاحظت أن وجنتي لامست شيئاً مبللاً على مخدتها، وهذا ما جرى، ففهمت بأنها مشتاقة لأمها، ووضعت نفسها تحت الغطاء لتبكي بحرقة دون أن

أشعر بذلك، وإلا، فليس هناك من مسوغ أن تُهرع لغرفتها دون أن تقول طابت ليلتك أو أي شيء آخر، وتغطي نفسها باللحاف المخملي الأحمر المطرز الذي أهدته لها أمها.

لحظتئذ وفجأة شعرت بالحنين لأمي، مثل قمع يضيق أنبوبه أكثر فأكثر، إلى درجة أجبرت فيها على الذهاب إلى غرفتي والاستلقاء على السرير، وأخذت أذرف الدموع لأجلها في عتمة الغرفة، هذا بعد عشرين عاماً على رحيلها ومضي كثير وكثير من الوقت وهي ليست بيننا.

توقف الثلج عن الهطل، وظهر قسم صغير من القمر لاح من خلف قطعة من الغيم، كان ينثر على الأرض أشعته الفضية، تذكرت طفولتي، تلك الليلة التي نمت فيها وأمه فوق سطح البيت، وطلبت مني وقتها أن أتأمل القمر، فأرى بعيني كم هو جميل، وأرى كيف يضيء نفسه في عتمة الليل، فقلت حينئذ، إنني أظن أنه في الليالي التي يكون فيها القمر كاملاً، بأنني في قلب حفرة سوداء ومظلمة أتأمل منها فتحة الحفرة التي هي القمر، أي إن الوقت ليس ليلاً ولكن أنا في حفرة عميقة وفي الخارج نهار، وبعد أن أفكر هكذا، أتسأل ماذا أفعل في نهاية هذه الحفرة، وكيف علي أن أصعد وأخرج منها؟ فأخاف عندها أن انظر إليه، وإلى أن أنام أبقى قلقاً من أن أظل دائماً أسفل الحفرة، فلا أستطيع أن أصعد إلى الأعلى أبداً، في هذه اللحظة كانت تأخذني إلى أحضانها وتشدني إليها وهي تقول: لا تخف ياعزيزي متى ما أردت تستطيع أن تخرج منها.

سألني إن كنت راضياً عن عملي أم لا، أراد أن يخرجني من تلك الحالة التي تملكتني.

قلت: إنه صعب قليلاً، ليس لأن العمل شاق، بل لأن المرء يحتاج إلى وقت ليخرج عما اعتاده سابقاً، وينتقل إلى حالة يشعر فيها بالرضا، تماماً كما هو الحال عندما نشتري حذاءً جديداً فعليك أن تسير به لتعتاده قدمك، أي أن يقول المرء لنفسه هذا هو الموجود، لتتأقلم عليه يحتاج إلى وقت،.. أحياناً لا أصدق بأنني قهوجي، ولكن ليس مهماً.. لقد اعتدت الأمر.

وأضفت، إنني أتألم على ابنتي أكثر مما أتألم على نفسي، فلو سألوها في المدرسة ماذا يعمل والدك؟ ماذا عليها أن تجيبهم، أعتقد أنها ستكون مضطرة لأن تقول أي شيء، مع أنها تعرف بأن والدها قهوجي، أشعر بالانزعاج وألوم نفسي دوماً لماذا لم أستطع أن أكون أباً أفضل لها، تفتخر به وترفع رأسها.

أراد أن يقول إنني مسؤول عما يحصل، ففي مقابلة الوكالة أخبرت ذلك الرجل الذي أراد أن يسأل عن الأحكام وما يشابهها، أنه من المستحيل أن أجيب عن مثل هذه الأسئلة، فهي مخالفة للقانون.

ولكأنه تذكر ماذا كانت إجابتي، لذا لم يقل ما كان يريد قوله، وسأل: حسنا لماذا لا تساعدها؟

أجبت: إن دخلي ليس جيداً إلى هذا الحد لكي أعطيها نصفه.

هو يعرف أنني مطلع كل شهر أضع خمسمئة تومان جانباً لأجمع مهر بريسما، لأسدده لها، فتذهب وشأنها في الحياة، وعندها لتضع قدر ما تشاء من عصير الخوخ على طبقها دون اكتراث منها أنه لا قميص لدي مكوي في الخزانة.

التفت نحوي وقال: إنه لا يرغب بأن ننفصل أنا وهي وأن تنهار حياتنا، لأنه متى ما انهار شيء من غير الممكن أن يعاد بناؤه كما كان أول مرة، ولكن إن

اتخذنا قرارنا بالانفصال نهائياً فأستطيع أن أعتمد عليه بأنه سيكون إلى جانبي، قلت: لا، لا أريد أن يكون له فضل علي، خرجت من السيارة وتوجهت نحو الحافة ووقفت هناك.

حقيقة الأمر، لطالما كانت لدي رهبة من المرتفعات أكثر بكثير من جيمس إستيورات في فيلم هيتشكوك (الدوخة)، لذلك لطالما قلت لنفسي يا ليت هيتشكوك لم يرتكب هذا الخطأ وأسند دور إسكوتي لي بدلاً من إستيورت، لأظهر للجميع ماذا يعني الخوف من الأماكن العالية بحق.

ناهيك عن هذا، أي أحمق سيرفض التمثيل مع كيم نواك، فيتأمل من خلف المشهد أصابع يديها وقدميها ويفهم كيف هي المرأة؟ هل هي مستعدة لتأكل معك القشة وسط المدينة أم لا؟

هذه المرة لم أقترب من الحافة إلى درجة أخاف فيها واضطرب، تقدمت إلى الأمام بحيث أعلم أنني لن أخاف في قرارة نفسي أني سأقع الآن إلى الأسفل.

بعد مضي قليل من الوقت، ترجل هو الآخر من السيارة، أتى ووقف إلى جانبي، فلو نصبوا كاميرا هناك في الأسفل تظهرنا معاً في قالب الصورة سنبدو وكأننا آل باتشنو في مشيبه وآل دانيرو في شبابه، وقفوا على مرفأ ما ليتموا صفقة مخالفة للقانون، ولكنهما لا ينظر بعضهما إلى بعض فكلاهما يبحر في فلك طائر الفلامينكو الذي يحلق قريبا من سطح الماء وأرجلهم النحيفة الطويلة الخالية من اللحم أحياناً تتمدد فوق سطح البحر الضبابي.

لمحته بطرف عيني كيف كان يخرج البخار من فمه ويختفي سريعاً في الهواء، أدركت أم لم تدرك الأمر لقد كان أقصر مني وأنحف، جسده خالٍ من اللحم، وأسمر البشرة، يمتلك محياه تلك الجاذبية التي كلما نظرت إليها ظننت أنه فعلا آل باتشينو أتى للقائك ليخبرك كم أنت يافع، كم أنت يافع.

أريد القول، إلى هذه الدرجة يشبهه، فوجهه يمتلك نفس المقدار من التجاعيد ونفس المقدار من تلك النظرة الحادة التي يمتلكها آل باتشيينو، وأنا لم أر قط أحداً آخر يمتلك مثل تلك النظرة الجذابة، وكما قلت لكم لم أرث منه شيئاً يزيد على تلك الشامة التي أخبرتكم عنها، والجواجب الكثيفة، والشعر الذي سرعان ما خالطه المشيب.

جدي وحازم وصاحب إرادة، ولطالما حسدته على هذا، فلو اقتنع أنه ليس من الضروري أن يتحدث معكم فلن يتحدث معكم إلى آخر عمره ولو كلمة واحدة، حتى إن ذهبتم وتوسلتموه سيعرض عنكم ولن يستجيب، وعندما تنتهون من التوسل سيريكم طريق الخروج من منزله أو مكتبه ليتأكد من أنكم تعرفون كيف تغربون عن وجهه وتدعونه وشأنه.

عدت ونظرت إليه وحاولت أن أفهم ماذا يدور في خلده، ولكن هل يمكن؟ أريد القول إن حالة وجهه لا يمكن أن تستقرئها من خلال النظر إليه، فتعرف بماذا يفكر، أو أين هو انتباهه، ولا سيما إن كنت تنظر إلى جانب من وجهه، ولا تستطيع أن تستشف شيئاً من شكل عيونه التي لطالما أفضت ببعض المعلومات عنه، وفي ليلة ثلجية خافتة الضوء كهذه، هذا أمر يعد ضرباً من المستحيل.

فكرت مع نفسي، لا أذكر قبل هذا الوقت أنني عانقته أو هو عانقني، وفجأة تملكني الخوف الشديد، لا سمح الله أن يموت أحدنا وإلى ذلك الوقت لم يعانق أحدنا الآخر، هذا ما جعلني أرجع نحوه وأقول له لكم أرغب أن أعانقه وأشده إلى صدري بقوة.

لقد تفاجأ، لأنه سمع اقتراحاً لن يحلم به حتى في المنام، أي لم يحدث قط أن أبرز أي أحد منا مشاعره وعشقه بصراحة تجاه الطرف الآخر، واعترف بأنه يرغب في عناقه، وأيضاً أن يشده إلى صدره لعدة دقائق.

هذا ما جرى، لم أبق منتظراً، تقدمت إلى الأمام واحتضنته، أسندت رأسي إلى رأسه، ويداي وصلتا إلى خلف أكتافه، كنت أعلم أنه هو الآخر يرغب بشدة أن يعانقني ويشدني إليه، لكن غروره الذاتي المتفرد لم يسمح له أن يخرج يديه من جيوب معطفه الإنكليزي ليحيط بهما جسدي، تلك اليد التي لم يعطني إياها قط لأقبلها.

في الحقيقة، خلال تلك المدة التي كنت أعانقه فيها، أردت أن أقول له إنني أحبه، أحبه جداً، على الرغم من أنني قضيت عمري أتشاجر معه، ولست نادماً على هذا، وإن حدث أن عاد من جديد ليفكر عني ويقرر عني فإنني سأجرد سيفي من حسامه، وأحاربه بشراسة، ودونما رحمة.

كان حضنه دافئاً صادقاً، ولم أكن مستعداً لأن أبدله بأي شيء، حتى ولو كان حضن بريسما زوجتي، التي غالباً ما تسللت إليها وقلت لها أمي بريسما، وكأنني حقيقة ابنها، وكانت تقول لي: يا روح بريسما؟ وكنت أظن آنذاك أنني في حضن أمي، التي لم تسنح لي الفرصة يوماً لأعانقها، أي عندما كنت أحتاجها فأضع رأسي على قدميها، أو أرتمي في أحضانها، فأستمع لخفقان قلبها فربما أهدأ لسماع نبضاته، أتذكر أنه ومنذ وقت مضى قد رحلت عن عالمنا عندما حطم رأسها وعنقها السقف والطين الثقيل، ومع كل محاولاتي فلم يحدث قط أن تمكنت من أن أجسد شكلها كيف كان عندما كان أبي ينتشلها من بين الأنقاض، هل كان بالإمكان أن تميّز وجهها، أم إنه كان مهشماً لدرجةٍ لا يطاوعك قلبك أن تنظر إليها.

أمر مستبعد ألاّ
يكون هناك أحد

كنت قد رفعت باب المقهى الخارجي للأعلى، ودخلت، أشعلت مدفأة الحطب، ليتغير هواء المقهى قليلاً، فلا أضطر عندما أبدأ بتنظيف أرضية المقهى بالممسحة الإسفنجية أن أذهب كل دقيقة لأمنح يديَّ الدفء، ولكن قبل أن أضع إسفنجة الممسحة الزرقاء في الماء لتبتل، وأبدأ بتنظيف السيراميك، قبل هذا كله، رفعت الكراسي من مكانها ووضعتها فوق الطاولات المدورة الصغيرة داخل المقهى، بحيث إن أمسكتُ عصا الممسحة ونظرت إليهم في أي وقت، سيبدون لي وكأنهم مجموعة من النساء الفاسدات المتشابهات اللواتي قد مددن أجسادهن بشكل فاضح فوق الطاولات وأطلقن أرجلهن للهواء من أجل أن يظهرن جزءاً من أجسادهن للسقف، لماذا؟ لأنهن فاسدات، ويعجبهن مثل هذه الأفعال، فهن معتاداتٌ ذلك، أريد القول: وضعتها هكذا ليحترق فيها قلب المرء لحال الكراسي، لأنه حتى إن جلسن فوقه، أيضاً فهن مازلن يمارسن فعلاً نسائياً، وسبب تفكيري هذا، أنني لطالما اعتقدت أن الكراسي من الأشياء التي لا مذكر لها وعلى هذا فكلها مؤنث، وعلى الرغم من أنني كل مرة أفكر بهذا الأمر أقول لنفسي تذكر أن تسأل السيد عليًّا فهو ملم بالفرنسية، هؤلاء الفرنسيون عديمو النخوة يعتقدون أن (للرّفش) جنساً معيناً، هل الأمر كذلك بالنسبة للكراسي، ألديهم مذكر ومؤنث أم لا؟! ولكنني في كل مرة أتحدث معه أو

أرسل له بريداً إلكترونياً، أنسى أن أسأله عن الأمر، فيرتاح بالي على الأقل من هذا الموضوع، في هذه الحياة المنحوسة التعيسة التي مضت وقضيتها كلها بمشاجرة هذا وذاك.

ولكن ما إن رفعت المسحة وهممت بوضع رأسها الإسفنجي على السيراميك المربع الشكل لأرضية المقهى - الذي يمتد من أعلى نعلات الجدار إلى حزام السقف وقد صُبّت قوالبه خصيصاً لمقهى البيانو - هاتفني الشرطي وأخبرني أن أصل بسرعة إلى مكان سيحدده لي، المكان قريب من المقهى، ويمكن للمرء أن يوصل نفسه إلى هناك سيراً على الأقدام، فيصل خلال سبع عشرة إلى ثماني عشرة دقيقة، ويفهم أصل المسألة.

خلال الطريق، كنت أفكر كل الوقت ماذا يمكن أن تكون علاقتي بالمكان الذي حدده لي؟ لكن لم أصل لنتيجة، ولئلا أقلق أكثر لم أسرع في سيري للوصول إلى هناك بسرعة وأرى ما القصة، فمشيت باعتدال دون إبطاء مني أو عجلة، ووصلت إلى المكان الذي أعطاني عنوانه الضابط، لحظة انعطافي إلى داخل الزقاق وبفارق لحظات عن آخر علامة - أي قبل أن يكون هناك رقم منزل أو مكان - رأيت سيارة إسعاف وسيارة شرطة تقفان أمام كراج إحدى الفيلات ورجلين أو ثلاثة رجال بثيابهم الخضراء الرسمية يطوفون حول المكان.

من تلك السيارات الخضراء والبيضاء والمقلدة عن سيارات الشرطة الألمانية فلم يكلفوا أنفسهم عناء انتخاب لون خاص بهم، فلا يتذكر المرء مسلسلات ZDF الهابطة على التلفاز وبالتأكيد دقيقة واحدة من وثائقيات BBC أشرف من الآلاف منها. في يد كل واحد من هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يطوفون حول السيارات، هاتف لاسلكي ضخم، يصدر تشويشات

خاصة ما دام أحد لم يتكلم عبره، وليس واضحاً لماذا لم يجلس أحدهم فيصنعها بحيث لا تصدر هذا القدر من الأصوات المؤذية للسمع.

في الحقيقة، أظن أن أغلب غضب الشرطة يعود إلى هذا السبب، أنهم مجبورون دائماً أن يسمعوا أصوات تشويشات هذه الهواتف اللاسلكية اللعينة، فلربما احتاجهم في وقت ما رئيسهم ولم يكونوا على السمع، ولو كنت مكانهم لسحقت هذه الأجهزة على حافة درج حجري حادة حتى تصبح أشلاءً، وحتى بعد ذلك من الممكن أن أطرقها بالمطرقة مرتين إلى ثلاث مرات لأتأكد من أن تشويشات لن تظهر مرة ثانية، وتزعجني، والآن إن طردوني من العمل أو عوضوا قيمته من جيبي فإلى أسفل السافلين، أو ربما أعطوني تقريراً بعدم الأهلية لأنني كلما أعطوني هاتفا لاسلكياً وضعته تحت إطار سيارات الإدارة التي تريد أن تتحرك لأداء واجبها، ومن ثم مثل المجانين أضحك على فعلي الأحمق، أو ما يدريني، من الممكن ألاّ يعطوني ترقية في عملي، في الحقيقة بماذا ستفيدني هذه الترفيعات والرتب عندما لا أمتلك أعصاباً قوية وسليمة؟

حتى عندما وصلت إلى الزقاق ووقفت أمام الكراج إلى الآن لم أكن أفهم الدور الذي يمكن أن أؤديه في هذا الجو الحماسي عند مطلع النهار، ومن المقرر أن أكون شاهداً على أي مشهد يفطر القلب أو مهيج للمشاعر، ومن شدة هيجانه ارتأوا أن يضاف للمشهد سيارة إسعاف، وأن تفتح أبوابها الخلفية بحيث يبدو وكأن أحداً سوف يوضع بداخلها وتمضي به إلى مكان لا تذهب إليه إلا سيارات الإسعاف في العالم: المقبرة أو المشفى، أريد القول مع أني وصلت إلى هذا العمر، حتى الآن لم أر أي سيارة إسعاف تنطلق لتذهب إلى الحديقة العامة أو حديقة خاصة أو شيء من هذا القبيل، فلم يحدث حتى الآن أن اتصل أحد بهم من حفلة

حديقة خاصة، ألا تفكروا بإنقاذ الأرواح لبضع دقائق، أديروا سياراتكم وتعالوا هاهنا لتستمتع معاً، ويعود هذا إلى أنني دائماً ما يحترق قلبي على هؤلاء المسعفين داخل سيارة الإسعاف لأن عملهم ممل ويحزن القلب وليس غريباً بعد هذا أن ترى وابلاً من الكآبة يتساقط من رؤوسهم وهيئتهم، ولذلك تتمثل لي صورتهم وهم خلف إشارة المرور الحمراء كيف هي وجوههم حزينة وعيونهم مضطربة لأن الطرق كلها مسدودة، فيطلقون صوت الإنذار ويغضبون.

وقفت أمام باب الكراج، فقد كان بديهياً أنه عليّ أن أذهب إلى هناك وأقدم نفسي لأحدهم، كانوا قد ألصقوا على زجاجه لاصق دخاني ذي مرآة من جهة واحدة، وقفت وقلت للشرطي الذي كان يهم بالدخول إلى الداخل: إنّ أحدهم ويمكن أنه رئيسهم قد هاتفني، وقال لي أن آتي إلى هنا، إن أمكنه فليتحقق من الأمر ويخبرني من كان وماذا يريد مني.

وقفت في مكاني أقلب قدمي هنا وهناك إلى أن أتى أحدهم وكان واضحاً من النجوم على أكتافه أنه أعلاهم شأناً، لأنه يمتلك أربعين إلى خمسين نجمة أكثر من الآخرين، أتى وأزاح ستارة الكراج المتسخة الترابية اللون، وخرج من خلفها.

سألني بادئ الأمر عن اسمي ومن ثم عن صلتي بالشخص الملقاة جثته داخل الكراج، أخبرته أنني لا أتذكر أنني جئت إلى هذا المكان من قبل، أو أن لي صلة بأحد أو عمل حياتي هنا، لذا على أن أفهم عمن يتحدث، والشخص الميت هل هو رجل أم امرأة؟

عندها قال: إنّ ذلك الرجل المسكين الملقى في الداخل محدق بالسقف وكأن جسده قبل موته قد وخز كله بإبرة أو ما يشبهها، هم أيضاً لا يعرفون

اسمه، فلقد قلبوا المكان كله رأساً على عقب، ولكنهم لم يجدوا أي شي يدل على هويته.

فتحوا حاسوبه المحمول الموجود في غرفته ولم يحصلوا على شيء منه فقد كان مليئاً بالملفات الصوتية وصور من الإنترنت لنساء ألمانيات وهولنديات فاسدات أو كانت الصور حول ما بعد الطبيعة وآثار القدماء، وهذا ما دفعهم للاتصال بالرقم الموجود على ورقة الحساب التي ترجع لمقهى باسم مقهى البيانو ليأتي أحدهم هنا وينظر هل يعرف هذا الملقى على التخت أم لا.

سألت: أحقاً عليّ أن أدخل إلى الغرفة وأنظر إلى وجهه؟

رفع القبعة عن رأسه، ومسح بيديه على شعره الخفيف وعندما وضع القبعة التي غطت كامل شعره البني قال: لا يوجد حل آخر... لا يعقل أن يبقى المسكين هكذا على الأرض، في النهاية لا بد أن يتضح عنه أمر، شيء ما.

قلت له أن يعدل عن الأمر، لا أستطيع، فقلبي لا يحتمل أن أذهب هكذا مباشرة وأحدق بوجه شخص ميت، فأرى هل أعرفه أم لا، وهذا الآن في وقت الصبح، ولا سيما أنه كان أحد زبائني، عندها سألته برجاء: الآن لا يمكن أن تبحثوا أكثر بين ملابسه.. حقائبه مكان ما؟

بدا عليه التأثر إذ قال: ليس لديه أيّ حقائب، كل ما في الكراج عبارة عن: موكيت كبريتي بني قديم، أغلبه محترق بنيران السجائر، فكأنه اعتاد أن يرميَ أعقاب سجائره دون أن يطفئها على الموكت فلا يكترث إن احترق.

من ثم أراني سند أموال ذلك المسكين التي وجودها في الكراج جعلوها في قائمة، وكانت مرتبة على الشكل التالي: تخت حديدي قديم له نابض من شدة تمدده وصل إلى الأرض، مجموعة من شفرات الحلاقة تآكلت من الصدأ، فرشاة

أسنان انحنت أسنانها، ومالت إلى الخلف من كثرة الاستعمال، حاسوب محمول موضوع على طاولة رخيصة، كُتب على جدار شاشته جمل غير مترابطة ترجمة إحداها: «أولاً، فلتسامح نفسك»، كرسي أرجله حديدية، مقعده من الجلد الأسود ضُرِب بشفرة فخرج من بين شقوقه الإسفنجات الصفراء، مرآة صغيرة سفرية، علبة سجائر فارغة، عشرون كأساً صغيرة متسخة من تلك التي تجدها في علب الشاي الرخيصة، داخل معظمها إلى العنق ممتلئ بالرماد وأعقاب السجائر، وثلاجة لا يوجد شيء تقريبا في داخلها عدا نصف كيس من العدس ونصف علبة من الشاي، غاز ذو عين واحدة موقدة وعندما وصلت الشرطة كانت ما تزال موقدة، وإبريق الشاي قد ذاب فوقها، وصادف أن رائحة الاحتراق الشديدة لمقبض الإبريق كانت السبب الذي أجبر الجيران على طرق الباب على الرجل، وعندما لم يفتح لهم أخبروا الشرطة.

وأضاف: مالك المنزل ليس هنا على الأغلب أنه مسافر في مكان ما، ولا أحد من الجيران يعرف الميت.. وطبعاً سقطت على لوحة مفاتيح حاسوبه عشر أو اثنتا عشر ورقة حساب تخص مقهاك.

بدأت أهيئ نفسي للدخول، فقد كنت أضغط على يدي المتشابكتين باستمرار، وأفرك عرقهما ببعض، في الحقيقة، ودون أن أعي، كنت أبث القوة في قلبي لأدخل إلى هناك وألقي نظرة عليه، فأنظر إلى وجهه للحظة واحدة فقط من ثم أُهرع راكضاً نحو الخارج بسرعة لا يعيبها أحد عليّ، فلا يقول إن رآني: يا للعجب كم هو جبان.

سألت: هل عيونه مفتوحة أم لا؟

قال الضابط: أجل، يحدق بالسقف، وأسنانه مطبقة بإحكام وكأنه في آخر أنفاسه كان يعاني ضغطاً شديداً.

الصورة التي شرحها، جعلت مهمتي أصعب، أريد القول لست مستعداً بأي وجه أن أنظر إلى وجه رجل ميت، عيونه مفتوحة، ولحظة موته كان يعاني ضغطاً، ما فانطبقت أسنانه بإحكام بعضها على بعض، وجسده كله مملوء بوخزات الإبر أو ما يشبهها.

سألت: والآن كيف حدث أن مات؟ كنت أحاول أن أشتت انتباهي عن العيون المفتوحة لرجل ملقى في الداخل، ولا بد أنه عندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة كان نادماً كالكلب، وأراد من أعماق قلبه أن يصل أحد لعونه، ولكن لم يتمكن من الحصول على مساعدة من أحد، أجاب: في الحقيقة، لا نعلم بعد، ولكننا وجدنا بالقرب من سريره كأساً التصقت بجدرانه الداخلية حبيبات بيضاء اللون.. لابد أنه قد ألقى في الكأس أربعين إلى خمسين حبة دواء، ماذا كانت؟! العلم عند الله وحده!.

لم يكن هناك من مهرب كان عليّ أن أدخل وبأي طريقة ممكنة لأنظر للجثة، من ثم عندما استجمعت قواي قلت: حسناً، سوف ألقي نظرة عليه، ولكن نظرة واحدة... لست مستعداً أن أنظر إليه نصف ساعة لأعرف من هو.

هذا ما جرى، أزاح لي الستارة من أمام باب الكراج، ولكن ما إن هممت بوضع قدمي في الداخل حتى رأيت حذاءه الشتوي كانت بضعة السانتميترات الأولى من أربطته مغطاة بالتراب وكأنها كانت دائماً تحت الحذاء، وتبدو أوسع من بقية الأجزاء، لذلك عدت وقلت له: لا يحتاج الأمر أن أدخل أكثر، أعرفه.. فهذا الحذاء يخص شخصاً أعرفه.

من ثم ابتعدت عن الباب، وذهبت إلى ذلك الطرف لأشعل لنفسي سيجارة، وقلت للشرطي الذي كان يتجه نحوي: إنه كان يأتي إلى المقهى ويشرب الشوكولا الساخنة، الشاب من أغنياء المدينة، لست متأكداً، ولكن... كان لديه

مرضٌ نفسيٌّ أو اكتئاب من نوع خاص به، أخبرني أنه عندما كان ما يزال في منزل والده، كان يذهب في الليل إلى نبتة الياسمين التي تحبها أمه ليقضي حاجته فيتبول عليها، فتحترق هذه النبتة المسكينة بعد مدة وتجف تماماً، فيضطرون لاقتلاعها من الجذور، هذا ما دفع والده لكي يطرده من المنزل، مع أنه كان يعلم أن معظم أفعاله التي يرتكبها لم تكن بإرادته، فقد قال له أن يذهب إلى الجحيم وألاّ يعود إلى المنزل مرة ثانية، فشخص مثله يصر على التبول على أزهار الياسمين التي تحبها أمه كثيراً، مع وجود أكثر من عشرة حمامات في المنزل، من الأفضل لمثل هذا الشخص أن يذهب ويختفي، فلا يرى أحد وجهه المنحوس، من ثم كما أخبرني أرسلوا ليعيدوه إلى المنزل نحو مرتين أو ثلاث مرات ولكنه رفض، أي إنه أخبرهم إما ألاّ يعود مطلقاً أو إن عاد سوف يتبول متى ما أحب فوق ورود الياسمين وأشجار البيت التي يختار، ولا يهمه مطلقاً إن جفت كلها أو احترقت، لذا لا هو عاد إلى المنزل ولا هم أرسلوا في طلبه مرة أخرى.

أضفت أنه يجب أن تكون كاميرتي الخاصة بالنجوم في الكراج، لم تلمحوها هناك؟

قال: كيف... لم يكن في غرفته أي كاميرا.

أخذت نفساً من سيجارتي، ومن ثم أطلقت الدخان من فمي، وألقيت عقبها على الأرض وسحقته بقدمي، وبينما كنت أحرك قدمي فوق عقب السيجارة بمقدمة حذائي هذا الطرف وذاك، قلت: لا بد أنه أعاره لأحد ما.. لقد أخبرني أن متعته هي أن يذهب في منتصف الليل إلى النواحي القريبة أو يصعد إلى فوق فيشاهد به القمر، من ثم رفعت رأسي إلى الأعلى وألقيت نظرة على الضابط وتابعت: لقد قال لا يعقل ألاّ يكون هناك أحد.

حزين مضحك،

أو ربما مضحك حزين

كل اليوم كان يتراءى أمامي بعيونه المحدقة بالسقف وأسنانه الملتصقة بعضها ببعض، حتى عندما كان المقهى يعج بالزبائن، لم أتمكن من أن أتخلص من هذا المشهد الشرير الذي كان يتداعى في ذهني بشكل مستمر، بأنه نهض وذهب إلى الصيدلية وابتاع حبوب الدواء **(لخصيتي)** بكل ما يملك من النقود التي لا تتجاوز بالتأكيد بضعة مئات من التومانات وإلا كان أتى إلى المقهى ليشرب بها الشوكولا الساخنة، ووضع الحبات في علبة فيلم تصوير فارغة.

(حبوب لخصيتي) كان مصطلحاً خاصاً به، مرة أخرج علبة حبوبه من جيبه ليتناول قبضة منها، سألته ما هذه الحبوب التي تتناولها، فأجابني: حب لخصيتي، ومن ثم استمتعت بتعبيره هذا، وأثنيت عليه لإبداعه وفنه، لأنه تمكن بجمالية تامة أن يوجد ارتباطاً ذا معنى متفرداً وخلاقاً بين الحبوب والشعور الذي تمنحه له عند تناولها وبين خصيتيه، من ثم يذهب إلى البيت، ليس بيتاً بل كراجاً كان قد استأجره، يخلع ملابسه، يفرشي أسنانه، يجلس إلى الإنترنت، يحمّل مجموعة من الصور لنساء أوربيات فاسدات، ويشاهد الصور للمرة الأخيرة، من ثم يذهب إلى أمام الحنفية يملأ كأساً متسخاً لم يغسله يوماً بالماء، ويضع فيه كل حبات الدواء **(لخصيتي)**، يحركها فتذوب - وما إن تصل لأسفل الكأس حتى تختفي - يحدق بها، وعندها يقول للدنيا **(لخصيتي)** ويشرب كل محتويات الكأس.

وفي النهاية يذهب ويستلقي على سريره، ويمد الغطاء على جسده، وبخنصر قدمه يرتبه من الأسفل ليغطي أقدامه، يغمض عينيه، ويغرق في رؤياه أو كوابيسه المريضة، وأنا مريض مشاهد كهذه، المشاهد التي ينظم فيها أحدهم أمر موته، بحيث يكون متفرداً وخلاقاً، إلى درجة أنني جلست يوماً وكتبت أكثر من اثنين وستين إلى ثلاثٍ وستين طريقة للانتحار، كل واحدة أجمل من الأخرى، وتعد بحد ذاتها أثراً فنياً، واحدة من هذه الطرق اقترحتها على صديقي من أيام الشباب همايون، فقد كان يبحث عن طريقة مبتكرة للانتحار، لأن نفسيته كان متعبة من خيباته المتتالية، ولم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً حيال الأمر، ولقاء اقتراحي أعطاني هدية علبة سيجار مالبورو قاعدتها حمراء اللون.

همايون من ذلك النوع من الأصدقاء الذي يستحيل أن تنجب الحياة منه أكثر من واحد أو اثنين، هو مستعد ليبذل روحه فداء لك، وأنتم مستعدون لمساعدته ليُتم ما يريد فعله، أو أن تموتوا لأجله، وهو مستعد ليرتب موتاً مريحاً له، صديق قريب منك إلى درجة من الممكن أن يجلس إليكم في وقت ما وبينما هو يحدثكم عن هواجسه يبدأ بالبكاء دون خوف من أنه قد أصبح رجلاً أو أن يكون أسيراً لما علمونا إياه في طفولتنا أن الرجل لا يبكي.

حقاً إن همايون رجل بحق، وحدث كثيراً أن بكيت أمامه، أو بكى أمامي، أي لم يحدث أن جلسنا بعد فترة من الزمن ولا يأخذنا البكاء لسبب ما، هو يبكي لي أو أنا أبكي له، أو نبكي معاً، أو ماذا يدريني، نبكي على أمهاتنا، أو هكذا دون سبب نبكي فقط لنشعر بأننا قد أنجزنا أمراً ما.

آخر مرة رأيته فيها كان يسكن في مطبخ صغير تحت الأرض، استأجره وسط المدينة، وعندما يكون الوقت نهاراً دائماً يكون مظلماً، فليس فيه نوافذ أو فتحات ليدخل منها الضوء، لذلك كنت أناديه (بومة) ليس لأن البيت لا ينفذ إليه الضوء من أي مكان فحسب، بل لأنه كان يبقى مستيقظاً طوال الليل ونائماً طوال الصبح إلى الظهر تقريباً.

أتذكر جيداً أننا جلسنا يوماً على أرض المطبخ وكنا نحاول أن نفتح علبة كنسروة قرمة سبزي، لربما نستطيع أن نفتحها بالسكين، ففي وقت سابق أردنا أن نفتحها بفتاحة العلب ولكنها التوت واتسخنا، فبدأنا نكيل الشتائم لمن صنع هذه الفتاحة وطرحها في السوق، التي إن حدث أن فتحت لنا شيئاً فبصعوبة بالغة، ولمرة واحدة، ومن ثم لا تنفع لأن تخلط بها اللبن.

حاولنا من جديد أن نفتح علبة الكنسروة، للحظة توقف همايون عن العمل، نظر إلي وسألني: هل تعلم لماذا لم أصبح شخصاً طبيعياً وسليماً؟ ولماذا أنا دائم القلق؟ ولماذا هذا الغلاء الفاحش لا ينتهي؟، ولماذا في كل لحظة أنتظر مصيبة جديدة؟ من جديد انهمك في فتح علبة الكنسروة التي كانت تنازع الروح تحت يديه، قلت: لا، لا أعلم.

دون أن ينتبه إلي وبينما هو يمسك العلبة بين يديه وينظر إليها هنا وهناك قال: إنه أمر يدعو للسخرية، إن الأمر متعلق بقلم رصاص.

أمسكت العلبة بكلتا يدي ووضعتها على الأرض، ليتمكن من أن يحدث فيها ثقباً بالسكين، فنستطيع أن نفتح رأس العلبة بشكل دائري، قلت له: كفاك هراءً رفع رأسه نحو الأعلى للحظة، سحب السكينة من الحفرة الصغيرة التي أحدثها في العلبة بصعوبة، نظر إلي وكأنه يريد أن يوضح لي شيئاً مهماً وقال:

صدق.. كله هذا متعلق بذالك القلم اللعين الذي اشتراه لي والدي، من ثم أطرق رأسه وغرز رأس السكين في أعمق جزء من الحفرة أعلى العلبة، ضغط بكل ثقل جسده النحيف على السكين حتى استطاع في النهاية أن يوجد ثقباً في أعلى علبة الكنسروة خرج منه زيت أخضر اللون، ولكن مهما حاول لم تكن السكين لتنغرز داخل العلبة، ولم يكن ليستطيع أن يمزق باب العلبة لسماكته، وهنا سأل: من ماذا يصنعونها هؤلاء الكفرة؟! كل شيء بالعكس في هذه البلاد، فتاحة العلب تلتوي، وعلبة الكنسروة لا تفتح مهما كان.. آه.

قلت: حسناً، يا حمار، كنت اشتريت واحدة من تلك السهلة الفتح.

قال: إنها أغلى بسبعين تومناً.

قلت: أحسن من هذه التي نتعذب بفتحها.

قال في المرة القادمة عندما أريد أن آتي لتناول الغداء أو العشاء، فلأكلف نفسي وأذهب وأشتري سُمّاً هارياً نتناوله معاً وبالتأكيد أن أشتري من تلك السهلة الفتح، من ثم كررها ساخراً بلهجة المخنثين: سهلة الفتح.

عندها، أخذه الضحك من النبرة التي استخدمها - وكأنه مخنث منذ الولادة- أعجبه الأمر، كررها مرات من جديد وضحك، وبينما هو يضحك دون توقف قال لي: أماتك الله على هذه المصطلحات، هل تعرف من أين تأتي بها؟

من جديد ضحك كالمجنون. كانت أكتافه ومؤخرته تهتزان من الضحك، أدركت الأمر أم لا، فبدا أكثر شبهاً بالمخنثين، بنبرتهم الساخرة قال: تفتح بسهولة.. عفواً سيدي هل من الممكن أن تعطني واحدة من تلك

التي تفتح بسهولة؟! لا، لا! هذه ليست مما يفتح بسهولة، أريد واحدة من تلك التي تفتح بسهولة، إذا سمحت أعطني واحدة تفتح بسهولة.

عندما يأخذه الضحك - وهذا أمر نادر الحدوث له ولكم - من المستحيل أن يضبط نفسه، ما كان أنه عندما كان في حالة الضحك المتواصل، وضع مؤخرته على الأرض ووضع يده على بطنه وهو ممسك بالسكين، وعندها تمدد على الأرض، بدا كما لو أنه طفل في رحم أمه، أقصد أنه لم يتمدد بشكل كامل بل تكور على نفسه.

استمر في الضحك وتكرار (تفتح بسهولة) إلى أن انهمرت الدموع من عينيه، ولكنه لم يكف عن الأمر، فللحظة كان يهدئ ضحكه كان يستلمني من جديد، تفتح بسهولة يا له من اصطلاح، ومن ثم يضحك من جديد، ويتدحرج على أرض المطبخ.

قلت له: أعطني السكينة، لم تكن يوماً جيداً في تمزيق الأشياء، لم تستطع أن تحدث شقاً في ستارة، فهل أنت قادر على شق الحديد؟

انهلت عليه بالنكزات، فهو لم يتجرأ يوماً على الزواج، مع أنني أخبرته أن تذهب النساء إلى الجحيم، الأطفال هم العشق الحقيقي، كان يقول لي يا ليت هناك من وسيلة يستطيع بها المرء أن يلد بنفسه، أي لو أن بالإمكان أن تقرص أذنك، فيتم إفراز بيوضه في بطنك، ثم تقرص أذنك الثانية فتنقذف الحيوانات المنوية فوقها، لو حدث هذا لكان شيئاً لا يوصف، أليس كذلك؟...والأجمل لو كان بالإمكان أن تجلس وتشاهد السباق بين حيواناتك المنوية أيهما سيصل أولاً إلى البيوضة، سأنجب خمسين طفلاً كباراً وصغاراً.. وأمنحهم إلى دار الأيتام ليكبروا هناك، فلا طاقة لي بتربية الأولاد.

هو شخص ممازح، ولا يخاف أن يقول أشياء مخالفة للمألوف، أي إن إستراتيجيته في السخرية هي أن الجزء الأول من كلامه لا يمكن من خلاله توقع جزئه الثاني، ودوماً ما يأتي عكس المتوقع، بل إن أي شيء ممكن أن يكون تتمة كلامه إلا ما أوحى به الجزء الأول من الكلام.

لم يعطني السكينة مع أنني طلبتها منه، أي لم يستطع إعطاءها لي، فنهضت وسحبتها من يديه اللتين كانتا ما تزالان على بطنه، كان يضغط على خاصرتيه ويمسح عليهما لعله يستطيع أن يتوقف عن الضحك، ويلتقط أنفاسه.

كنت فقط أسمعه يقول بمشقة: حماري.. حماري في البراد، مع أنه لم يكن قد تعاطي حشيشاً أو موادَ مخدرة إلا أن حضور الحمار كان لازماً، ليقف من ثم يجلس على مؤخرته، وبعد أن مسح زاوية عينيه بظاهر يده، جلس بالقرب مني وكنت قد فتحت علبة الكنسروة، ووضعت القورمة سبزي في المقلاة التي كانت يوماً تيفالاً مثلاً منذ ما يقرب العشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة مضت أو ربما أكثر.

عاد وقال لي: بينما كنت أقف أمام الغاز الرخيص المتسخ ذي الشعلات الأربع: لم تأخذ على خاطرك مني، أليس كذلك؟

من ثم ومرة أخرى استحوذ عليه الضحك مما قال، فسقط على أرضية المطبخ يتلوى، وبينما هو يضحك كان يردد بصوت ضعيف خرج من معدته بصعوبة: تفتح بسهولة...يا لك من رجل.. يا إلهي لقد مت من الضحك.

وأنا أيضاً أخذني الضحك أمام الغاز، ليس مما قاله، بل مما آلت إليه حاله والتصرفات التي تصدر عنه، والتي ظن أنها لن تتركه، ولكن في النهاية هدأ، أي نهض وذهب إلى صالونه الصغير تحت الأرض الخالي من النوافذ

الذي يحسبه بيته، تمشى قليلاً، وعندما التقط أنفاسه عاد، أشعل سيجاراً، أتى وجلس على الكرسي المستند إلى الجدار إلى جانب طاولة صغيرة بالقرب من الغاز، ولم يكن بيننا مسافة تذكر.

كنت منهمكاً بتسخين القرمة سبزي، وبين الحين والآخر كنت أسترق النظر إلى داخل صانعة الأرز المخصصة لشخصين، فقد وضعنا فيها الأرز ليستوي، فأردت أن أرى هل نضجت حبات الأرز البسمتي، فأضع عليها الغطاء أم لم تنضج.

وعندما انتهيت رجعت إليه رأيت أن حاله قد تغير وأخذ بالبكاء بصمت، كانت قطرات الدموع تتدحرج من على وجنتيه النحيفتين المجعدتين وتتجمع عند ذقنه.

جلست على الكرسي الآخر المصمم للرياضة ذي الأربع قوائم، يتمددون فوقه على البطن أو الظهر، ويلعبون بالدنبل، اشتراه من أجل أن يمارس الرياضة عندما تتملكه الرغبة، فيتخلص من شكله الأصفر النحيل ويتمكن من لفت أنظار فتاة ما إليه، ولكنه لم يفعل شيئاً سوى الجلوس عليه، فقط، فلم يحدث على الأقل ولو لمرة أن ينام فوقه فيرفع ثقلاً ما، فلا يحترق قلبه على النقود التي أنفقها عليه.

في منزله من تلك الأشياء التي صُنعت لغاية معينة، ولكنه كان يستخدمها على طريقته الخاصة، من أمثلتها، لحاف يلقيه فوقه أو يعطيه لأحدهم فيستخدمه عندما يتملكه البرد، ولكنه علقه بالمسامير على الحائط، فلقد أعجبه تصميمه على شكل لوحة لبيكاسو، ورغب أن يكون في مرمى نظره دائماً.

فكروا معي، صاحب منزل أحمق، كلما وصل شيء إلى يديه، أو رأي بأنه جميل، يعطيه ليطبعوه له على اللحاف، وليكن ما يكون هذا الشيء لوحة لبيكاسو أو عملاً غرافيكياً لآندي وارهول يمثل صورة مارلين مونرو، دون أن يعبأ بأن وارنول لم يرسم الصورة ليطبعها صديقي على لحافه اللعين.

التفت إلي وسألني وكنت أشعل لنفسي سيجارة: لا بد أنني مجنون، صحيح؟ قلت له: لا، يبدو أنك تعاني الاكتئاب... أعتقد أنه يجب أن يساعدك أحد، وربما أن تساعد نفسك بنفسك.

مضغ شفته قليلاً من ثم قال: إنه دائم القلق من أن يكون لديه مرض صعب العلاج لا سمح الله، مع أنه منزعج مما آل إليه حاله في هذه الدنيا اللعينة - ولا يسوؤه أن ينهي حياته - فإن هذا الموضوع أي قلقه من إصابته بمرض ما مميت، ولا يمكنه أن يفعل شيئاً حياله، أمر مثير للضحك، أليس كذلك؟!

صدقته بأنه أمر مضحك جداً، ولكنني قلت له: إنه عاشق للحياة، ولكن تفكيره بأنها ليست مفيدة، يجعله يعتقد بأنه يكرهها، وإن شرع بعمل عام المنفعة ستتغير حالته النفسية نحو الأفضل، ما يدريني.. مثلاً أن يذهب إلى الجبل ويجمع النفايات التي يلقيها الناس على الأرض، أو أن يمشي على الأرصفة المزدحمة ويبدأ ينبه الناس ألا يبصقوا على الأرض أمام أولادهم - أي أن يشعر بأنه شخص مفيد في الحياة- عندها سيتغير حاله، ربما ليس مئة بالمئة، ولكن سيكون أفضل مما هو عليه الآن، ومما أرى، أنا متأكد.

تملكه الضحك، ونظر إلي وكأنني أردت أن أهزأ به، لذا كنت مجبوراً أن أطمئنه بأن هذا ليس قصدي مما قلت، لذلك عدت وقلت له: أتحدث معك بجدية يا همايون، عليك أن تشعر بفائدتك.

في تلك اللحظة ضربت له مثالاً، فقلت له: إنني قبل أن أتزوج كان وضعي يشبه وضعه، وحالما تزوجت فكرت مع نفسي إن لم أكن مفيداً في شيء، فالفائدة مني الآن بأن هناك امرأة بجانبي تظن بأن هناك رجلاً فوق رأسها، وبأنها تستند إلى عماد قوي ومحكم، وربما الأمر ليس كما تتصور زوجتي، فتدرك بعد عشر سنوات من الآن بأنها ارتكبت خطأ فادحاً، ومن الجنون أن يتكئ المرء على مثل هذا الرجل اللعين، ولكن هذا ليس مهماً، المهم أنني بدوت مفيداً لأحدهم لمدة عشر سنوات، وهذا الأمر يؤخر من ظهور هذا المرض المصابين به جميعاً على الأقل خمسة عشر عاماً، مما يجعله في حد ذاته مكسباً.

كان الشك يساوره، فبينما كنت ألقي عليه خطابي الفلسفي، كان يتفحصني بعينيه ليفهم هل أدعي هذه الجدية لأهزأ منه، ومن ثم عندما يصدقني بأن عليه أن يكون مفيداً، أضحك عليه، أم إنني بحق أتحدث بجدية بأن عليه أن يشعر بفائدته في الحياة.

لذلك سألته: لم تخبرني.. ما قصة القلم الرصاص؟

ومن مكاني مددت رأسي إلى صانعة الأرز لأرى هل نضج أم لا؟

وضع مرفقه على الطاولة التي فرش فوقها قطعة قماش قديمة مزينة برسوم تقليدية خاصة، قالي لي يوماً إنها الشيء الوحيد الذي بقي له من أمه، فرشها على الطاولة بحيث تظل زواياها المثلثات الأربعة الصغيرة ظاهرة، ويظهر خشب الجوز المملوء بالعقد، فتبدو أجمل.

من ثم أسند يده اليسرى إلى ذقنه فوق إحدى المثلثات وقال: كان فارق العمر بيني وبين هرمز عام واحد، كلانا كنا نذهب إلى المدرسة، هرمز في دوام

العصر وأنا في دوام الصبح، كنت قد دخلت إلى الصف الأول حديثاً، وهرمز إلى الصف الثاني.. عندما كنت أضع قدمي في المدرسة كانت أحزان الدنيا تملأ قلبي، فأتوتر، ولحظه دخولي إلى الصف كان قلقي يتضاعف فجأة، لأن الصف أصغر من ساحة المدرسة وجدرانه أكثر تلاصقاً، فأبدأ بالبكاء وكان من المستحيل أن يزول قلقي حتى أعود إلى المنزل.. إلى الغد حيث كان يأتي باص المدرسة في إثرنا، باص فولزفغن ضفدعة أو.. من تلك.. كان لونه برتقالياً.

ضيقت عينيَّ قليلاً وسألته: لماذا؟

أجاب: ما هو الذي لماذا؟

قلت بعصبية: حسناً، الأمر واضح أيها الحمار... لماذا كنت تقلق؟

مسح أنفه بظاهر يده وقال: كان أبي قد اشترى لي قلماً رصاصاً، كان جميلاً جداً، طُبعت عليه أسماك صغيرة جميلة ملونة، تأسر الناظر إليها من شدة جمالها، بحيث لم أكن أرغب أن أبري القلم... فهم هرمز الوضيع كم أحب هذا القلم.. حسناً لم أكن أحب القلم لذاته، فهو لا يختلف عن غيره من الأقلام القذرة في شيء... من حيث إنه عليك أن تكتب به واجباتك فجميعهم متشابهون...أحببت الأسماك المرسومة عليه كلها واحدة واحدة... بالأخص تلك الذهبية منها، بأمانة كأنها فضة وكنت أحبها بشدة.. من سوء حظي كانت تقع بالقرب من رأس القلم، لذلك عندما كان يريد أن يؤذيني كان يقول لي عندما تذهب غداً إلى المدرسة سآخذ القلم وأبريه وأبريه حتى يبقى فقط منه الممحاة.

ثم التفت إلي بتلك العيون الغائرة في وجهه المبتلة بالدموع والألم يعتصره: جُلّ قلقي كان لهذا السبب، ومع أنه لم ينفذ تهديده.. إلا أن هذا

القلق بقي في داخلي، اعتدته، بحيث إن لم أجد شيئاً يقلقني، لا أشعر بأنني على ما يرام.. هل تصدق؟.. لو كان نفذ تهديده وبرى القلم لم يكن حالي ويومي على ما أنا عليه الآن.

سألته: حسناً، أيها المجنون، لماذا لم تأخذه معك إلى المدرسة؟

أجاب: خفت من أن يسرقه أولاد الحرام مني... فقلت لنفسي أن يبريه هرمز أفضل من أن يُسرق، صمتَ لبضع لحظات، واستمر صمته، فاضطررت أن أطفئ تحت المقلاة التي بدأت تصدر الأصوات، فكان من الممكن أن تسلب همايون تركيزه عن الشيء الذي كان يفكر فيه والمكان الذي حدق فيه في فضاء الغرفة، صمت أنا أيضاً وأمعنت النظر إليه.

كنت أعض على طرف شفتي من الداخل، وأحاول أن أفهم بماذا يفكر؟ هل يفكر بأنه كان من الأفضل لو لم يشترِ له والده القلم الرصاص؟، أم يا ليته لم يره لهرمز أو يخبره كم يحب الأسماك المرسومة عليه؟ أم يا ليت هرمز أو أي أحد آخر قد برى له قلمه، فلا يقع فريسة هذا القلق الدائم، أم أين هو القلم الآن؟

إلى أن سألني: أليس لديك طريقة للانتحار؟ تكون جديدة، ممتعة؟

سألته: تلزمك لتنال الاستعطاف، أليس كذلك؟

أجاب: لا.

قلت: إن قطعت لي وعداً ألا تستخدمها أقولها لك، إنها قابلة للتأمل يا هُما.. تحفة فنية، عليك أن تعطيها لنحات لينحتها لك من شدة فرادتها، أعتقد من الأفضل أن تعطيها لهرمز لينحتها لك، عندها ضحكت وقلت: لم تأتني بالمجان لأعطيها بدون مقابل لأحدهم، عليك أن تمنحني شيئاً مقابلها.

سأل: ما هو؟

أجبته: أبيعك حقوقها الحصرية بعلبة سجائر مالبورو طويلة، بشرط أن تنهض الآن فوراً وتذهب وتشتريها، أجاب بالموافقة ومد يده أي عدني بذلك.

كنت أعلم بأنه ليس أهلاً لذلك، ولن يأتي اليوم الذي يذهب فيه ويشتري الأغلال من تلك التي يضعونها في يد اللصوص والقتلة ويجرونهم بها هنا وهناك، لن يشتري منها ليقتل نفسه.

لذلك أخبرته بعد أن يشتري الأغلال، فليدعُ نفسه إلى أحد المسابح، وغرف الساونة الغالية في مكان راق من المدينة، من تلك الموجودة في الطابق الثالث أو الرابع، ولا سقف لها، وحتى عندما تثلج يمكنك أن تسبح داخلها، لأنهم يدفئون مياهها في الشتاء، فيتصاعد البخار عن وجه الماء مُشكلاً ذلك المشهد الخيالي الجميل.

ليذهب إلى هكذا مكان، ولحظه وصوله ليتجاهل لجميع، فيذهب مباشرة إلى السلم الذي يضعونه داخل المسبح، حتى متى ما أرادوا أن يفرغوا المسبح من الماء يمكنهم أن ينزلوا إلى داخله وينظفوه، هناك وللمرة الأخيرة يملأ رئتيه بالهواء النظيف لهذه الدنيا التي لم تكن يوما لطيفه معه، من ثم يأخذ نفساً عميقاً، وينزل السلم درجة درجة أمام العيون المدورة للرجال القصار، كثيفي شعر الجسم، قليلي شعر الرأس، الذين تراهم إما داخل المسبح، وإما تحلقوا حول أطرافه، ووضعوا أرجلهم المدورة في مياهه، وجعلوا أصابعهم في آذانهم الوسخة، يضحكون مثل الضباع لرؤية أحدهم وقد أتى إلى المسبح حاملاً الأغلال معه، قبل أن يغمر نفسه تحت الماء يريهم الأغلال ويقول لهم لقد تركت المفتاح في المنزل إن أردتم أن تعرفوا أين هو، يقولها بحيث يظن معظم الحاضرين

بأن هذا المسكين فقد عقله، فهم لا يبحثون عن مفتاح الأغلال، ولماذا عليهم أن يبحثوا؟ من ثم، وبعد أن يأخذ نفساً عميقاً، ينزل إلى الأسفل درجة درجة، يغلق الحلقة الأولى من الغل على معصم يده والحلقة الأخرى على آخر درجة من درجات سلم المسبح القريبة من أرضيته، فلا يكون من بعدها أي درجة أخرى، عندها يحاول وحسب المعتاد أن يتنفس إن استطاع ذلك.

لا بد أنه كان يتصور في مخيلته المشهد الذي وصفته له، لأنني عندما نظرت إليه رأيته يحدق بي وكله آذان صاغية، ما حدث أني تابعت كلامي: أنت الآن في الأسفل تتخبط ونادم كالكلب على فعلتك، وتتمنى لو لم تقدم على هذا العمل الأحمق، وتتمنى لو كان المفتاح بحوزتك، وأولئك الحمقى العاجزون الصلعاء عندما يرون أن فقاعات الهواء بدأت تصعد إلى سطح الماء، يُهرعون بنعالهم البلاستيكية البيضاء - التي في جميع مسابح الدنيا أرخص من هنا مهما كان الطقس شتوياً، ومهما بلغت قيمة الدخول للمسبح - يهرعون هنا وهناك لعلهم يعثرون على المفتاح أو شيء ما لينقذوك، مع أن البلهان من شدة حماسهم واضطرابهم، لم ينتبهوا أنك قد أخبرتهم سابقاً أن المفتاح قد تركته في المنزل في خزانتك الجدارية، حيث الكثير من الأشياء الغريبة والعجيبة ومن غير الممكن أن يعثروا عليه. مع هذا كله، ترى بعضهم يُهرع إلى المنقذ السمين الأصلع ويخبرونه: عليك أن تفعل شيئاً ما، فيقول لهم الرجل: هل جننتم؟! أخبروني ماذا أستطيع أن أفعل له لأفعل... فأنا لم أحضر معي منشار الحديد، فاحتمال أن يأتي أحدهم ويكبل نفسه بسلم المسبح يمثل واحداً بالمليون، يوافقه الآخرون على ما قال، يرجعون ويرفعون أكتافهم قليلاً نحو الأعلى بأن الرجل على حق، فالمنقذ لا يحمل منشاراً حديداً يحضره معه إلى المسبح، فهذه ليست من ضمن مهامه الوظيفية.

فيأتون جماعة إلى أمام المسبح حيث تتصاعد فقاعات الهواء التي بدأت تصبح المسافة بينها أكثر فأكثر، يضربون ظاهر كفهم المملوء بالشعر أي إنهم يشعرون بالأسى لعجزهم عن مساعدته، وأنت ما تزال في الأسفل.

ضحك كثيراً، أكثر مما كان عليه عندما كان يردد (يفتح بسهولة) ويضحك دونما انقطاع، الآن كان يضحك أكثر وأكثر، لقد استمتع للغاية من تصوره للمشهد لذلك عندما استطاع أن يلتقط أنفاسه قال لي إنها تحفة فنية، فلكم هو ممتع أن ينهي المرء حياته بهذه الطريقة.

قلت له: إن حياتنا مثيرة للاهتمام، فهي تتأرجح بين المأساة الخالصة والكوميديا المحضة، دائما فيها تعرجات وانحناءات، يعني مبكية مضحكة أو أغلب الظن أنها مضحكة مبكية، ليس فيها حل وسط، وكل مصائبي بسبب هذا الأمر.. أي ليس هناك حد أوسط لأي منا يا هما، ولا لأي واحد منا.

في نفس اللحظة، أي بعد أن تأمل في الأجواء لمدة من الزمن في مكان ما مبهم، نهض، ولبس سرواله، ليخرج ويشتري لي عليه سجائر مالبورو طويلة التي اتفقنا عليها، في هذا الوقت من الليل حيث لم يكن من أحد في الشارع، ولا حتى طائر يرفرف بجناحيه، وقبل خروجه من المنزل، جاء نحوي ووقف على عتبة مطبخه الصغير وقال: جملتك الأخيرة كانت عميقة المعنى جداً، عندما أعود، ذكرني أن أدونها في مكان ما.

قلت: حسناً، عندما تعود سأذكرك.

قلت هذا وأنا أضيف ملعقتين ثلاث ملاعق من الماء المغلي إلى القورمة سبزي التي تشربت الزيت بالكامل، من أجل أن أشعل تحتها من جديد.

يا رب،

ليته كان والدهم

كنتُ أهُمّ برفع باب المقهى نحو الأعلى عندما لمحت قمرياً جميلاً أجنحته طويلة على زاوية الحائط في مكان ما بين الباب وأسفل نافذة المقهى، كان متجمداً من شدة البرد، تألمت لرؤيته على هذا الحال، فقد تخيلت ما قد ألمّ به في عقلي، فلا بد أنه في الليلة الماضية، في ذلك البرد القارس الذي يجمد الدم في عروق الإنسان- أنه قد طرق هذا الباب وذاك لعله يجد مكاناً دافئاً لطيفاً يأوي إليه، ولكنه عندما اعتراه اليأس وبينما هو ينازع أنفاسه الأخيرة، حط على تلك الزاوية من حائط المقهى لعل الرياح لا تتسلل إلى ريشه وأجنحته، فهو لن يسمح لها أن تسلب منه حياته بهذه السهولة، ولا بد أنه بينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ويتجمد، كان يفكر بصغاره الذين ينتظرون عودته إلى المنزل ليصطحبهم معه إلى المكان الذي عثر عليه بشق الأنفس، فيتمكنون من أن يقضوا الليلة هناك، وما أكثر الاحتمالات التي تسللت إلى قلبه آلاف الاحتمالات لما سيعقب موته، ما الذي سيحدث لصغاره من بعده؟ وكيف سيتمكنون من مواجهة هذه الدنيا الواسعة والظالمة والجبانة؟.

قلت في نفسي، يا ليتني تركت باب المقهى نصف مفتوح، ليدخل منه، ويجلس أمام المدفأة التي تركتها موقدة بالأمس إلى الصباح، فيبقى هواء الغرفة دافئاً ولا أضطر صباحاً، بسبب البرودة، أن أجلس نحو نصف ساعة

أمامها ليجرى الدم في عروقي، من ثم أستطيع أن أبدأ أعمال المقهى، لو فعلت هذا، لا بد أنه عندما حصل على الدفء الكافي، طار إلى صغاره في الحال وأخبرهم، فأتوا معه إلى هنا، فرحين لأنهم وجدوا مثل هذا المكان الدافئ والناعم، ولا بد أن أكثرهم شغباً كان سيحط فوق آلة صنع القهوة ينقر أنبوبها البخاري بمنقاره، فدائماً ما كان يتجمع فوقها مقدار من الحليب الجاف وكان طعمه شبيهاً قليلاً بطعم القهوة المحروقة، أما الآخر فقد كان سيحط فوق بقايا الكيك الشوكولاتي الذي تركته على الطاولة ولم ألقه في سلة المهملات، وحسناً، سيترك حزنه جانباً، أما آخرهم وهو أجبنهم فدائماً ما يوكل أعماله لأمه، ستذهب أمه وتحضر له بقايا الحلوى الموجودة على طاولة المقهى الثلاثية الزوايا، نفس الطاولة التي يجلس إليها علي دون أن أراه، ستأخذ قطعة صغيرة بمنقارها وتحضرها إلى صغيرها وتضعها في فمه، من ثم، تعد صغارها مرتين أو ثلاث مرات خشية أن يكون أحدهم مفقوداً لا سمح الله، وإلى وقت السحر تأخذهم تحت أجنحتها وهي تدعو لي بقلبها الصغير لأنني تركت الباب مفتوحاً ليتمكنوا من الدخول ويقضوا تلك الليلة هنا - وقد جربت في وقت سابق أن أضع أذني على قلب عصفور صغير، ورأيت كيف كان يخفق بسرعة ودون توقف- دعاء القمري كنت محتاجاً إليه بشدة، ولكم رغبت في أن يكون من نصيبي.

كنت في كل مرة أرى فيها صغار القمري وأمهاتهن يطيرون بين هنا وهناك، أسأل نفسي أليس لديهم آباء أو زوجات أو أزواج؟ لأنه لم يحدث قط أن رأيت قمريين أو طائرين أو حمامتين تذهب للتجوال برفقة صغارها، ولكن كنت دائما أشاهد صغيرين أو ثلاثة منها تطير خلف واحد أكبر،

وعندما تحط في مكان ما تطوف حوله، فلا يمكن التخمين من الذي بصحبتها هل هي أمهم؟ أقصد قد يكون والدهم، أستحلفك بالله من الذي سيمسك بأحدها ويقلبها ليرى هل هي أنثى أم ذكر؟! ولكن دائماً ما كنت أرجح أن يكون والدهم قد تخلى عنهم وذهب مع معشوقته، وتلك التي معهم هي أمهم التي على الرغم مما قاسته من والدهم لم تسمح لرجل آخر أن يدخل حياتها، وقررت أن تتخلى عن الحب وعن سعادتها إلى أن يكبر صغارها، ويبلغوا أشدهم ويتمكنوا من أن يُعملوا عقولهم ويسيّروا شؤونهم، ولكن زوجتي بريسما لها رأي آخر، فهي لا تتعامل مع أي قضية بناءً على المشاعر، فكيف الحال مع هذه القضية.

أقول لكم هذا، لأنه في غروب أحد الأيام الربيعية، كنا نجلس على التراس الصغير في منزلنا المطل على حديقة الجيران، مددنا السجادة على الأرض، وكنا نلعب، وكانت وردة الضفيرة تطوف حولنا، من ثم تأتي وتجلس أمام طاولة الشطرنج، فتبعثرها وكنا نضحك من فعلها، ونتضايق من أن علينا أن نعيد ترتيب أحجار الشطرنج من جديد. في الحركة الثالثة من اللعبة، ضحيت بالفيل لأنقل بعده الوزير إلى وسط الساحة، واستخدمه للكيش، وكمنت بحصاني - فما إن تضع بريسما ملكها في الوسط تصبح مقيدة الحركات – فأقوم بحركة مهما حاولت وبحثت وطافت بين الخانات في النهاية ستعدل عن التاج والملك، وتترك اللعبة لصالح ملكي، وعليه يصاب الخصم بالعجز، فليس هو من يتحكم بحركة ملكه إلى الأمام أو الخلف، بل الأمر منوط بكم، فأنتم من تحركون ملكه أينما رغبتم، ليس الأمر أن تمسكوا الملك وتضعوه في مكان ما، لا، بل أن تحدوا من خياراته في التنقل بحيث أينما حل ملكه سيكون وفق مرادكم

أنتم. طبعاً لا بد من أن أقول لكم بأن هذه التخريجة صالحة للعمل مرة أو مرتين فقط، ولحظة فقدانها لِجدتها، يفهم الخصم أن عليه ألا يكون غراً، وأن يضرب فيلكم الانتحاري - الذي ذهب إلى أمام الملك وقُتِل من قبل الجندي على الفور - وإلا فإنه سيقع في ورطة كبيرة لا سبيل للخروج منها.

بينما كانت تنظر إلى رقعة الشطرنج وتمسك وردة الضفيرة بيدها لئلا تركض وتخرب لنا اللعبة، كان فكري منشداً إلى شجرة صنوبر معمرة تقع مقابل تراسنا مباشرة في حديقة منزل جيراننا، وربما وفي الشتاء قد أخفى ما يقرب المليون غراب أنفسهم داخلها جيداً بحيث لا يمكن أن ترى أي واحد منهم، وإن رأيتهم فلا يمكنك أن تدل أحداً عليهم، أريد القول: إنها شجرة كبيرة إلى هذه الدرجة.

كنت أفكر مع نفسي كم من الممكن أن يكون عمرها لتمتلك مثل هذا الجذع الضخم؟ وفجأة رأيت ثلاثة صغار من طيور القمري مع قمري كبير أتوا وحطوا فوق أحد غصونها المتفرع إلى منتصف ساحة منزلنا، وفي الشتاء كنا نضطر إلى أن نكنس ثمار شجرة الصنوبر من تحته، وأن نلقي بها خارجاً. من جديد فكرت مع نفسي ذلك الكبير بينهم حجماً وعمراً هل هو أمهم أم أبوهم؟ هذا ما جرى فقلت لبريسما: انسي أمر اللعبة، فقد كانت خسارتها بديهية بعد ست حركات، وبدلاً من اللعبة فلتتأمل طيور القمري الأربعة فوق شجرة الصنوبر، لذا أبعدت ناظريها عن رقعة الشطرنج، ونظرت إلى ذالك الغصن من الشجرة الذي كنت أشير إليه بيدي، وتركت وردة الضفيرة لتجلس أينما ما تشاء.

على عكسي، فهي تملك نظراً حاداً، وليست مضطرة للتركيز بعيونها مثلي، بل تستطيع أن تميز الأشياء من مسافة بعيدة أو في مكان متشابه، حالما رأت طيور القمري قالت: حسنا،.. رأيتهم، ما هو قصدك؟

سألتها: برأيك تلك الكبيرة التي ترافقهم هل هي أمهم أم أبوهم؟

أجابت: يجب أن يكون والدهم.

قلت: تقصدين أن أمهم قد تخلت عنهم؟

قالت: احتمال.

قلت: إن كان الأمر كذلك فمن الواضح أنها أم قاسية القلب.

قالت: من أين لك أن تعلم ذلك؟ ربما لم تستطع أن تتفق مع والدهم

قلت: أعتقد أن تلك الكبيرة هي أمهم، أما والدهم فقد ذهب للاستمتاع بحياته.

قالت: لا يمكن أن يكون الأمر كما قلت.

نظرت إليها وسألتها: وكيف ذلك؟

قالت: إن النساء يجب أن يكون لديهن شيء يستندن إليه، وإلا فإنهن يخرجن بسرعة عن جادة الصواب، من هنا أقول: إن زوجته انفصلت عنه، وأسست حياة جديدة لها مع زوج آخر.

لم تقل: إنها عكرت صفو حياة رجل آخر، لتوصل المعنى بشكل أفضل، سألتها: كيف لم تفكر بصغارها؟

قالت: لابد أنها فكرت مع نفسها بأن الرجل يستطيع أن يتولى تربيتهم بنفسه، وهذا أفضل بكثير من أن تضل طريقها بسبب أن أطفالها تمردوا عليها.

من زاوية ما كانت محقة، أي إن أردنا أن نفكر بمنطقية، سنرى أن الحق معها، ولكن على كل حال، لا شيء يمكنه إقناعي بأن القمري هي أنثى - لم تستطع تحمل زوجها وضاقت به ذرعاً، لأنه لم يستطع كبقية الرجال أن يؤمن لها حياة كريمة - فذهبت وتابعت حياتها مع رجل آخر، زوج جديد، وأسست حياة جديدة، دون أن تقلق على صغارها وما سيعانونه من أزمة عاطفية صعبة عندما ينظرون إلى والدتهم وهي برفقة وحش، ولكن دون قرون وذيل، أتت معه وبنت لها عشاً فوق غصن الشجرة المواجه لهم.

حسنا، هذا الأمر ينطبق أيضاً على ذكر القمري، أي كم سينزعج صغاره من أن والدهم قد تأبط ذراع امرأة أخرى، وأخذ يداعبها على مرأى منهم، ولكن تبقى مسألة الأم أمراً آخر، فلا يمكن أن يتقبلها المرء بأي شكل، أي أن يرى أمه في أحضان رجل آخر، فما بالك بأن يتقبلها طائر القمري، فهو في النهاية ليس لديه تلك التعقيدات التي نملكها نحن بني البشر، فلا تجلس النسوة أو أزواج خالاته تخبرن عنه الشائعات.

عندما رفعت باب المقهى كاملاً نحو الأعلى، أمسكت جثة الطائر أخذتها ووضعتها فوق الرف الحجري أعلى الشومينه، ولم يخطر لي قط من باب الفضول طبعاً أن أفتح بين ريشه أو أجنحته فألقي نظرة عليه، وكنت أنظر إليه بين الفينة والأخرى عندما أفرغ من العمل، وأتحسر لماذا لم أترك باب المقهى مفتوحاً ليلة أمس فينسل إلى الداخل، فلو استطاع أن يدخل لربما كان قد جلس في نفس المكان الذي وضعت فيه جسده الآن وأخذ يدردش مع نفسه.

قرب الظهر، وصلت وردة الضفيرة، اصطحبتها إلى أمام الشومينه، وأريتها جثة الطائر، وقصصت عليها ما حدث، فجأة احمرت عيناها، كان واضحاً أن قلبها يتألم لحال هذا القمري اليتيم لأنها سألتني: والآن، ماذا سيحل بصغاره يا أبي؟

قلت: وما يدريني يا صغيرتي.

ولكن سرعان ما اعتراني الندم لأني نعتها بالصغيرة، لذالك استدركت قائلاً: اعذريني، عندما أقول لك يا صغيرة فلست أعني أنك لا تفقهين شيئاً.. إنما هي عادة كبار السن يحبون أن يقولوا كلمة صغير لكل ما يصغرهم عمراً حتى يظهروا لهم كم هم كبار.

سألت: ألن يذهب أحد ليعتني بهم؟

أجبت: لا بد أنهم كبار إلى الحد الذي يخولوهم الاعتناء بأنفسهم،.. وإلا فإن أمهم لن تتركهم في أمان الله وحسب!

قالت: ولكنك قلت إنها كانت تبحث لهم عن مكان دافئ.

لم أعرف ماذا أقول لها، لا بد أنها ستبقى الليل كله تفكر في صغار القمري، لماذا لم تعد أمهم إليهم فلا أحد عندهم، لذا تداركت الأمر وقلت لها: تعالي ولنقم لها مراسم عزاء رسمية، موافقة؟.

دخلتُ البار وأخذت شيئاً يمكننا أن نحفر الأرض به، طلبت من وردة الضفيرة أن تجلب القمري من على رف الشومينه إلى الخارج، بالقرب من الحديقة الصغيرة المقابلة للمقهى، الموجودة على ممر المشاة، وأن تبعد الثلج، وتحفر الأرض ليس كثيراً فقط ما يكفي لتتسع جثة القمري فيها،

فتضع القمري باحترام داخلها، ومن ثم تضع التراب فوقه، وأن تخبرني حالما تفرغ مما طلبت منها، لنذهب معاً أعلى رأسه حيث دفناه، وندعو له معاً أن يدخله الله الجنة.

حينما عدنا للداخل، أخذت وردة الضفيرة تحف أسفل حذائها بالدعاسة أمام مدخل المقهى لتزيل الطين العالق عليه، سألت: الآن، من أين لك أن تعرف أنها كانت أمهم؟

قلت: لست متأكداً، خمنت وحسب.

قالت: ربما كان والدهم.

قلت: ربما.. لنذهب إلى الداخل.

الهيئة العامة السورية للكتاب

تابعي عملك يا
أنستازيا ورتينس كايا

أمام عتبة مدخل المقهى وُضِع قفص حديدي ضخم سقفه مدور، وكان بديهياً أنه وُضع هنا منذ ما يقرب الثلاثة أيام دون أي تفسير، وكأنه ملك للمقهى دون أن أحيط علماً، قلت لنفسي: لابد أن أحدهم قد وصّى عليه ليصنعوه له، ولكن عندما أرادوا أن يسلموه له أخطؤوا العنوان، ووضعوه هنا أمام باب المقهى، فأرقام البيوت في هذا الشارع حيرت وأعجزت الجميع معها.

كنت قد أنهيت كل واجباتي اليومية التي أنجزها كل يوم أول الوقت، وكأنني آلة صُممت لذلك، وجلست ألعب بلعبة اشتريتها مؤخراً، تحسباً في حال حضر طفل إلى المقهى فأعطيها له ليتسلى بها، فلا يمل بين هؤلاء الكبار الذين ينشغلون بكلامهم الكبير الذي لا يعود عليه بطائل؛ اللعبة عبارة عن علبة مدورة سقفها مطاطي،غطاء بابها أحمر غامق، في داخلها معبر دائري الشكل أشبه بمعابر متداخلة، مع كرة حديدية صغيرة، وعليك أن تحركها بين اعوجاج واستقامة لتذهب الكرة إلى مركز الدائرة، وتسقط في حفرة أُعدت في وسطها، لتنهي اللعبة، ولكن مهما حاولت لم أتمكن من أن أجعل الكرة تسير في مسير مستقيم ودائم، فقد كانت تقع من حظي العاثر في المكان الخطأ، ويطول الحال بي لأضعها في مكانها الصحيح، لذلك قلت لنفسي: لم تتمكن يوماً من أن تجعل شيئاً في مكانه الصحيح، لذا لا تتأمل خيراً أيضاً من هذه اللعبة.

بدأ الملل يتسلل إلي بهدوء، إلى أن بدأ الزبائن بالوصول واحداً تلو الآخر، فاضطررت لأضع اللعبة جانباً في الزاوية، وأنهض من مكاني فأحضر آلة صنع القهوة وبقية الأشياء وأضعها في مكان قريب مني أو أن أبدأ بالعمل عليها.

لم أتوقع كل هذه الزحمة في مثل هذا الوقت من الصباح في اليوم الأول من الأسبوع، وكأن الزبائن قد اتفق بعضهم مع بعض ليتدفقوا إلى المقهى ويفعلوا شيئاً يجعلني أضيع يميني من شمالي، ولم أدرك ما يجري إلا عندما دخلت صفورا إلى المقهى، غيّرت مكان الطاولات ليتسع لها المكان في وسط المقهى، من ثم خرجت من المقهى وبمشقة كبيرة أدخلت القفص الحديدي الضخم ووضعته هناك، ودون أن تتحدث معي أو مع غيري أو أن تلتفت إلى الحاضرين، فتحت باب القفص ودخلت فيه وجلست وأقفلت على نفسها باب القفص بقفل جميل قديم كانت تحمله في يدها، من تلك الأقفال القديمة التي كانوا يغلقون بها الأبواب الخشبية، بسيطة للغاية ولكن حجمها كبير يقولون لها (كلون).

إنه يوم السبت، يوم الأداء، لم تخبرني أي شيء عما تنوي فعله عن تحفتها الفنية، لذا فضلت ألا أضايقها، وأن أتركها وشأنها، أي لم أتقدم نحوها لأسألها ماذا تفعلين أيتها الفتاة؟، بالتأكيد هناك حكمة مما تفعل، وإلا لن تطلب من أحد أن يصنع لها قفصاً بهذا الضخامة، فتأتي به، وتضعه وسط المقهى، وتجلس بداخله صماء بكماء، تتصنع الحزن، وكأنها لا تريد أن تكون في داخله، والآن هي كذلك، وما عليها إلا أن تجلس وتحزن.

على أية حال، كان تعداد الزبائن يزداد أكثر فأكثر، وكانوا عندما يصلون إلى المقهى ويفتحون بابه يسمحون لنسمات الهواء الحية أن تدخل معهم، يتأملون صفورا بتعجب ويشيرون إليها ليراها الآخرون.

واحدة من تلك الزبائن كانت فتاة ناعمة الحجم، سمراء غامقة، غارقة في زينتها وتبرجها، ولم يكن لديها أدنى فكرة عما يحدث في الداخل، وكانت المرة الأولى التي تأتي فيها إلى المقهى بصحبة صديقاتها الثلاث اللواتي يشبهنها، جاءت إلى وسألتني بلهجتها الطهرانية، أي إنها كانت تمد إلى ما استطاعت الكلمة الأخيرة من جملتها لتظهر أنها طهرانية، سألت: لماذا هذه المرأة هي في القفص؟ سألت وكأنها قلقة عليها، وحالما سألتني، عادت وأمعنت النظر إلى صفورا ولجزء من الثانية لم تنتظر جوابي، أي بعد أن تأملتها قليلاً، ذهبت إلى جانب القفص، وجلست على أرجلها لتتمكن من سؤال صفورا عمن قد أخطأ في حقها لتضع نفسها في القفص، أم هل هي تظهر اعتراضاً حول شيء أو من شخص ما؟!.

قالت لها صفورا: هل من الممكن أن تذهبي إلى منزلي وتحضري لي المفتاح؟

أجابتها الفتاة وهي في حالة من الحيرة والتعجب لا تدري ماذا تقول أو ماذا تفعل: ولكنني لا أعرف أين هو منزلك؟

أعطتها صفورا عنوان المكان، كان في المناطق الشعبية، ويبعد على الأقل عن المقهى مسافة ساعة كاملة.

قالت لها الفتاة: لا يوجد أحد في منزلكم لأتصل عليه؟

عندها أخبرتها صفورا أنها تعيش وحيدة وليس هناك من أحد سيرفع سماعة الهاتف ويجيبها، ناهيك عن هذا، منزلها ليس فيه هاتف.

لا بد أن الفتاة قد ظنت بأن صفورا مجنونة ومختلة أو شيء من هذا القبيل، لأنها أخذت تضحك من كلامها، ومن ثم نهضت وتوجهت نحو البار وسألتني: ما الأمر، هل أنتم تسخرون منا؟.

ومن جديد مدت آخر كلمة.

قلت: لا، ولكن أنا أيضاً لا أعرف ما الذي يجري هنا.

سألت: يعني لا تعرف لماذا هي تفعل هذا؟

قلت: من أين لي أن أعلم، جاءت فجأة أبعدت الطاولات من وسط المقهى، ووضعت نفسها في القفص كما ترين، وذهبت داخله وأقفلت على نفسها.. وكأن المفتاح ليس بحوزتها.

قالت: حسناً لماذا لم تمنعها؟

قلت: كيف كان علي أن أمنعها؟ بصراحة، لماذا يجب علي ذلك؟

سألتها هذا بجدية تامة جعلتها تفكر أي خطأ جسيم قد ارتكبت بطلبها أن نوضح لها شيئاً واضحاً، هذا ما جرى، ذهبت وجلست إلى صديقاتها بهدوء، كانوا ينظرون إليها بفضول لتعود إليهم فيسألونها ما هي القصة؟ فهي من ذهب وحقق في الأمر.

كانت المسافة كبيرة بين المكان الذي جلسوا فيه وبين مكاني حيث أقف في البار كنت أعد بالخفاقة اليدوية كأسين من البوظة، لذا لم أتمكن من أن أسمع ماذا كانت الفتاة تقول لصديقاتها، أضف أن الأمر ليس جذاباً بالنسبة إلي أن أركز سمعي مع الآخرين لألتقط ما يقولون، عمل في الحقيقة أقدم عليه أحياناً من ثم أستاء من نفسي بأنني استمع خفية إلى كلام الآخرين الذي قد لا يرغبون أن يسمعه أحد، ولكن المقهى أحياناً تجعلك دون قصد أو انتباه تستغرق مع الآخرين في أحاديثهم وعندما تعود إلى رشدك أو يطلبك أحد إلى طاولته، أو ينزلق شيء من يدك فينكسر، عندها تفهم أي عمل قذر كنت تقوم به وكم أنت وضيع لتقف أو تجلس مثل النمامين تستمع لحوارات الآخرين دون علمهم.

كنت أخبركم كيف أن الفتاة كانت تقص على صديقاتها المفاوضات التي جرت بينها وبين صفورا، ولكن لم أكن لأسمع ما قالت، على كل حال، فهمت من ضحكتهم الجماعية الخجولة أنها ربما أخبرتهم أن هؤلاء جميعاً مجانيين، أو شيء من هذا القبيل، وإلا، لم يكن من داعٍ لضحكة كهذه، فالضحك لا يجب أن يكون دائماً من منطلق السخرية، بل قد يكون طريقة يظهر فيها المرء تعجبه.

كنت قد أنهيت لتوي ما كنت أعمل عندما اتصلت وردة الضفيرة وقالت عدد لي تسع كلمات يكون فيها حرف الخاء.

قلت: يبدو أنك تملكين الكثير من أوقات الفراغ يا وردة الضفيرة؟

قالت: أبي لا تكن هكذا هيا وقل لي؟

وبينما كنت أملأ آلة القهوة بالقهوة، والتلفون على كتفي ملتصق بأذني قلت لها: يعني ألا تستطيعين أن تذكري عشر كلمات فيها حرف الخاء؟

الهيئة العامة السورية للكتاب

قالت: تسع كلمات.

قلت: حسناً، تسع كلمات.

قالت: بلى أستطيع، ولكن لا ينبغي أن يكون الخاء أول حرف في كل الكلمات، فيجب أن تكون الخاء في وسط بعضها، وفي آخر بعضها الآخر، وإلا فهي قادرة على صياغة الكثير من الكلمات التي تبدأ بحرف الخاء، وأخذت تعدد بعض الكلمات بسرعة، حتى وصلت إلى كلمة ديك (خروس) فقرأت لي بيتاً من الشعر حفظته من الروضة، إذ أراد معلمهم أن يعلمهم الأبجدية، فألف لهم هذا الشعر الخاص بحرف الخاء: «الخاء أول حرف في خروس الدجاجة له عروس»، كنت كلما سمعته ضحكت، وأطري على ذوق معلمهم الذي استطاع أن يكتب شعراً كهذا لحرف الخاء ليعلمهم معنى كلمة ديك وفي الواقع علمهم معها كلمة دجاجة أيضاً.

قلت لها: سخن: كلام، سخت: صعب، سخاء، الخاء في الوسط، وشوخ: مزاح، وشاخ: قرن، وكاخ: قصر، الخاء في نهاية الكلمة، فقال: أنها لم تتعلم بعد حرف الكاف، ولذا علي أن أعطيها كلمة بديلة عن كاخ: قصر، فكرت وقلت: ميخ: مسمار.

شكرتني وأقفلت الخط، ولكن لم يمض الكثير من الوقت حتى اتصلت وسألت: ماذا يعني كلمة سخافة يا أبي؟

قلت: ليست سخافة بل سخاء وشددت حرف الألف بحيث تنتبه له، وأوضحت لها مع أن كلمة سخافة ذات معنى إلا أنها لم تقرأ حرف الفاء بعد، فلتنس أمره ولا يلزمها أن تعرف معناها في الحال، لأني كنت مشغولاً جداً ولا أستطيع أن أجيبها على نحو يرضيني، فالسخاء يعني البذل والعطاء.

كنت أضع الجوال أمام هاتف قديم ماركة زيمنس - من تلك الهواتف الكبيرة والثقيلة التي تعطيك حافزاً عندما يكون هناك مشاجرة، فتهوي به على فم الشخص الذي تتشاجر معه، وكنت أفكر الآن حقيقة هل كلمة سخافة ذات معنى أم لا؟ اقترب من البار أحد الزبائن كان شاباً طويلاً ونحيفاً، يده مضمدة بشكل خاص، بحيث قد تعتقدون أنه ملاكم أو مصارع أو شيء من هذا القبيل أو أتى الآن لفوره من الملعب، وقد أخرج للتو يده من قفازات الملاكمة، سألني: عفواً، هل أستطيع أن أسألك ما هو هدف هذه الفتاة من دخولها القفص؟

رفعت يدي نحو الأعلى، وكأنني أقبل بخسارتي مسبقاً أمامه، وألقيت منشفتي على أرض الحلبة، وقلت: لماذا لا تسألها هي؟.

قال: ليس هناك من مشكلة؟.

قلت: أي مشكلة؟ لا بد أنها دخلت القفص ليسألها أحدهم لماذا فعلت ذلك؟

نظر إلى صديقته وكأنه يستأذنها للذهاب والسؤال، توجه نحو صفورا، وجلس على الكرسي، وسألها عن هدفها من الدخول إلى القفص.

نظرت إليه صفورا قليلاً، ولم تقل شيئاً، أريد القول نظرت إليه، فظننت لعلها الآن تقول له: وما شأنك أنت أيها الرجل بأنني دخلت القفص، اذهب ودعني أكمل عملي.

ولكن بعد وقت قليل سألته: هل يمكنك أن تحضر المفتاح لي إن أعطيتك العنوان؟ دخلت إلى هذا القفص اللعين والآن أنا نادمة،.. لم أكن أعتقد بأنني سأندم بهذه السرعة، وإلا كنت حملت المفتاح معي وأحضرته إلى هنا، الشاب الذي ساورته الشكوك، ضحك ضحكة لطيفة وسألها: ماذا يعني بأنك لم تفكري بالأمر، في النهاية لا بد أن تخرجي منه؟

قالت له صفورا: من المفترض أن تجلبه أختي لي في تمام الساعة الحادية عشرة ليلاً، ولكن إلى ذلك الوقت لا بد أنني سأختنق، هل حدث أبداً أن كنت في مكان ضيق كهذا، وكذلك لساعات عدة؟

الشاب: حسناً يمكن الاتصال بها؟

أعرضت صفورا عنه وكأنها أرادت عتابه على ما قال وقالت: أين هو هاتفنا؟ اذهب، اذهب واحتسِ قهوتك، أنت لم تأت إلى هنا للمساعدة، أتيت لتسخر مني.

نهض الشاب الذي اعتراه الخجل الشديد، ذهب وجلس خلف الطاولة التي تجلس إليها صديقته كانت في عمره تقريباً، أقصر منه وترتدي معطفاً خمرياً قصيراً وضيقاً، حمل الشاب كأس ماء الشعير بين يديه وشربه ومن ثم بدأ يمضغ حبات الزيتون التي أضعها عادة في قعر الكأس في حال أراد أحدهم أن يغير طعم فمه، وإلى أن انصرفوا من المقهى متشابكي الأيدي، لم يعيروا صفورا أي اهتمام أبداً.

بمرور الوقت بدا وجود صفورا داخل القفص أمراً طبيعياً بالنسبة للزبائن، إلا هذا أو ذاك ممن كانوا يصلون لتوهم، وكأنه لا وجود للقفص في المقهى، وكأن الفتاة ذات الفم والشفاه النادرين، التي يود قلبك أن تضحك لك إلى الأبد وأن تجلس أنت أيضاً وتتأملها إلى الأبد، لا تجلس في

داخله وتغلق الباب على نفسها، بدت وكأنها يئست ولم تعد تريد من أحدهم أن يذهب ويجلب لها مفتاح القفص من البيت، وأنا الآخر انشغلت بعملي، أو كنت أضع القهوة على الطاولة، أو آخذ الفناجين الخالية التي عليها إلى المجلى، فعلي أن أغسلها بنفسي اليوم، لأن وردة الضفيرة نوبتها تبدأ في العصر، وعلى الأغلب ستأتي إلى المقهى قريب الغروب بدلاً من أن تأتي قريب الظهيرة، ولربما ألغت نوبتها باتصال هاتفي تخبرني فيه أن الظلام قد حل، وتفضل البقاء في المنزل لتنجز واجباتها المدرسية.

وضعت في جهاز الموسيقا قرص الأغاني الروسية، التي كنت أحبها جداً على صوت منخفض، ليغطي على أصوات الزبائن، هؤلاء الموجودات كم أحب أصواتها، أنا لا أفهم شيئاً مما يقولون، ولكن أغانيهم ملأى ب (p) و(j) والتراكيب التي تتشكل منهما وتستقر إلى جانب الكلمات بحيث تجعلك لا تكترث لشيء، أي كلما استمعت لمغن روسي ودَّ قلبي لو يختنق العالم بأسره أو يبتلى بداء الخناق، فأستطيع أن أغلق عيني واندمج بكليتي مع هاتين (p) و(j) واحدة بواحدة والتي تفيض بها كلماتهم الآسرة.

حقيقة أنا مريض موسيقا الكلمات، ففي أحد المرات ذهبت إلى سينما العصر الجديد ما لا يقل عن اثنتي عشرة مرة، لأشاهد فيلم وايدا، ليس لأهمية أفلام هذا الرجل أو لأنها تستحق المشاهدة لأكثر من مرة، لا، بل لأسمع كيف يلفظ المدبلج في بداية الفيلم اسم الممثلة أناستازيا ورتينس كايا، والذي لأجله عشقتها، وطوال مدة عرض الفيلم كنت متلاشياً في أناستازيا ورتينس بينما كان الجميع منشغلين بما سيؤول إليه حال هؤلاء الشيوعيين البولنديين البله مع عمال الإضراب، وطبعاً كنت أفكر ما أجمل التركيب الموسيقي للحروف المتتابعة في اسم عائلة هذه المرأة، هو جميل

وساحر لدرجة أنها جعلتني أتلاشى واندمج معها بكليتي، وكم كان سيكون رائعاً لو كانت أناستازيا هذه زوجتي، بوجهها المغطى بالنمش، لكنت أستطيع في اليوم الواحد أن أناديها عشرة آلاف مرة هكذا وبدون سبب، وكلما مدت رأسها من المطبخ وسألتني: ماذا، ماذا تريد؟ أقول لها: لا شيء، وودت وحسب أن أناديك، تابعي عملك يا أناستازيا ورتينس كايا، تابعي عملك،.. وطبعاً بشرط أنني عندما أناديها لا تترك عجينة التفاح البولندي من يدها،.. تأتي وتجلس بجواري، وتجمع مئزرها بين قدميها لئلا يصل إلى الأرض، تستفسر لماذا أناديها باسم عائلتها ولا أناديها باسمها فقط أناستازيا.

فجأة بدأت صفورا تصرخ وتضرب نفسها بباب وحائط القفص الحديدي مثل عصفور أسر لتوه، وبصعوبة أدخلوه القفص، كان تضرب نفسها بعنف شديد، وقلت لنفسي الآن ستؤذي نفسها، أمسكت بباب القفص بأحكام بكلتا يديها، وبقوة حاولت أن تفتحه، وهي تصرخ دون توقف: أيها الحقيرون.. لماذا لا يذهب أحدكم ويجلب لي المفتاح؟ ألم تشربوا قهوتكم؟ حسناً، اغربوا من هنا..

في البداية تملك الزبائن الخوف، فنهضوا قليلاً عن مقاعدهم، ونظر بعضهم إلي وكأنهم يريدون القول أنت المسؤول عما يحدث، بعضهم الآخر تملكه الخوف وكأنها المرة الأخيرة التي ستطأ فيها قدمه مقهى البيانو، فالمقاهي ليست بقلة ليأتوا إلى هذه المزرعة ويشعروا بالإذلال، نهضوا واحداً تلو الآخر، وغادر أكثرهم المقهى.

مع هذا لم أهتم بما فعلوا وتظاهرت باللامبالاة، ورفعت عمداً من صوت المغني الروسي أكثر، فالأفضل أن أصغي لكل هذه الـ (p) و(j) التي كانت تضيع مني واحدة تلو الأخرى دون أن أستمتع بها تمام الاستمتاع بها في وسط هذه المعركة التي أحدثتها صفورا.

الحق معك، كان عليّ
أن ألقي نظرة

كانت صفورا ما تزال في القفص، ولم تلمس كأس الماء، ولا صحن الحلوى الذي كنت قد وضعته لها داخل القفص، كانت تبدو مثل أغلب يومها، حزينة، ميتة القلب، عبثية، ولم تسمح لأي أحد أن يذهب بإرشاد منها، فيحضر لها المفتاح.

رويداً رويداً أخذ المقهى يصبح خالياً أكثر فأكثر، ومن بين الجميع فضل السيد باربد وأمه أن يبقوا إلى هذا الوقت من الليل، وكل مدة من الزمن ولمرة - حسب الضرورة- كان يقول أحدهما للآخر شيئاً، ثم يغرق كل منهما في تفكيره، ودون أن يشيح بعضهما بنظره عن بعض، كانا كل عشر إلى خمس عشرة دقيقة يتناول أحدهما سيجارة ويدخنها.

لقد أعجبتني، ففكرت ملياً، ورأيت أنه لطالما بحثت عن مثل هذا الشخص هنا وهناك، شخص غير متزمت، ويمكن أن تسأله عند تقاطع الطرق وفي زحمة المرور هل تقبل أن تمأمأ معي، ماء ماء؟، وفي تلك اللحظة ينزل زجاج السيارة نحو الأسفل، ويهجم على سائق السيارة المجاورة لنا وأنا على الزبون في السيارة المجاورة لي، وحقيقة مثل الخرفان التي انفصلت عن القطيع في جو ضبابي ومهما حاولت أن تمعن النظر لتجد قطيعها لا تجده، وقلبها يتقطع من الخوف، نفتح أنا وهي فمنا ومن أعماق حلقنا نبدأ بالمأمأة: ماء

ماء، أمر إن اقترحته على بريسما ستنظر إليك نظرة وكأنك اقترحت عليها شيئاً مخجلاً، لا تجيبك بشي فقط تعرض بوجهه عنك، وتنشغل بمشاهدة المحلات التجارية هنا وهناك، ولا تنظر إليك أبداً بحيث تشعر من تلقاء نفسك بالخجل من الاقتراح الذي قد قدمته، من ثم تدلك على فستان ياقته أرنبية في واجهة أحد المحلات وتقول بحسرة: انظر كم هو جميل، كم ياقته جميلة، هل يمكن أن تشتريه لي؟

كثيراً ما أحببت لو أمأمئ، ولكن كنت مجبوراً أن أركب السيارة وحدي وأذهب إلى أحد الشوارع أو مكان ما، أبحث خلف الأضواء الحمراء وفي السيارات التي بجواري عن زبون جلس في المقعد الأمامي، فيستمتع المرء بأن يفهمه أن أنزل زجاج السيارة نحو الأسفل، في تلك اللحظة، وبينما عيونه أصبحت دائرية من شدة التعجب، أمأمئ له.

مثل هذه التصرفات تليق بتلك النساء العجائز الوقورات في تلك السيارات الباهظة الثمن، التي يبدو أزواجهن خلف مقودها وكأنهم السائق الشخصي لهن، يستحقون أعمالاً كهذه، فقلوب أزواجهن ستشعر بسعادة غامرة من أن أحدهم سخر من زوجته ولمّح لها بأنها تشبه الخروف، فلا داعي للتكبر ولتحاول أن تستمتع بحياتها قدر المستطاع.

بحق، إن قلبي يحترق لحال رجالهم، وأود ألا أبخل بمساعدتي لهم بقدر ما أستطيع، فمن الواضح أن حياتهم صعبة، وإن وضعت يدك على ما يؤلمهم حتى وإن كانوا لا يعرفونك، ليس مستبعداً وهم يشرحون لك ما يعانون في الحياة، أن يبدؤوا بالبكاء، ويفضوا لك بمكنونات قلوبهم، فيخبرونك أنهم لطالما أرادوا أن يذهبوا إلى أمام الغاز ويضعوا طرف إصبعهم في الطعام ولكن

زوجاتهن لم يكن ليسمحن بذلك، أو كانوا يرغبون بتناول العجة من المقلاة ولكن زوجاتهن كن يضعنه لهم في صحن زجاجي.

وكلما رأيت أحد هذه الأزواج الغريبة في زحمة السيارات، كنت أدل بريسما عليهم وأقول: يوماً ما ستشبهين تلك السيدة وحتماً، سيطلب إليك أحدهم في السيارة المجاورة لك أن تنزلي زجاج نافذة السيارة للأسفل، وعندما تفعلين ذلك سيفتح لك فمه ومن أعماق حلقه سيقول: ماء ماء.

كانت تسأل من أين لي مثل هذه الأفكار، وأنا من أخبرتها مرة أو مرتين في وقت سبق، أنه كلما وصلت إلى المنزل تشمين رائحة ملابسي لتري هل تفوح منها رائحة السجائر أم لا، ويا له من فعل قبيح أن يشتم المرء ملابس زوجه ليرى هل حنث بوعده له أم لا، ففي كل مرة تمسك بزوجها وقد حنث بوعده يشعر الأخير كم هو وضيع لأنه قد خان زوجته، ودائماً يلوم نفسه، لماذا من بين كل النساء اللواتي خلقهن الله تزوج بواحدة تعد التدخين خيانة، ودائماً - أي عندما ترتدي ملابسك وتذهب إلى الحمام لتنظف أسنانك- تمر من جانب ملابسك بحيث تتمكن خلال مرورها من أن تشتمها فترى هل قمت أيضاً بخيانتها أم لا.

لم يكن السيد باربد قد نهض من مكانه بعد، ولم يكن قد ارتدى معطفه الإنكليزي الباهظ الثمن، وساعد أمه لترتدي هي الأخرى معطفها ليذهبوا، حتى هاتفتني بريسما وقالت: إنها ليست على ما يرام، وتود لو تجلس وتبكي بقلب ملآن، سألتها عن السبب: لماذا.. ما الذي حدث يا ترى؟

أجابتني أن أحد زميلاتها في الصف قد أخبرتها اليوم أن صديقتهم الأخرى - تلك التي تحسبها صديقة لها- هي واشية وتنقل الأخبار لرئيس الكلية، قلت لها: لماذا أنت مستاءة، لا شيء لديك لتخفيه.

كان واضحاً بأنها كانت تبكي بينما هي تحدثني، تبكي بدون صوت، هذا ما فهمته من صوت رفعها لأنفها.

قالت: حسناً، أجل، ليس لدي ما أخفيه ولكنني حزينة لأجلها هي فتاة جيدة، ولكن لماذا يجب أن تكون هكذا؟ أقصد لماذا يجب أن تكون الظروف هكذا فيضطر الناس إلى بيع بعضهم؟.. لو تعلم كم هي فتاة جيدة.

قلت: فلتكن جاهزة لتفهم في وقت ما بأنه من بين كل ثلاثة رفاق أحدهم يكون هكذا، يسيّر حياته بهذا الشكل، فينتخب طريقاً سهلاً وبسيطاً.

صمتت قليلاً، وقالت: هي الآن تدرك ما كان يجري في تلك الأيام التي كنت أعمل بها في المجلة، أو عندما كان لي مجلتي الخاصة، لماذا عندما كنت أعود إلى المنزل كنت دائماً غارقاً في تفكيري، ومهما تحدثت معي لم أكن لأفهم من كلامها شيئاً، ودائماً كنت أعود وأقول لها: لم أفهم.. ماذا قلت؟!

ومن ثم عندما كنت أنهي عشائي، كنت أذهب إلى غرفتي أغلق الباب خلفي وأقول لها: اتركيني لأنام، فلا رغبة لي في أي شيء، والآن هي تفهم لماذا خلال تلك الحياة المشتركة التي حييناها معاً لم يحدث قط أن أظهرنا عشقنا أحدنا للآخر من خلف سماعة الهاتف، وهذا ما جعلها تعتقد بأنني لا أحبها، وإلا فما الداعي لكل هذه البرودة والجدية اللتين كنت أتحدث بهما إليها،.. وبسبب هذا، عندما كنت أعود إلى المنزل كانت دائماً تخبرني بأنني أحب المجلة أكثر منها، لقد كنت أعلم أن الأمر كما تقول - فلا أستطيع أن أحب زوجتي أكثر من عملي - حسناً، وإلا فما الذي جعلني آخذ قرضاً وأخرب حياتها، وطبعاً غفلت هي أن بعض الرجال بأي دليل كان، لا يمكنهم أن يظهروا عشقهم لزوجاتهم من خلف سماعة الهاتف، فلا قدر الله لعل أحدهم جلس

أمام التلفون ليراقبهم، فإن أخذوا يتبادلون الغزل والحديث على الهاتف مع نسائهم، من الممكن أن يسمع ذلك الشخص المترصد، ويخجل من نفسه، فيشعر بالسوء أكثر من نفسه ومن عمله اللعين،... تملكها البكاء، ولكنها ما إن رفعت أنفها نحو الأعلى حتى قالت: أستميحك عذراً، اليوم أدركت ما كنت تقاسي،.. ولم تكن لتقول شيئاً.

كنت أستطيع أن أتخيلها ممددة على الكنبة الحمراء في غرفة الضيوف الصغيرة في بيتها، تلف شريط الهاتف حول أصابعها، وتمسح زاوية عينها من الدمع.

قلت لها: لا تكترثي للأمر، وطلبت منها أن تسكب لنفسها كأس حليب وتشربه، فلا بد أن حليب جسدها قد تحلل مما سبب لها تضخماً في الغدة الدرقية وربما سنفقدها.

ضحكت وقالت: إنه الآن وبالضبط قبل أن تهاتفني قد ألقت علبة الحليب الفارغة في سلة المهملات، وعليها أن تتصل بالدكان ليحضروا لها علبة أو علبتين.

قد كان من المستحيل أن تذهب بنفسها إلى الدكان أو إلى أي مكان آخر لتشتري شيئاً مثل تلك النسوة اللواتي يذهبن من بكرة الصباح إلى بائع الخضراوات أو الدكان ليشترين شيئاً ويضعنه في عربة المشتريات تلك التي تملك أغلب النساء الأرمنيات واحدة منها، وكلما رأيتهن، كن يجررن العربات خلفهن وقد خرج من فوهتها بعض من باقة البصل.

بصدق، إنني عاشق لهذا النوع من النساء اللواتي لا يقبلن ما يشتريه الرجال، وعليهن أن يذهبن بأنفسهن ليفصلن حبات البطاطا التي تبدو

جميعها متشابهة، أو على الأقل عندما أنظر أنا إليها أظنها متشابهة فلا أفهم وجه الاختلاف بينها، ومرة سألتها لماذا لا تستيقظين قبلنا وتذهبين لشراء حاجيات المنزل؟، كانت حجتها بأنها لا تمتلك عربة مشتريات، وإلا ليست مسألة ولا تخشى من الذهاب وقت السحر لتتبضع للمنزل، ومع أنني ذهبت وابتعت لها عربة جميلة، مقابضها ليمونية وطبع عليها صورة كرفس، مع هذا لم تستيقظ قط في وقت الصباح وتذهب للتبضع.

مع أن للأمر متعة لا توصف، أن تخرج صباحاً من المنزل، وتذهب للتسوق، فتملأ العربة بالبصل والبطاطا والليمون الحامض الكبير، وباقة كرفس، وباقة بصل، وثلاث ملفوفات وملفوف بروكسلي، ومن ثم تجر العربة خلفك إلى المنزل، وطبعاً تثير حنق الرجال الآخرين لكونهم لا يمتلكون مثل هذه المرأة التي تذهب بعربتها صباحاً للتبضع وتعود قبل أن يستيقظوا لتعد لهم وجبة الفطور.

قلت لها: ليلة ما، انهضي وتعالي إلى المقهى، ليس أمراً سيئاً أن ترانا وردة الضفيرة معاً.

قالت: قبل أن آتي عليك أن تشغل لي الفنغراف.

قلت: حسناً سأشغله لك، وبالتأكيد احتفاءً بقدومك المبارك سأمنع التدخين في ذالك اليوم في المقهى.

وكأنها تريد معاتبتي قالت: لا علاقة للتدخين بالأمر.

سألت: ماذا تقترح أن أفعل مع صديقتي؟

قلت: لقد عانيت هذه المشكلات كثيراً.

قالت: كيف تعاملت معها؟

قلت: لم أفعل شيئاً تركتها لتحل من تلقاء نفسها، أي كلما نظرت للطرف المقابل كنت أقول في قلبي: ليعفُ الله عن زلاتك، ومن ثم كنت أعرض بوجهي عنه، وانشغل بشيء آخر، لأخرج من رأسي فعله القبيح.

ولكي أبعدها عن التفكير بصديقتها الواشية سألتها: هل طليت اليوم أظافرك؟

أجابت: أجل.

سألت: أي لون؟

أجابت: الذهبي.. أنت لم تشتر لي يوماً اللون الذهبي منه، مع أنني أصريت على الأمر، ولكن دون جدوى.

قلت لا بد أنها قد أصبحت جميلة؟

وكأنها أبعدت يديها عن عيونها مسافة وألقت نظرة على أظافرها الطويلة القليلة الانحناء وأصابعها الممدودة التي يرغب قلبي أن أقتلعها من الجذور في تلك اللحظة التي يكون فيها شريط الهاتف الأسود ملتفاً حولها، لأحتفظ بها فأضعها في إطار صورة أمامي أنظر إليها على الدوام، يا له من مشهد بصري فريد تتجلى فيه حكمة الخالق.

قالت مع تأخير: أجل.. جميلة.

من ثم قالت: إنك مريض بحق الله.

قلت: حسناً، أجل مريض، الآن فهمتِ؟

لطالما قالت لي هذا، فكلما جلسنا إلى طاولة الغداء أو العشاء، أو أي مكان آخر، كنت أغرق في تأمل أصابعها، أو عندما كنا نجلس بعضنا إلى جانب بعض كنت أقول لها: بالله عليك أعطني يديك لأتأمل أصابعك، ودائماً كانت تقول: أنت مريض بحق الله.

تابعت: ..وأنا أيضاً جعلتني مريضة مثلك.

سألت: كيف؟

قالت كلما أردت أن أعرف أحدهم جيداً وسريعاً، أتأمل أصابعه ومن ثم بعد مدة يظهر على حقيقته، ووقتها تدرك بأنني كنت محقاً من أن علينا معرفة الناس من خلال شكل أصابع وأظافر أقدامهم وأيديهم، ولا شيء مثل شكل ظفر الإنسان بالأخص القصّة والانحناءة، يبين لك معدنهم الحقيقي.

وقولهم إنه ينبغي معرفة الناس مما يتجلى أو لا يتجلى في عيونهم محض هراء وكلام فارغ، فالمرء يستطيع أن يظهر بعيونه خلاف ما يضمر، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل بأصابعه، هل يمكنه أن يغيرها؟

سألت: إن كان ما تقولينه حقيقة؟ فكيف لم تعرفي تلك الفتاة الواشية؟

أجابتني أنه منذ البداية أصبحتا صديقتين مقربتين ولشدة لطف الفتاة وقربها من القلب، لم تفكر أنه من الضروري أن تدقق في أصابعها، أو الاتكاء على ما يمكن استشفافه من خلال هذه الأصابع.

قلت: لا يوجد استثناءات، إن رأيتني أنا بنفسي لأول مرة قبل أي شيء عليك أن تنظري إلى أصابعي.

قالت: أمر مؤسف أنه لا يمكن الحياة معك، فأنت تدمر أعصاب الإنسان بألعابك المجنونة، ولا يمكن تحملك.

قلت: حقاً أمر مؤسف، عندما كنت توافقين على الزواج مني كان عليك أن تلقي نظرة على أصابعي، لتعرفي أنت في مواجهة أي شخص مجنون، فتقرري هل يمكننا أن نحيا معاً أم لا.

قالت: أجل، أنت محق، هذا كان خطئي،.. كان علي أن ألقي نظرة عليهم منذ البداية.

الهيئة العامة السورية للكتاب

اللعبة

لم يبق أحد في المقهى إلا أنا وصفورا التي لم تقرر الخروج من القفص بعد، انشغلت بالطاولات وترتيب الأشياء فربما تفهم أن اللعبة قد انتهت، وأن عليها الخروج، ولكن كلما نظرت إليها كانت تبدو حقاً مثل أي وقت آخر كانت تبدو عليه طيلة اليوم، مع اختلاف بسيط بأنها ألفت القفص الآن ولم تعد تريد من أحد أن يذهب، ويجلب لها المفتاح من المنزل، الذي يقع في مكان في جنوب المدينة، ويبعد مسافة كبيرة عن المقهى، لتتمكن من فتح القفل الموجود على باب القفص وتتخلص من ذلك المكان الضيق الذي يجلب العذاب.

أطفأت آلة صنع القهوة، وأنمت مفتاح الفنغراف، ومن ثم أشعلت سيجارة من شدة تعبي، وذهبت وجلست بجوارها، من مكانها في القفص عادت وحدقت في عيوني بحيث كنت مجبوراً أن أُشيح وجهي وأنظر إلى مكان آخر بحجة أنني أريد أن أخرج دخان السيجارة من فمي، فلا يذهب نحوها ويؤذيها، ومن ثم أعود وانظر إليها، فربما أشاحت بنظرها عني، ولكنها كانت ما تزال تنظر إلي بجسارة، حينئذ قلت لها: ليس لديك نية بالخروج؟

قالت: أريد ذلك، ولكنني منذ الصباح ودون توقف وأنا أنادي بأنه ليس لدي المفتاح، لماذا لا يريد أحد أن يصدق ذلك؟

أظهرت أني غير مكترث لها، ألقيت نظرة على ساعة الباندول وقلت: ليس مهماً لم يتبق الكثير لتحل الساعة الحادية عشرة.

ضحكت وأعرضت عني بوجهها، أمعنتُ النظر إلى أصابعها لم تكن ممدودة كثيراً وليست قصيرة وسمينة، أما أظافرها فكانت شديدة الانحناء بحيث انغرست من الأطراف إلى داخل اللحم.

ضحكت مجدداً فهمت أم لم تفهم، وعضت على شفاهها وقالت: بحق هل حقاً صدقت الأمر؟ أين هي أختي أيها الرجل المسكين؟

كنت قد ضحيت باليوم وبحال الزبائن حتى إن بعضهم قد وقع في مشكلة حقيقة اليوم، ولم يتمكنوا من الخروج منها بأي طريقة، تتلخص المشكلة في أنه، إن كان المفتاح معها لماذا لا تخرجه من جيبها لتتمكن من فتح القفل وإن لم يكن معها ما هو واجبي وماذا علي أن أفعل؟

ضحكت بعفوية وقلت: لا بد أن هذا جزء من اللعبة ولكن لا يمكنك أن تستمري بهذا إلى الأبد، هل تستطيعين؟ رفعت حواجبي نحو الأعلى وفي قلبي أطريت على فعلها، فهي لم تكن مستعدة حتى الآن وفي هذا الوقت من الليل أن تكف عن لعبتها، ولذا كانت تريد أن تخيفني وتقلقني وحسب.

غيرت مكانها في القفص واستندت إلى مكان بحيث يكون نظرها موجهاً نحوي بالكامل.

قال: لا، لا يمكن أن يستمر الأمر للأبد؛ لا بد أن ينتهي بشكل ما.

هذه المرة لم أشح بنظري عنها، بل وبدون أي عناء أخرجت دخان سيجارتي نحوها، ونظرت إليها بوقاحة.

سألت: هل شاهدت يوماً مباراة؟

هززت برأسي وقلت: أجل.

قال: كانت جميلة أليس كذلك؟

قلت: تحفة فنية.

قالت: وهذه أيضاً نوع من المباراة في حد ذاتها.

مررت لساني في فمي وسألتها: أتريدين القول: إنني في مكان مايكل دوغلاس، يعني أنك تلعبين معي؟

قالت: تبدو مغروراً للغاية، كان على أحدهم أن يلقنك أن الغرور الزائد على الحد يلقي المرء على الأرض، واثق من نفسك إلى حد كبير.

أدرت رأسي لأعثر على منفضة فوق الطاولة خلفي، فأطفئ السيجارة التي دخنتها إلى النصف، ولكن صدري لم يعد يطيق المزيد من الدخان، أدرت رأسي وظهري لها، وكأنني أظهر لها عدم اهتمامي، وعدم أهمية اللعبة التي كانت تتحدث عنها، مع أنه في الحقيقة كادت مرارتي تفقع منها.

سألتها: ما الذي سيحدث لاحقاً؟

دورت لسانها حول شفتيها بطريقة مغرية خاصة بها من ثم عضت على شفتها السفلى لتبدو وكأنها تفكر لتتذكر، ولكن كان واضحاً أنها تؤخر جوابها عمداً لتعطي لعباراتها زخماً أكبر، وتتركني معلقاً في الهواء أكثر مما أنا معلق الآن، عندها سألت: حسناً.. هل يمكنني أن أخلع حجابي؟.

لا أعلم لماذا ولكنني رفعت أكتافي إلى الأعلى وكأنني أقول لها إنها تفهم ما عليها فعله، كانت هيئتي العامة توحي بهذا المعنى تقريباً ألا تفعل ذلك أفضل، مع هذا فكت عقدة حجابها وأرخته على كتفيها وحول رقبتها.

كانت تسريحة شعرها مثل سوزان هايوارد، كما في أغلب الأفلام التي شاهدتها لها، قصير يعج بالتموجات الكبيرة والمتوسطة، أطرافه ملتفة ودقيقة، لم تخفِ ولم تظهر كامل آذانها الجميلة والممدودة، بدت بهذا الشكل وكأنها مألوفة بالنسبة إلي، وكأنني قد رأيتها في مكان ما في زمان ما.

استغرقت وقتاً لتجيب عن سؤالي لذا كنت مضطراً أن أذكرها بجدية أكبر: لم تقولي ماذا بعد هذا؟

قالت: عليك أن تذهب بنفسك وتحضر لي المفتاح.

قالت كلمة بنفسك وكأنها من الأساس قد خططت للأمر أن أذهب أنا وأحضر لها مفتاح القفص وكل ما شاهدته منذ الصباح لا يعدو كونه مجرد جزء من اللعبة الأصلية.

رفعت نظارتي بظاهر يدي نحو الأعلى ومسحت عيني، أمر اعتدت فعله وكل ساعة أو ساعتين كنت أكرره من جديد، لقد كان مغلوباً على أمري، ولكن لأظهر لها أنها لم تفاجئني قلت: حسناً، كما تريدين، أعطني العنوان.

ونهضت من مكاني لأخابر مكتب التاكسي القريب من المقهى، وأطلب أن يرسلوا إلينا سيارة، ولكن ما إن أمسكت بالهاتف عادت وقالت لي: إن المكان الذي يجب علي أن أذهب إليه لأحضر المفتاح ليس بعيداً من هنا، وإن أردت أن أذهب سيراً على الأقدام فالمسافة قريبة من المقهى إلى بيتها، فأذهب وأحضر لها المفتاح الذي سقط سهواً من يدها في أحد حفر حمالة صدرها الزهرية اللون الموجودة في خزانة ملابسها، تلك الحمالة التي اضطرت لخلعها قبل أن تأتي إلى المقهى حتى لا قدر الله لا تشعر بالاختناق والضيق داخل القفص أكثر مما توقعت.

أحقاً لم تسمع عن أشياء

لم أظهر لها شيئاً ولكن انقلب حالي رأساً على عقب، فلم أفهم ما حل بي، بسهولة وحنكة زحفت إلى المقهى زحفت بهدوء وبطء تحت جلدي وبوقاحة تقدمت نحو الأمام جاعلة حرارة جسدي تزداد أكثر فأكثر.

من مكاني في البار ومن أمام سماعة الهاتف سألتها: أين هو منزلك؟

أخرجت يدها من بين أعمدة القفص وأشارت إلى مكان خارج المقهى وقالت: هو ذاك في الطرف المقابل، ذلك البناء الآجري، الطابق الثاني، الشقة المطفأة الأنوار.. هذا هو.

ذهبت أمام النافذة وحدقت إلى المكان الذي أشارت إليه، وأرتني إياه، كانت هي بذاتها، تلك الفتاة الوقحة التي تلبس الصدرية البرتقالية والبنفسجية، وحالما كانت تراني قد أتيت وجلست خلف الطاولة المجاورة لنافذة المقهى، وأينما كانت، كانت تأتي إلى خلف النافذة وتظهر نفسها لي، وترقبني بعينها النسائية الثالثة، إنها هي نفس الفتاة، وإن أردت توصيفها لكم علي القول بأنها تجلس في الجهة المقابلة لبريسما فوق قطعة الغيم البارزة الأخرى، وبطريقة وبأسلوب وقح تقوم بحركات الإغواء.

وعلى خلاف الفستان الزهري الطويل المملوء بالزركشات الذي كانت تلبسه بريسما في ذلك المشهد، هذه كانت تلبس فستان ديكولته أحمر براق ملاصق لجسدها، ولا يمكن وصفه أكثر، من الممكن أن أخبركم كم

هو ضيق، ولكن النظام الأخلاقي للمجتمع لا يسمح بمثل هذا الأمر، طبعاً انتعلت في قدمها حذاءً أسودَ طويل الكعب خاصاً بالحفلات، والذي عندما تضع الساق على الساق الأخرى، أيضاً بشكل لا يمكن توصيفه لكم، وهي تشرب شيئاً لو أمكن الإشارة إليه لكان أفضل فتعرفوا طبيعة إغواء هذه الفتاة، ولكن للأسف النظام الأخلاقي لا يسمح بأمر كهذا، فيحرم المرء من بيان بعض المشاهد التي من الممكن أن تكون غير سارة ولكنها في المقابل تحمل أثراً تربوياً صحيحاً.

الهيئة العامة السورية للكتاب

علاقة صفورا

منذ تلك الليلة التي عنونتها «المشهد الأول من لعبة صفورا» لم تعد فقط تلك الفتاة ذات الفم والشفاه والأسنان الجميلة التي تأتي كل يوم سبت إلى المقهى لتجري أداءً فتجذب الزبائن الجدد إلى المقهى أو تجعل الزبائن القدماء يلوذون بالفرار، لم تكن هذا وحسب بل كانت جزءاً أساسياً من المقهى، وأغلب الظن واحدة من تلك النغمات السوداء للبيانو والتي إن لم توجد فإن شيئاً ليس على ما يرام.

في الحقيقة، في عصر اليوم التالي فتحت باب المقهى وتوجهت إلى البار مباشرة، وبعد أن أطرقتني السلام، سألتني بثقة عالية بالنفس قلما رأيتها في النساء اللواتي أعرفهن، سألت: كيف يمكنني أن أساعدك؟ لم أستطع أن أقول لها: لا شيء، شكراً.

ولم أخبرها إن كانت تريد حقاً مساعدتي، أفضل شيء ممكن أن تفعله هو أن تذهب كأي زبون آخر وتجلس خلف الطاولة وتوصي بما تريد قهوة أم أي شيء آخر لأعده لها، ما أريد قوله: إن الطريقة التي دخلت بها إلى البار وكيف علقت حقيبتها على علاقة الملابس الخاصة بنا، كأنها من الأساس ومنذ ابتداء الخليقة هي ملك لها، وكل هذه المدة الماضية أي الثلاثة أشهر التي مضت منذ افتتاح المقهى، كانت منتظرة لتضع عليها حقيبتها الوسخة الطويلة الرباط، ولكنه كان ذنبي أنني لم أعطها ليكتبوا عليها «علاقة صفورا».

تريدون الحقيقة، لم أكن أشعر بالسوء من أن تساعدني بشطيتها وألعابها تلك التي تمنح حياتي هيجاناً، فتخرجني من حالة الروتين والرتابة التي أحياها في حياتي، فتاة مرحة مفعمة بالحياة من جيل الثمانينيات تعرف قيمة اللحظة وخبيرة كيف تلعب معك، هذا ما جرى.

أعطيتها مجموعة من الأوراق، وطلبت منها أن تضعها في ظروف صغيرة مصنوعة يدوياً، وفي الليل سأجلس بنفسي وأضعها في ورق الغراف الذي أعشق اللون الأصفر منه، من ثم أطويها بعضها على بعض وأفتحها على وسعها لأخرج الانحناءات والانكسارات من حالة الرتابة وشكلها المزعج، فتصبح كل ورقة تحفة فنية بحد ذاتها، وعندما أعطيها لهم يرتاح بال المرء من أنه لا يوجد من هذا الظرف إلا قطعة واحدة، وهذه القطعة هي ملك له.

أخذت الأوراق من يدي، سحبت كرسياً خشبياً رباعي القوائم إلى جانب كانتر البار، وأخذت تضع أوراق التخفيف في الظروف ولم تصل بعد إلى العدد اثني عشر حتى سألت: هل أنت صنعت هذه؟

أومأت برأسي وقلت: أجل، في الليالي التي أكون فيها عاطلاً عن العمل وأشعر بالملل، أجلس وأصنعها بنفسي.

سألت: يعني لا يساعدك أحد؟

أطلت حتى أجبتها، لقد علمت أنها تتقصى عن البيئة الإنسانية في بيتي لتفهم عددنا وأين نقف كل واحد منا، ومكاننا بالنسبة لبعض، لا بد أن هذا يساعدها في لعبتها التي أرادت بجدية أن تستمر بها، فهذه المعلومات تمدها بالعون لتدفع بلعبتها نحو الأمام بشكل أفضل ومدروس.

قلت: هناك من يساعدني، أقصد وردة الضفيرة التي تساعدني عند قص أوراق الغراف، بمقصها الصغير المخصص لألعابها، وقطعاً هو أفضل من مقصنا، تساعدني إلى أن تتكوم قطعات الورق أمامي، أي هي سريعة للغاية بالقص، فتسبقني أنا الذي أطوي وألصق، وطبعاً تستمتع بالأمر بأنني متأخر عنها، لم أخبر صفورا باسم الشخص لأحيرها وأجبرها أن تفكر أكثر وتتعب أكثر من أجل أن تكمل معلوماتها.

طلب أحد الزبائن قهوة تركية خاجيك لنفسه ولأولئك الجالسين بمحاذاته حول طاولة مخصصة لشخصين، هذا ما جرى، اضطررت للعودة إلى البار، وأن أخرج ثلاثة مقادير من القهوة التركية الموضوعة في زجاجة مدورة لها غطاء، كنت قد وضعت فيها كل أنواع القهوة المعروفة وغير المعروفة ورتبتها بعضها إلى جوار بعض، أخرجت المقدار وصببته في الركوة المعدنية المخصصة لأربعة أشخاص، والتي قلما أحتاج إليها في عملي، فنادراً ما يطلب أربعة أشخاص معاً القهوة التركية، ودائماً ما أعد القهوة الخاصة بي في ركوة مخصصة لشخصين، وقفت أمام آلة صنع القهوة ووضعت الركوة تحت الأنبوب البخاري، ولكن لكثرة تجمع الحليب المحروق من حوله، كنت مجبوراً أن أضع الركوة على الأرض، لأنظفه بالإسفنج الخاص به، فأتناول الركوة بعدها وأضع الأنبوب في داخلها ليتغلغل بخاره الحار إلى حبيبات القهوة ويخمرها.

تحدثت بمحبة أكثر فقد خالت أنها أصبحت أقرب إلي مما كانت عليه بالفعل، لعلها أرادت بهذه الحيلة التقرب مني، لأنها سألت: ماذا تعتقد.. هل ستخسر أمامي؟

قلت: عليَّ أن أفكر أكثر بالأمر.

عندما كنت أمرر الركوة حول سيخ البخار ليتغلغل إلى كل حبيبات القهوة قالت: ما عليك إلى أن تغلي سطحه فقط، أي أن تتركه يشكل رغوة.

قلت: إنني أفعل ذلك.

قالت: من الواضح أن هذا ليس عملك، فلم تخضع لدورة، إنه صعب عليك.

قلت: أجل، هذا لم يكن عملي.

كان رأسها فوق الظروف وكانت منهمكة بوضع الكروت فيها، ومع ذلك تابعت: هذا أمر واضح، لأنك حينما تأخذ أي شيء أو القهوة لتضعها على طاولة الزبائن لا تندمج معهم، ومعظم الوقت تعود إلى البار وكأنك تبحث عن مكان لتختبئ به، فلا تعود بسرعة إلى طرف المقهى وكأنك تخشى من العودة، فترى نفسك تضع القهوة على الطاولات.

اتكأتُ على الكانتر الذي يفصل البار عن المقهى، فهمت أم لم تفهم، وكانت هي تضع البطاقات في الظروف، وضعت يديّ تحت إبطيّ وسألتها: منذ متى وأنت تراقبينني؟

قالت: منذ أن أحضرت العمال لينجزوا لك أعمال المقهى، لحظة رأيتك قلت لنفسي يمكن أن ألعب معك.. أجل.. هل فكرت بالأمر؟

قلت: بماذا؟

قالت: ستخسر أمامي أم لا؟

قلت: أعتقد بأني سأخسر ولكن لا يعني هذا بأنك ستربحين.

سألت: وهل هذا ممكن؟

أجبتها: ألم تسمعيهم يقولون ربح المباراة، ربح وخسارة، خسارة؟

قالت: هذا كلام يضحك به الخاسر على نفسه، اللعبة إما ربح وإما خسارة، وكل ما سبق كلام لا طائل منه.

كان الزبائن منشغلين بالدردشة والحديث، ولم يكن يبدو أن أحداً سيطلب أي شيء في الوقت الحالي، هذا ما جرى، رأيت اللحظة مناسبة لأجرد غليوني من غلافه الجلدي وأبدأ بالتدخين، حينما انحنيت لأفرغ باقي التوتون من المرة الماضية في سلة المهملات قلت: أكثر الألعاب لها ذهاب وإياب واحد، ولكن لبعضها الآخر أكثر من ذلك.

عندما اعتدلت في مكاني بدأت أُخرج بطرف أصابعي قليلاً من التوتون من العلبة وأضعه في حفرة الغليون، ومن ثم كنت أمسده بإسفنجة مخصصة لهذا الأمر لتتراص بعضها فوق بعض، فتعطي نتيجة أفضل، تابعتُ وقلتُ: لم تقرئي عن هذا الأمر أليس كذلك؟

قالت: لا لم أقرأ، ولكن يمكن أن فكر بالأمر، فلكل قفل مفتاحه قد لا يكون في متناول اليد أو قد ضاع ولكن من الممكن أن يعاد تصنيعه أو البحث عنه لإيجاده.

أحدث دخان الغليون مرارة على طرف لساني، وأحرقه، قلت: ولكنك لا تلعبين وحسب.

قالت: الأمر منوط بمن هو الأذكى،.. أضف إلى ذلك، تلعب جاذبية الشخص الذي يلعب معك دوراً مهماً، أليس كذلك؟

إنني مفتون بهذا النوع من النساء، فهن مستعدات للقتال من أجل الشيء الذي قد خططن أن يجعلوه في قبضتهن وهكذا، فإنني أحب أنهن يخبرن الطرف المقابل أنهن قررن اللعب معه، فيتجهز هذا الأخير لئلا يخسر أمامهن، ولكن ما الفائدة؟! فالخسارة أمامهن حتمية؟

والآن، لا يهمني من يقول هذه الأشياء هل هو رجل أم امرأة، ففي كل الأحوال أنا أموت لأجله، وأكن له كل الاحترام، أريد القول، مثل هذا الأمر فيه نوع من القوة، أن يخبر المرء منافسه ماذا سيحل به.

وكأن شيئاً قد خطر على بالها فجأة، لأنها قالت: إن عليها العودة إلى المنزل، ولكنها بالتأكيد ستعود بعد ساعة أو ساعتين لتضع البطاقات في الظروف، فلا ألمسهم إلى حين عودتها.

نظرت إلى ساعتها وقالت: سأعود تقريباً عند الثامنة والنصف، في لحظتها تناولت حقيبتها من على علاقة الثياب وذهبت دون وداع.

لم تكن قد وصلت بعد من الخارج، وبدأت تنفض عن نفسها غبار الطريق، حتى بدأت تفصل وتركب لي على مزاجها، حقاً كبقية النساء اللواتي حالما يفهمن ويشعرن أو يتنبأن أن الرجل قد أصبح في قبضتهن يبدأن التسلق عليه أي يجلسن فوق أكتافه ويدلين أرجلهن من كلا الطرفين حول رقبته بشكل مهين، أريد القول، لا يمكن أن أتخيل أي امرأة - مهما بلغت من الأصالة والبساطة والشفافية - أن تكون مستعدة للتنازل عن هذا الحق الإلهي، فلم يحدث بعد شيء، وتريد أن تصعد على أكتاف هذا الرجل الذي اختارته ليمسك بيدها وتحس بقربه من أنها الآن تمتلك أحداً ما.

على الأقل، لم يحدث إلى الآن أن شاهدت في تلك الأفلام التاريخية أو أي مكان آخر، رجل داخل هودج وأربع نسوة ضخام الحجم يقمن بدور الحادي له، فيسرن به في هذه الجهة وتلك، ولكنني شاهدت لأكثر من ألف مرة ذلك الشخص الذي يزيح الستارة الشبكية للهودج ويلوح بمروحته الورقية للحمالين لكي يقفوا فيتمكن من أن يخرج يده ليأخذ رسالة الحبيب، ذلك الشخص هو امرأة، وامرأة جميلة جداً لديها الكثير من المفتونين بها، حتى إخوتها مستعدون ليحارب بعضهم بعضاً لأجلها، وهي غير مكترثة من أنهم جميعاً مولودون من أب واحد، من رجل مسكين مثلهم، هو الآخر جلست على أكتافه امرأة ما ودلت أقدامها من على رقبته بشكل مهين، أريد القول، بعض الرجال هم حمير لهذه الدرجة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

كم هو أمر سيئ،
أن يكون لكل شخص
حجره الأملس الخاص به

دخلت وردة الضفيرة إلى البار ورأت صفورا عند بار المقهى ترتب الآنية التي غسلتها وجففتها وأخذت ترصفها بعضها إلى جانب بعض، من ثم كانت تضعها في مكانها المخصص لها، سلمت عليها ودون أن تضع حقيبتها في أي مكان، جلست على الكرسي أمام كانتر البار، وأخذت تنظر إلى صفورا، التي ردت عليها سلامها، وكانت ما تزال منهمكة بترتيب الفناجين فلم تظهر الكثير من الاهتمام لوردة الضفيرة، وكأنهما ليستا غريبتين بعضهما عن بعضٍ، وكلاهما قد تقبل الآخر منذ وقت طويل، ولكن وردة الضفيرة كانت تنظر إليها على نحو كان واضحاً بأنها تتساءل في نفسها ماذا تفعل هذه السيدة في مقهى والدي؟

نادتني بهدوء تام وقالت كلمة أبي بطريقة أفهم فيها أنه ينبغي لي أن أذهب إليها وأقرب رأسي من فمها لئلا تسمع صفورا شيئاً لا سمح الله، سألت: هذه السيدة ماذا قلت اسمها؟

أجبت: صفورا.

سألت: ألديها أداء؟

أجبت: اليوم ليس السبت

وردة الضفيرة بانزعاج واضح: لقد خمنت بأنها لا بد أنها تلعب.

قلت: لا، هي في الواقع تساعدني.

سألت: يعني ألن آتي بعد الآن لأغسل لك الصحون؟

أجبت: من قال هذا، ما زال هذا باري، وأنت الأساس.

سألت: هل تعطيها راتباً؟

أجبت: حتى الآن لا، ولكن إن استمرت في العمل ورأيتها تعمل بجد، يعني إن كانت شخصاً يدرك معنى المسؤولية، عندها سنوظفها.

طوال المدة التي كنا نتحدث بها لم تشح بنظرها عن صفورا ولو للحظة، سألت بحزن: هل أنت طلبت منها أن تساعدك؟ حسناً، لقد كنت آتي أنا وأغسل لك لصحون.

قلت: لا، هي من أرادت ذلك،.. قالت: إنه لا عمل لديها، وتمل من المنزل،.. فإن لم يكن هناك من مشكلة، أن تأتي لمساعدتي لبضعة أيام، وأنا قبلت مساعدتها لئلا تمل من قلّة العمل.

ثم، وضعت رأسي على أذنها وقلت لها هامساً، بعضهم عندما يبحث عن عمل هكذا يتقدم بطلبه للآخرين، بدلت مكان حقيبتها على كتفها وقالت: أعطني نقودي أريد أن أذهب.

قلت: لكنك لم تغسلي اليوم شيئاً.

قالت بقلب متألم: حسناً، هذا ليس من شأني، إن كنت لا تريد أن تعطيني النقود، فستغسل لك هذه السيدة الصحون.

هذا ما جرى، أدخلت يدي في صندوق المال ومن بين كل القطع النقدية الوسخة والمهترئة والسيئة الشكل، أخرجت لها ألف تومان، جديدة ونظيفة ووضعتها في راحة يدها، في تلك اللحظة التي مدت يدها نحوي ولم أكن بعد قد أسقطت النقود في يدها لتضعها في جيب حقيبتها، انضمت إلينا صفورا، أقبلت نحو وردة الضفيرة وسألتها: يا للسرعة التي ارتديتِ فيها شالك وقبعتك يا سيدة السيدات.

قالت وردة الضفيرة: ليس هناك من عمل لأقوم به، فلقد غسلتها أنت للتو.

قالت صفورا: اعذريني، بحق الله، لم يخبرني أحد أن هذا العمل هو لك.

من ثم أقبلت نحوي وقالت بجدية: ابتداءً من الغد من المستحيل أن ألمس الفناجين أعطني عملاً آخر لو سمحت.

حينما سمعت وردة ما قالته صفورا سرها الأمر، صفورا الأخرى لم تقف مكتوفة اليدين، خرجت من البار وجلست على الكرسي وسحبت وردة الضفيرة إليها، أخذت رأسها بين راحتي يديها، قبلت وجهها وقالت: أتقولين لي ما اسمك؟

أجابت وردة: يعني ألا تعرفين؟.

قالت صفورا: من أين لي أن أعلم، فوالدك هذا لا يفصح للمرء عن أي شيء.

خلعت وردة الضفيرة القبعة عن رأسها وقالت: وردة الضفيرة.

قال صفورا: يا له من اسم على مسمى، إنه يليق بك كثيراً.

هذا ما جرى، خلعت وردة حجابها أيضاً، وأرتها الخصل الذهبية في شعرها وسألتها: هل ترين هذه؟

تلمست صفورا شعر وردة، وأخذت قبضة من شعرها الأسود بين يديها كانت القبضة ملأى أيضاً بالخصل الذهبية في داخلها، وسألتها: أمر مثير، هل هذه طبيعية؟

عندما سألتها ضربت بنظرها نحوي، قلت: أجل، ورثتها عن أمها.

عندما سمعت هذا أبعدت وردة من بين قدميها إلى الخلف قليلاً، ونظرت إلى شعرها كاملاً، وقالت: إن لم يكن المرء يعرف، فسيظن أنك أعطيته لأحد ليشقره لك،.. إنه جميل جداً يا وردة، يا ليت شعري أنا أيضاً كان هكذا، لم أكن لأعطي نقودي وقتها من أجل التشقير، ضحكت لوردة الضفيرة، فبانت من جديد أسنانها اللؤلؤية الجميلة التي تجعل المرء يذوب بها، من ثم قالت: وأنا لدي طفلة في نفس عمرك.

سألت وردة: ما اسمها؟

أجابت صفورا..«صفا» علي أن أحضرها يوماً ما لتتعرفي إليها.

من جديد وضعت يدها في شعر وردة، ولعبت بالخصل الذهبية.

سألتها وردة: بالله عليك، هل ستحضرينها؟

قال صفورا: حسناً، أجل يا عزيزتي، ولماذا لا أحضرها؟

سألت وردة: متى؟

رفعت صفورا أكتافها نحو الأعلى وقالت: لا أعدك بأنني سأحضرها بالقريب العاجل، لأنها تعيش في مكان آخر.. مع والدها.

أدارت وردة رأسها نحوي وقالت: أمر مثير للاهتمام، كحالنا أنا وأنت.

من جديد نظرت لصفورا وسألتها: كم عمرها؟

رتبت صفورا شعر وردة وقالت: قلت لك.. يجب أن تكون بمثل عمرك.

كم عمرك أنت؟

قالت وردة: سبع.

قال صفورا: وهي أيضاً عمرها سبع سنوات، أقصر منك، وأسمر منك قليلاً.. تشبهني، في تلك اللحظة تركت يدي وردة اللتين كانتا بين يديها، وألقت نظرة على قفازاتها، وكأن الحماس قد أصابها لرؤيتهما، قالت: يا إلهي كم هي جميلة هذه القفازات؟!

ألقت وردة نظرة عليهما وكأنها تفتخر بنفسها يا بأمها قالت: هذا من صنع أمي.

سألتها صفورا: هل يمكن أن تسأليها من أين اشترتها لك لأشتري أنا أيضاً مثلها لابنتي صفا؟ كم غرزتها جميلة وكم هي ناعمة!

هزت وردة الضفيرة رأسها وقالت: لم تشترها لي من أي مكان، لقد حاكتها لي بنفسها ماما بري.

سألتها صفورا: اسم أمك هو بري؟

قالت وردة: لا، اسمها بريسما، ولكننا نناديها أنا وأبي، ماما بري.

قالت صفورا: لن أستوقفك أكثر، وكأنك أردت الذهاب إلى المنزل.

من جديد قبلت جبينها، وقالت لها أن تتريث قليلاً لترى ما لديها في جعبتها لتعطيه لها، في اللحظة نفسها نهضت ودخلت إلى البار، وبحثت في

حقيبتها عن شيء ما، من ثم عندما أخرجت يدها من الحقيبة كان في يدها بوظة شتوية، من مكانها خلف كانتر البار انحنت فوق الكانتر ومدت ما في يدها إلى جهة وردة وقال: هيا خذيها.. لدي اثنتان منها، وواحدة منها هي لك.

نظرت وردة إلي على نحو أرادت فيه أن تفهم من نظراتي هل هو مسموح لها أن تأخذها أم لا، وأنا بدوري أفهمتها من خلال حركة رأسي أنه إن كانت ترغب بها فلتأخذها، هذا ما حدث، تقدمت نحو الأمام وأخذت البوظة من يد صفورا.

وبينما ما تزال حقيبتها على كتفها فتحت سحاب الجيب الإضافي ووضعت البوظة داخله ثم أغلقت السحاب، شكرت صفورا، ارتدت حجابها، وقالت: ليس لدينا بين زميلاتي في الصف أي فتاة اسمها صفا، على الإطلاق، لا أظن أن هناك في مدرستنا أحداً اسمه صفا.

سألتها صفورا: أخبريني.. اسمك يكتب منفصلاً أم متصلاً؟

قالت وردة: هناك اختلاف في الرأي حول هذا.. لكن أبي يقول تكتب منفصلة.

تقدمت في لحظتها نحوي فحسب طقوسنا المعتادة يجب علي أن أرفع حجابها نحو الأعلى وأُقبّل أرنوبة أذنها، وهذا ما حدث، اضطررت للانحناء بشدة فوق طاولة البار لأستطيع تقبيلها، من ثم ودعتنا دون أن تنظر إلينا.

قالت صفورا: كم هي فتاة مليحة، عندما تكونان معاً يتبادر إلى الذهن كريمر ضد كريمر، فلو وقفتم أمام بائع عصير لكان أمراً لا يمكن للمرء أن يرفضه.

قلت: ألم تقولي أنت لديك أيضاً طفلة؟

قالت: أجل تشبه التي لديك، تصدق أي شيء بسرعة،.. طفلتي بسيطة.

لا يمكن الوثوق بحديثها، فلا شيء قطعياً حولها، ولم تكن تهاب أن تعطي معلومات خاطئة عنها للآخرين، أمر تفسيره عما كان سابقاً أصعب، ويصّعب علي مهمة قراءة يديها.

قلت: سأرجع حالاً، خرجت من المقهى في إثر وردة وتتبعتها، وعندما وصلت إليها وضعت يدي على كتفها، تسمرت في مكانها، عادت ونظرت إلى الخلف وقالت: يا إلهي لقد أخفتني يا أبي.

طلبت منها أن نجلس معاً فوق المصطبة الحجرية بجانب الرصيف وحينئذ سألتها: اليوم كنت مختلفة يا وردة لم تكوني على طبيعتك.

جلست بالقرب مني وسألتني: كيف كنت؟

قلت: متضايقة، وكأنك منزعجة من شيء ما؟

قالت: هل يمكننا الذهاب إلى الجبل هذه الجمعة؟

قلت: لماذا لا يكون ممكناً، ولكن لماذا؟

قالت: لأعثر على بضعة حجارة ملساء.

سألت: ما حاجتك إليها؟

قالت: من أجل لعبة الحجلة، كلما لعبتها مع أولاد المدرسة خسرت أمامهم.

قلت: ولماذا تخسرين، أنت أطول من الجميع، لماذا عليك أن تخسري؟ ربما لا ترمين حجرك بشكل جيد؟ وضعت يدها في أحد جيوب حقيبتها

المدرسية، وأرتني قطعة حجر صغير وعر، وأخبرتني أنها وجدته في حديقة المدرسة ومنذ ذلك الوقت تلعب الحجلة به.

تابعت: إنني أخسر لأنه ليس أملسَ.. انظر إلى زواياه، أحد حوافه متورمة، عندما أرميه لا يقع في المربع الذي أريده أن يسقط فيه، وعندما يسقط في المكان المناسب، وأريد أن أدفعه بقدمي إما أن يذهب إلى الأمام كثيراً، وإما أن يذهب قليلاً، لذا دائماً إما أن يستقر على الخط المرسوم، أو يخرج خارجه نهائياً، لذلك دائماً أخسر.

سألت: ألا تلعبون جميعاً بحجر واحد؟

قالت: لا، لكل واحد منا حجره الخاص به.

قلت: حسناً.. استخدمي من حجارتهم، فحجارتهم ملساء.

قالت: هم لا يعطون أحجارهم للآخرين.. يخافون من الخسارة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الآخرون

أتريدون الحقيقة، في البداية تعجبت كثيراً لماذا استخدمت كلمة رسمية إلى هذه الدرجة، ولكن عندما أمعنت التفكير في الأمر رأيت أن من حقها أن تكون صريحة ومكتئبة، فهي تحاول أن تفهمني على طريقتها الحيرة التي تنتابها من كل هؤلاء اللا أصدقاء، حزينة من اعتبارها غريبة، لذا لم تقل لا يعطون أحجارهم للبقية، وعوضاً عن ذلك، قالت لا يعطون أحجارهم للآخرين، لتفهمني بأنها في نظر بعض الأطفال هي «آخر» وليست واحدة منهم، فتشتكي من هذا النوع من عدم المساواة الذي تعده أمراً خاطئاً، لقد أرادت أن تفهمني أن سبب خسارتها لا يعود لكونها تستحق الخسارة، ولكن لأنها لا تملك مقومات متساوية.

احتضنتها بين ذراعي وشددتها إلى صدري بقوة، وبينما هي في أحضاني قبّلتُ رأسها، وقلت لها: لا تحزني يا جميلتي.. هذه الجمعة سنذهب إلى الجبل، وسنجد حجارة ملساء قدر ما تشائين.. بشرط واحد.

سألت: ما هو؟

قلت: بشرط أن تعطي لكل واحد من أصدقائك في الصف واحداً منها دون أن تخافي من أن تخسري.

قالت: حسناً، موافقة.

قلت: أتعدينني؟

أخرجت خنصرها من بين يدي المتحلقتين حولها ومدته نحوي وأنا أيضاً عقفت خنصري حول خنصرها ومن جديد قبلتها، وعندما نهضنا نفضنا أنفسنا، وودع بعضنا بعضاً، وذهب كل حيث يجب، هي إلى البيت، وأنا إلى المقهى، فلا بد في أثناء غيابي بقيت الكثير من الطلبات في يد صفورا، خلال بضع الخطوات التي كانت حتى المقهى، فكرت مع نفسي كم هو أمر سيئ أنه يجب على المرء أن يكون لديه دائماً حجرٌ أملسُ خاصٌ به، ولا يوجد أي أحد ليقرض حجره الأملس إلى الآخرين مخافة أن يخسر أمامهم في وقت ما، لا سمح الله.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الشمس في دقائقها

الثماني الذهبية

كانت صفورا منهمكة بتنظيف أنبوب بخار آلة القهوة، وكنت أنا أتحدث إلى وردة الضفيرة، فقد اتصلت عليّ وكانت تسألني إن كان يمكنها أن تخلد للنوم أم لا، فقلت لها: ولماذا لا يمكنها، إن فرشت أسنانها، وشربت كأس الحليب المسائي، فلتضئ المصباح في الصالون وتذهب إلى سريرها، ولتدعُ لنفسها ولي ولأمها ومن ثم فلتنم.

قالت: أمم... صوت التلفاز مرتفع.

قلت: حسناً، أطفئيه.

تأنأنت قليلاً..أنا..أنا.. ومن ثم قالت: أمم.

سألتها: أممم ماذا، هل عمتك هناك.

قالت: أجل.

سألتها لماذا لم تطلب منها أن تخفض صوت التلفاز قبل أن تجتهد من تلقاء نفسها وترفع سماعة الهاتف وتشتكي لي بأن صوت التلفاز مرتفع. لم يكن لديها أي جواب، من جديد تأنأنت، وأرادت أن تقول شيئاً، حينئذ قلت لها: هل تعلمين ماذا يقولون عن فعلك هذا؟

قالت: لا.

كنت قد خرجت عن طوري وغضبت منها لفعلها ولم أستطع كبح جماح نفسي فقلت: يقولون له قلة احترام، خباثة.

لم تنطق بأي كلمة، كان واضحاً أنه قد تملكها الخجل لأنها أمسكت سماعة الهاتف وخابرتني قبل أن تطلب من أختي أن تخفف صوت التلفاز، وبعملها هذا أفهمت عمتها أنها إن أرادت أن تشاهد التلفاز، من الأفضل أن تذهب لمنزلها لئلا تعكر صفو نومها.

لذا قلت لها أن تجزئ كلمة «قلة احترام» فوراً ومن خلف سماعة الهاتف، فتقول لي كم جزء هي.

متأخرة عن الجواب بدأت تجزئها: «قلة - اح- ت- را- م» خمسة أجزاء.

سألتها: خباثة هي الأخرى كم جزء يا وردة؟

بصوت منخفض ملأه الخجل قالت: ثلاثة أجزاء «خ- با - ثة».

قلت: من الأفضل ألا تنام، ولتذهب إلى عمتها، التي تلطفت وأتت إلى المنزل لئلا تخاف وردة من الوحدة لا سمح الله، فلا تتمكن من النوم، فلتذهب إليها ولتطلب منها أن تعطيها واجباً هو كتابة «قلة احترام» و«خباثة» بضع مرات، وعندها لتجلس وتكتبها في عشرة سطور وإلا فإنني مضطر أن أعنفها بشكل أشد من هذا.

قالت: ولكننا لم نقرأ حرف «ج» بعد.

قلت: ليس مهماً، لا بد أن تأتي اللحظة التي عليك فيها أن تتعلميه، وليس هناك أفضل من هذه اللحظة، أغلقت الخط دون أن أودعها.

لا شيء يؤذيني أكثر من قلة الذوق والخسة التي تكمن في ذوات الأطفال التي يتعلمونها من الكبار، الأمر الذي قد نبهت بريسما عليه لأكثر من مئة مرة، أي ألاّ تسمح بأن تضرب العلاقة بين وردة الضفيرة وعائلتي وذلك بسبب الحساسيات النسائية والعلاقات غير الودية الموجودة بين كل امرأة وأخت الزوج، أي أن تتصرف بشكل يدعو وردة الضفيرة للظن بأن عليها هي الأخرى أن تحذو حذوها، وقد أخبرتها لأكثر من مئة مرة أنه لو افترضتُ أن بإمكاني السماح لنفسي أن أحدد كيفية علاقة ابنتي بالآخرين، فإنني أستطيع بأقل من أسبوع أن أفعل شيئاً يجعلها ما إن ترى خالتها أو جدتها حتى تشعر بأن شيئاً يكاد يخرج من حلقها، وسوف تطرحه الآن إلى الخارج في أي لحظة، ولكن لا أعطي نفسي مثل هذا الحق، فأضرب العلاقة بين اثنين لمجرد أن علاقتي بأحدهما غير جيدة.

جاءت صفورا، جلست على الكرسي الرباعي القوائم خاصتي، وبدأت تضع بطاقات التخفيف في الظروف، ولمجرد أن أكون قد قلت شيئاً، سألتها: هل لديك أدنى فكرة متى يبدأ عرض الأفلام؟

سألت: متى؟

قلت: من اللحظة التي تضع فيها النساء قدمهن في القصة، وحتى يحدث هذا كل ما سبق حدوثه ليس له قيمة دراماتيكية، وفي الحقيقة يمكنك أن تعتقدي بأنه لم يحصل أصلاً، فالنساء إلى هذه الدرجة موجودات ذوات قيمة.

ضحكت وقلت: إنني أتحدث بجدية، هل سبق أن شاهدت فيلماً يكون فيلماً بحق، ولا تكون المرأة مركز المؤامرة فيه، هل يمكنك أن تذكري لي أي خلاف لا يكون حول النساء؟ هل هناك أي مشكلة لا تكون مرتبطة بهم، هل هناك نزاع لا يكنّ على رأسه؟ حتى طردنا من الجنة كان سببه وباعثه المرأة.

قالت: كف عن هذا، فأنت بدأت تصبح أكثر عصبية.

قلت: من شدة غضبي ينبغي أن أنتقد أحدكم حتى لو لم يكن الأمر منطقياً.

أنهت الظروف ولكن بقي بضع بطاقات في يدها قالت: لقد انتهت الظروف، أمر مثير،.. دائماً ما تنقص الظروف وليس البطاقات.

صببت قهوة فرنسية لها، وقهوة تركية مرة لي، وأتيت وجلست بجوارها، تناولت فنجانها الذي وضعته لها بالقرب من يدها، قربته من أرنوبة أنفها وشمت بخاره وقالت: رائحته فيها القليل من الحموضة عليك أن تشتري قهوتك من مكان آخر.

قلت: هل تعلمين أنك أول صفورا أراها؟

رفعت حواجبها نحو الأعلى قليلاً، وقالت: لم أكن أعلم.. ولكنني خمنت.

قلت: إنه لمن النادر أن يلتقي المرء بفتاة اسمها صفورا، من الممكن أنه قد رأى الكثير من مريم أو ميترا، ولكن صفورا أمر صعب للغاية.

قالت: وظني أنه لن يرى أبداً.

قلت: صحيح، وهذا رأيي أيضاً، لذلك يجب على المرء أن يفهمها بأي شكل كان، فالأمر يستحق العناء.

سألت: تريد أن تفهم عملي؟.

قلت: أجل، لا يسوؤني الأمر.

قالت: من الممكن أن تكون ضريبة نهايته مكلفة، ألا تخاف؟

قلت: هل تخوفينني أيتها الفتاة؟..أنا لها..

قالت: إلى آخرها.

قلت: إلى آخرها.

تأخرت حتى سألتني: هل تسنى لك في الآونة الأخيرة أن ترى الشمس في دقائقها الثماني الذهبية؟ لحظة تختفي في الأفق؟ وكأنها قد اتخذت لنفسها صينية نحاسية؟

صحيح، يوجد في الغرب والجنوب الغربي للمدينة سلسلة جبلية شبيهة بحدوة الحصان، هذه السلسلة احتضنت في داخلها المدينة، ولم تكن لتسمح لها في أي وقت أن ترى الشمس المجازية التي كانت أغلب الوقت شبيهة بلون البرتقال منذ تلك اللحظة التي تكون فيها قرصاً دائرياً كاملاً إلى تلك اللحظة التي تختفي فيها فجأة في الأفق بحيث إن أشحت بنظرك عنها للحظة من ثم عاودت النظر إليها، تنذهل وتندهش وتسال نفسك أين ذهبت؟.. فهي كانت الآن هاهنا؟

أجبت: لا، لم أرها منذ مدة.

قالت: إن كنتُ مستعداً غداً لأن أغلق المقهى قبل غروب الشمس لساعة أو ساعتين، فهي أيضاً مستعدة لنذهب معاً إلى الجبل نجلس أعلى قمته فوق الصخرة ووجهنا نحو الغرب، نتأمل الشمس البرتقالية كيف تغيب في الأفق.

في الغد وقت الغروب كنا في ذلك المكان الذي كانت تريد فوق الصخرة، نشاهد الشمس في دقائقها الثماني الذهبية.

خلعت حجابها وأرخته على كتفيها وأنا من جديد، بينما كانت إحدى عيني تتأمل الشمس، كانت عيني الثانية تتأمل شعرها المجعد المتدلي فوق

صدغها كيف يغطي نصف أذنها، وكنت أفكر في نفسي لو أحضرت معي كاميرا أو شيء فآخذ صورة لها في ذلك النور البرتقالي من هذه الناحية حيث تظهر أذنها، فتبدو قليلة الانحناءات وجميلة وقد غطت حفرتها الصغيرة الناعمة تلك الخصلة المجعدة من شعرها والتفت نهايتها الحادة ووصلت إلى صدغها.

سألتني: هل انفصلت عن زوجتك؟

قلت: نوعاً ما.

عادت ونظرت إلي، في تلك اللحظة أعادت كلامي إلي: نوعاً ما؟

قلت: نعيش منفصلين لأسباب لا أحب أن يطلب أحد مني أن أوضحها له، دلكت قدميَّ من تحت الركبة، فقد هبت رياح باردة حملت معها البرد إلى عظامي، ومن ثم من جديد نظرت إلى الشمس، التي لم يبق شيء ليغيب ما تبقى منها في الأفق، عندها سألتني: يا إلهي ماذا كان اسمها،.. وردة الضفيرة قالته لي.

كانت تدعي عدم المعرفة.

قلت: بريسما.

قالت: اسم جميل.

قلت: أجل، هي أيضاً اسمها من تلك الأسماء التي قلما يسمعها المرء أو قد يسمعها، وحقيقة كان هذا السبب الذي جعلني أريد أن أتقصى عن عملها.

سألت: أهي جميلة؟

قلت: عندما تقولين جميلة، ماذا تعنين بالضبط؟

قالت: يعني حلوة؟

قلت: أعتقد، تخيلي معي امرأة روسية تتحدث الفارسية وترتدي العباءة، جمال بريسما ضرب في ثمانٍ من هذا.

فسألتني بتعجب: الآن ولماذا ثمان؟

قلت: حسناً، ست عشرة، على كل الأحوال ضرب اثنين أو أربع.

التفت نحوها وكانت ترفع حواجبها متعجبة، وقلت: أجمل منك، ولكنها ليست كجمالك، أزعجتها قليلاً، ولكن بسرعة أردفتها بجزية صغيرة، فإذا ما نزلنا من فوق الصخرة التي نقف عليها الآن، وأردنا أن نذهب، فلا تفتح أجنحتها وتذهب، هذا الطائر الذي في يوم ما قد أحضر قفصه بنفسه إلى داخل مقهاي وذهب إلى داخله وجلس فيه وعندما تمكن أخيراً من الخروج عندها فقط تمكن من أن يضعني في مكانه.

لم تعلق على الأمر، وضعت سماعات الآي باد على أذنيها ومن ثم أدخلتها من الياقة إلى المعطف الضيق والملاصق لجسدها الأحمر اللون، كانت ترتدي فوقه بوليفاراً واسعاً منسوجاً من خيوط الصوف العريضة الملونة، ويمتد إلى أسفل ركبتها، ويبدو أنها وضعت الآي باد في جيب البوليفار الداخلي في مكان ما بجانب صدرها.

قبل أن نهم بالذهاب أردتُ أن أدخن سيجارة، ولكن الرياح لم تكن لتبقي شعلة القداحة مضاءة حتى أشعل رأس السيجارة، ما حدث، أنه عندما انحنيت لأجعل من جسدي مصداً للرياح، أتت هي ووقفت أمامي وقربت نفسها مني وبجسدها أكملت مصد الرياح.

آه، كم تمنيت هذا، وكم شعرت بسعادة غامرة لأنه في نهاية الأمر قد حدث معي، أي لو حدث لمرة واحدة فقط أن فعلت بريسما هذا الأمر

اللطيف لي، يعني جعلت جسدها كخيمة في مواجهة الرياح، لأستطيع أن أشعل سيجارتي، وليس أن تسحب نفسها لتجلس فوق صخرة أخرى لعلمها بأنني أريد أن أدخن، وتنشغل بتأمل الأفق لئلا تراني لا سمح الله في يوم من الأيام وأنا أقوم بخيانتها.

أشعلت السيجارة ودفعت دخانها من فمي إلى الخارج ورفعت رأسي، في هذه اللحظة مدت يدها نحوي وأخذت السيجارة من فمي فأخذت منها نفساً واحداً، ومن ثم أعادتها إلى طرف شفاهي، أمر لم أكن لأستسيغ أبداً أن تفعله بريسما، حتى وإن كان قصدها أن تزعجني، وفي يومنا الأخير معاً فعلته، فاضطررت أن أطلب منها أن تجمع في الحال أغراضها وأشياءها وتخرج من منزلي، لأنني لم أعد أستطيع أن أتحمل رؤيتها، فكروا معي، امرأة روسية تتحدث الفارسية وتلبس العباءة، فيضرب جمالها بثمانٍ، وكلما وقفت لتقيم الصلاة تودون لو تذهبون وتجلسون أمامها وتتأملونها إلى الأبد، هذه المرأة تنزع السيجارة من على زاوية شفاهكم وتبدأ تدخن منها، فقط لتثير حفيظتكم، لأنه على ما يبدو لم تجد طريقة أفضل من أن تأخذ السيجارة من زوجها وتضعها على زاوية شفاهها لتغضبه.

وعلى منحدر الجبل وبينما كنا نهم بالنزول أوشكت صفورا، في أكثر من موضع أن تنزلق وتسقط، لذا كنت مجبوراً أن أمسك يدها، فلم تكن باردة كأيدي بريسما، فليس الأمر أنه كلما أردتم أن تمسكوها تظنون بأنكم قد أمسكتم قالباً جليدياً في أيديكم، مثلاً من أجل أن تختبروا قدرتكم إلى أية درجة يمكنكم تحمل برودته.

حقيقةً إن بريسما باردة إلى درجة أنكم كلما رأيتموها تكون أقدامها فوق المخدة أو مقبض الفرش لكي يرتفع ضغظها، فلا تشعر إلى هذا الحد

بالدوخة والدوار في رأسها، فلا تطلب منكم وأنتم تموتون من شدة الحر أن تطفئوا المكيف لأن الجو بارد جداً وقد تجمدت، أريد القول: هي دائماً تشعر بالبرد فمهما عدتم وقلتم لها: إنكم تموتون من شدة الحر، فلن تصغي لكم، فدائماً ضغط دمها منخفض، لأنها طويلة والدماء لا تسحب جيداً من جسدها نحو الأعلى فتصل إلى دماغها ومنه كلما استيقظتم من النوم تنعدم القدرة على فهم أي شيء لساعة أو ساعتين، هذا الأمر جعل قلبي دائماً يحترق على توم كروز في معظم الأحيان التي كنت أرى فيها نيكول كيدمان، لأن عليه أن يكون دائماً معه شوكولا يعطيها لها لتأكلها فلا تدوخ، وتهوي على الأرض.

ومثلُ تلك النساء لا يحببن الإنجاب بكثرة، يعني أنهن لا يرغبن بتصور أنفسهن عند بلوغهن الأربعين محاطين بحفنة من الأولاد يطوفون حولهن، واهتمامهن أكثر بأثدائهن المترهلة منه بأحزان وآلام أزواجهن الذين يودون وبشدة لو يرزقون بأربعة خمسة أطفال، ويجب عليهم أن يتأقلموا مع حزنهم بأنه لا أطفال لديهم، ومن أنهم لن يتمكنوا يوماً من سماع كلمة أبي من جديد.

الهيئة العامة السورية للكتاب

هذه المرة الأخيرة

ولكن لم تتصل

في تلك اللحظة التي أتيت لأفتح باب البيت، وأخرج لأشتري بضع فوط نسائية ذات أجنحة متوسطة الحجم وأعود - واحتمالاً معي كيس أسود في يدي تعطيك إياه الدكان في العادة بعد أن تضع فيه الفوط النسائية بصورة مخفية وكأنهم يتبادلون بضاعة مهربة، أو أنهم يضعونها هكذا لئلا يراها أحد بالمصادفة وعندها تشعر بالخجل لأنك أتيت لشراء فوط نسائية، أو ربما يظنون أن الفوط النسائية أمر يتعلق بالشرف لذا عليهم أن يخفوها في شيء أسود اللون، فلا تقع عين أحد عليها- خلف الباب رأيت السيد رحيم ساعي البريد في منطقتنا، يهم بالنزول عن ركاب موتوره ليدق الجرس ويسلمني الورقة التي كانت في يده، فحالما رآني قال: لديك رسالة يا سيدي.

السيد رحيم، ساعي بريد قديم في منطقتنا وأنا أحبه جداً، لأنه لم يحدث قط أن أحضر رسالة وتنطط أمامي حتى أضع يدي في جيبي وأعطيه نقوداً لقاء العمل الذي يتقاضى عليه أجراً. تريدون الحقيقة، هو واحد من أولئك الناس الشرفاء الذين أعرفهم، ولذا حدث أن أردت بشدة أن يترجل عن درّاجته النارية ويخلع قبعته، ويتقدم إلى الأمام لأتمكن من معانقته وتقبيله، ولأقول له كم أستمتع وأستلذ بأخلاقه العالية التي يمتلكها، وليس كأولئك الدنيئين الذين انتشروا في المدينة كالجراء يتنططون على رؤوس أقدامهم ليرمي أحدهم لهم شيئاً مثل العظم الذي يرمونه للكلاب ليذهب إلى عمله، ويترك المرء وشأنه،

بل دائماً يترجل عن موتوره ويضعه في حالة الوقوف، يخلع قبعته ويتقدم بضع خطوات إلى الأمام، يسلم عليّ، من ثم يضع الرسالة في راحة يدي أو من تحت الباب المؤدي إلى ساحة البيت، إلا إن كان الوقت شتاءً أو كانت الأمطار تهطل أو الثلوج تتساقط، في تلك الحالة، يتريث حتى تأتوا إليه وتأخذوا منه الرسالة بأنفسكم لئلا يكون هناك شيء مهم بداخلها ولا سمح الله تتبلل.

وضعت وصل الرسالة فوق باب المنزل الحديدي الأبيض وبقلم الحبر الذي أعطاني إياه وقعت له وشكرته ومن ثم دعوته إلى منزلي، من تلك الدعوات التي لا أساس لها من الصحة وليس واضحاً لماذا نستخدمها، لأنه من الواضح أن لساعي البريد الكثير من الأعمال وعلى الأقل عليه أن يوصل الرسائل ليد ستين شخصاً، وليس من المحتمل أنه سيقبل دعواتهم جميعاً، أضف، إن أراد الدخول عليه أن يفكر ماذا يجب علي أن أفعل برائحة جواربي، ففي اللحظة التي سيخلع فيها حذاءه من قدمه ستنتشر الرائحة في المكان كله، فليس بإمكانه أن يشتري حذاءً جلدياً، ودائماً ما ينتعل من تلك الأحذية البلاستيكية، من جهة أرخص، ومن جهة أخرى أوفر، فهي تبقى مدة أطول، فطبيعة عملهم تستدعي منهم أن يترجلوا عن موتوراتهم مرات ومرات ليضربوا أجراس هذا المنزل وذاك، وأنا الآخر حالي ليس أفضل من حال السيد رحيم، ولكن المسألة أنني لا أستطيع أن أرتدي حذاء جلدياً قاعدته من البلاستيك مهما بلغت درجة جماله، وليس لدي المقدرة أيضاً أن أشتري حذاءً جلدياً من تلك الأحذية الباهظة الثمن التي تسرق قلب المرء من شدة جمالها.

تريدون الحقيقة، الحذاء واحد من الأشياء القليلة التي تفضح شخصية المرء، فلو رغبتم أن تفهموا ما هي طبيعة عمل أحدهم يكفي أن تتأملوا أولاً

حذاءه، لأنه يحدث أن يكون لباسه قد استعاره من أصدقائه، أي ذهب إلى صديقه وأخبره أن لديه موعداً مهماً، وعليه أن يبدو شخصاً متميزاً، وليس لديه شيء يليق بموعده، فيرأف لحاله ويعيره من ثيابه ليلبسها، ولكن قلما يحدث أن يقتنع أحدهم بأن ينتعل حذاء شخص آخر، أو أن يعطي حذاءه لأحد لينتعله.

وعليه إن أردتم يمكنكم أن تفهموا من خلال حذاء الآخرين طبيعتهم وحالهم ووضعهم، وحتى يمكنكم أن تفهموا هل الشخص محدث نعمة تربى على موائد الآخرين، أم إنه ذو حسب ونسب تربى في كنف أمه وأبيه، ولا يهم حينئذ هل قاعدة حذائه بلاستيكية أم لا، ساعي بريد أم لا، أقول لكم هذا لأنه وبشكل ملفت كلما رأيت شخصاً شريفاً كان من عمال مديرية البريد.

ودعته وأغلقت الباب، كان إبلاغاً قانونياً، يعلمونني فيه بأنه خلال أسبوع لا أكثر من استلامي للإبلاغ علي الذهاب إلى الفرع الخامس لمحكمة العائلة، وأن أعلن موقفي من مسألة مهر بريسما، كنت حائراً من الأمر كالذي صعقه البرق فلا يدرك لبعض الوقت ما حل، به فيبدأ يتأمل نفسه ومن حوله مراراً وتكراراً.

ظننت ربما هناك خطأ ما، وهذه الورقة التي يعلوها صورة ميزان العدالة هي ليست لي، ولكن عندما وقعت عيني على اسمي الذي كُتب على الورقة بخط سيئ، أدركت أن الورقة هي لي أنا وحدي وليست للجيران أو لأي أحد آخر، لذا، عدت أدراجي إلى المنزل وأنا أحدث نفسي أنه يمكن شراء فوط نسائية مجنحة متوسطة الحجم أو أي نجاسة أخرى لاحقاً، ولكن لا يمكن للمرء من ألا يذهب في الحال، وألا يسأل زوجته عن الورقة التي يمسكها في يده، لأي شيء هي.

وضعت المفتاح في القفل، وفتحت الباب الرئيسي للمنزل، خلعت معطفي، وألقيته على علاقة الملابس، وذهبت وجلست في الصالون على الكنبة، من تلك الكنبات التي ما إن تجلس عليها حتى تغرق فيها إلى الحلق، فليس فيها أعمدة فقرات. كانت بريسما في المطبخ تقشر حبة بصل كبيرة وتتمتم مع نفسها: هذه اللعينة، ما أسرع ما جعلتني أذرف الدموع؟! ولكن حالما وقع نظرها عليّ، فلم أكد أذهب حتى عدت، سألتني من مكانها: لقد عدت بسرعة، هل اشتريتها؟

أجبت: لدي رسالة، أتيت لأقرأها.

سألت: ممن هي؟... آه عيوني... يا إلهي لقد أصبحت عمياء.

أجبت: من سيد اسمه رعنايي.

سألت: رعنايي؟ لا أعرفه.

قلت: وكأنه من المقرر أن نتعرف عليه، هو مدير مكتب الفرع الخامس لمحكمة العائلة.

دون أن أسمع صوت أقدامها، وكأنها قطعت الطريق مشياً على الهواء كحال أولئك الروحانيين الهنود، أتت ووقفت خلفي، بحيث إنني شعرت بأن أحداً ما يقف فوق رأسي فقط من خلال تغيّر الهواء الذي كان يحيط بي، وكانت تتأملني من الأعلى بنظرة فيها حزن عليّ وخجل من نفسها.

قلت وكأنني أحدث نفسي ولكن بحيث يستمع الآخرون: إن ذهبت إليه سأطلب منه حتماً أن يعطيني هذه الورقة، يجب أن أحتفظ بها، إنها شيء قيم.

قلت: متى يمكن أن يحدث هذا الأمر مجدداً، أي أن أهمّ بالخروج من المنزل لشراء الفوط النسائية وفي تلك اللحظة يأتي إنسان شريف مثل السيد رحيم والذي يطرق مئات الأبواب يومياً ليأمن قوت زوجته وأطفاله، فيعطيني مثل هذه الورقة في يدي؟... احتمال ضعيف، أليس كذلك؟. عند هذه الجملة الأخيرة التفتُ نحوها، أي كنت أنظر إليها حينما طلبت مني أن أمزقها وأرميها بعيداً، لقد كانت غاضبة مني، فذهبت إلى المحامي وأخبرته أنها لم تعد تطيق الحياة معي، وهو ذكرها أن تطالب بمهرها، وبعد أن فعلت ما طلبه منها، نسيت من جديد أن تذهب إلى محاميها وتطلب منه العدول عن السعي وراء المهر؛ لأنه عليّ أن أتأقلم لأجل طفلتي. قالت جملتها الأخيرة بحيث إن لم تكن تعرفها لا بد أنك ستظن أنها من تلك النساء اللواتي ينشغلن دائماً بتمشيط شعر إحدى بناتهن الثماني، أو قد جلست أمام كومة من ثياب أطفالها وأخذت بكيّها دفعة واحدة، بحيث كان عليك أن تجلس وتبكي عليها بقلب ملآن. في تلك اللحظة، عادت من جديد إلى المطبخ، تناولت لوح اللحمة البلاستيكي الذي لم أفهم حتى الآن لِمَ يقولون عنه لوحاً، وانهمكت بتقطيع البصل فوق مائدة الطعام، لتضيفه إلى المقلاة التي كان زيتها قد سخن.

من مكاني التفت نحوها وسألتها: والآن ماذا أخبرته؟ هل قلت: إني رجل سيئ؟

ضحكت وقالت: أجل لقد قلت: إن صبري قد نفد منك، ولا أستطيع أن أعيش معك بعد الآن، فلقد تعبت من ألعابك المجنونة.

للحظة كفت عن تقطيع البصل، وبعد أن عركت عيونها تابعت: من تلك الأشياء.

قلت: ماذا تعني تلك الأشياء؟

قالت: عندما يجلسن النساء ويبدأْنَ بالتحدث عن أزواجهن ماذا يقلن في العادة؟

سألتها مؤكداً: أخبريني، هل قلت له: إنني خنتك؟ قلت: إنني أعود متأخراً إلى المنزل؟ قلت: إنني ألعب مع أصدقائي القمار؟، قلت: دائماً ألهث وراء عشقي وملذاتي؟ قلت: إنك تعانين، الجوع هنا بينما أنا دائماً أقضيها متسكعاً هنا وهناك؟.. قلت له: إنني مدمن كحول؟ أدخن الهيروين؟ هل قلت له: هذا كله؟ هل جذبت انتباهه إليك أيتها الأميرة؟

من جديد رفعت يدها عن البصل، شرقت أنفها وقالت: كف عن ذلك.. يكفي.. الآن وقد أخطأت.. من ثم نظرت إلي قليلاً، وحتى هذه النظرة الملأى بالرجاء التي وصلتني من عيونها البريئة النقية لم تمنعني من أن أجعلها تخرج عن طورها.

وضعت يدي في جيب القميص، وأخرجت علبة السجائر، وأخذت منها سيجارة واحدة، ومن ثم ألقيت العلبة فوق الطاولة العسلية بجانب الكنبة، ووضعت السيجارة على طرف شفاهي، ومن ثم أشعلتها بالقداحة، وكلما أردت أن أنفض رمادها، كنت أنفضه في قشرة البرتقال اليابسة التي كانت مرمية فوق الطاولة وشفتاها مرتدتان نحو الأعلى، وأشبهت قارباً برتقالياً دون أشرعة انحنى على اليابسة فوق صدف الساحل على جانبه الأثقل.

على الرغم من أنني أدخن دائماً بعيداً عن عيونها، فقد أدركت الأمر منذ مدة، ولكنها لم تعترف به، ولم يحدث قط أن دخنت في المنزل.

سمعتها تلقي السكينة فوق لوح اللحمة وأخذت تقترب مني من الخلف، يداها اللتان لا بد أنها نظفتهما بزاوية مئزرها، وضعتهما فوق أكتافي ومن ثم دورتهما حول رقبتي وانحنت لتقبل أرنوبة أذني.

وضعت الورقة فوق الطاولة، من ثم قربت يدي من أطراف يديها الباردتين اللتين شبكتهما على شكل دائرة غير محكمة حول رقبتي، وفتحتهما وأبعدتهما عني، لقد استاءت من فعلتي، واضطرت لترفع يدها حتى عن أكتافي ولكنها كانت ما تزال تقف فوق رأسي وتنظر إلي من الأعلى.

سألتها: ألم يقل لك كم عيناك جميلة؟

سألتني ببراءة لا يمكن العثور عليها إلا في صوت الخروف الذي يجبرونه بالقوة على شرب آخر جرعة له من الماء، فيفهم من هذا الأمر أنه لم يتبق له الكثير من عمره ليحياه، سألت: من؟

بريسما لا يمكنها أبداً أن تفهم المعنى الكنائي للكلام، وأي شيء تريدون إخبارها به عليكم أن تقولوه لها بصراحة وبوضوح تام، لأنها ليست من ذلك النوع من الناس الذي قد يود أن يقول لكم شيئاً فيلفه في ألف لفة، ويقوله لكم وكأنه لا يعني قوله، حتى إذا ما سألتموه يوماً لماذا قلت هذا؟ يستطيع أن يجيبكم، أنا بالتأكيد لم أكن أريد أن أقول شيئاً كهذا، هذا فهمكم أنتم وهو ليس مسؤولاً عنه.

أجبتها: واضح من المحامي؟

غضبت بشدة وقالت: كم أنت وقح.

قلت: لا تنسي أن تقولي له هذه أيضاً، أنني وقح جداً.

ومن ثم قلت لها بوضوح وشفافية: لم أعد أطيقك.

لم تقل شيئاً، ذهبت لغرفتها، وبدأت ترتدي ملابسها، كنت أطلق دخان سجارتي دون خوف في فضاء الغرفة، ولم أكن أخشى إطلاقاً من أنني أتجاهل قاعدة العشر سنوات غير المكتوبة، فقد تحملت هذا القانون اللعين كل هذه السنوات، والآن أريد أن أكسره وكنت أقول لنفسي: إلى جهنم إن لم يعجبها الأمر، وإلى أسفل السافلين إن أغضبها. لحظة خروجها من المنزل طلبت إليها أن تصبر قليلاً، في ذلك الوقت دخلت إلى الغرفة، وألقيت بمعظم ثيابها بدون أي ترتيب في الحقيبة الكبيرة وأغلقتها بالقوة، جلبتها إلى جانب الباب حيث كانت تقف، أمسكت يدها التي لم تكن في جيب معطفها المطري الترابي اللون، فتحت أصابعها التي لم تكن تشعر بشيء من شدة البرودة، وبينما ما زال مقبض الحقيبة في يدها، بعصبية، وبيدها الأخرى انقضت على السيجارة، ودون أدنى تجربة أخذت منها سحبة عميقة وأمسكت نفسها لئلا تبدأ بالسعال بسبب مرارة السيجارة، من ثم رمتها على الأرض وغادرت.

لقد هددتني بفعلها هذا أو قالت لي أشياء لا بد أن أصلها النجيب قد منعها من أن تقولها لي بصراحة، هذا ما جرى عندما وصلت إلى آخر الدرج قلت لها: اذهبي إلى محاميك، بالتأكيد سيخبرك بما عليك فعله.

في تلك اللحظة أغلقت الباب خلفها، وتناولت سيجارتي عن الأرض، وذهبت إلى جانب النافذة التي يمكن من خلالها الرؤية إلى رأس الزقاق المغلق والذي يقع منزلنا في آخره، وبالنظرات تتبعتها، كانت تجر بصعوبة ومشقة حقيبتها خلفها على الدواليب الكبيرة التي تحتها فوق زفت الشارع المتعرج، وكانت شيئاً فشيئاً تصبح أبعد فأبعد، وكأنها تحمل في حقيبتها حملاً لشيء ما، أريد قوله: كانت تبتعد بهدوء شديد.

مشهد لسيدة وحيدة ومظلومة، في زقاق مغلق، في أواخر شهر أيلول إذ أصبح الجو مائلاً للبرودة، وفي كل لحظة هناك احتمال أن تصاب بنزلة برد، حقيبتها في يدها تجرها بصعوبة خلفها، وتبتعد، ولا بد أن السيدة التي في المشهد تفكر في نفسها: الآن أين يمكنني أن أذهب؟ لذلك كانت تسير بتأن وقلق، واحدة من تلك المشاهد التي تفطر قلب الإنسان.

أريد القول: لو كان في قلبكم ذرة واحدة من الرحمة والشهامة، ليس مستبعداً أبداً من أن تذرفوا الدموع عليها، على أي حال، لم ينفطر قلبي عليها إطلاقاً، ولكنني فكرت مع نفسي كم هي امرأة حمارة لأنها تبتعد عني، إنني أحبها، لا بد أنها تسأل نفسها الآن أين علي أن أذهب؟ يا ليتني لم أتحامق وبقيت في تلك المزرعة.

إنني مجنون، يعني أحياناً يخطر ببالي أن أفعل أشياء غير منطقية، فقط لأجل تلك المشاهد الجميلة التي تفيض من داخلها، وأموت لأشاهد هذا النوع من المشاهد، وطبعاً، غالباً ما أندم وأتساءل هل حقاً مشاهدة هذه المشاهد الجميلة، تستحق مني أن أتسبب في إزعاج أحدهم، أو أن أؤذيه بهذا الشكل الظالم؟! ولكن مرة أخرى يضرب برأسي، فأقدم على نفس الأفعال التي أجبر في نهايتها أن أعود وأسأل نفسي السؤال السابق، لذلك أقول لكم إنني مجنون، وإن لم يستطع أحد أن يعيش معي فأنا لا ألومه.

نظرت إليها من جديد ولكن لم تكن في الزقاق، لا بد أنها ذهبت إلى فندق رخيص الأجرة كعادتها دائماً، عندما نتشاجر كانت تذهب إلى فندق رخيص، أي إلى هذا الحد هي ابنة أصول وحتى في مثل هذه المواقف ما تزال تفكر قي جيبكم، لأنه لا يمض الكثير من الوقت حتى تتصل بكم وتقول،

هناك مجموعة من المسافرين الباكستانيين في لوبي الفندق منهمكون بالغناء والأداء، ألا تأتي لمشاهدتهم؟

أو إنها تتصل لتخبرني بشكل مفصل عن الفطور الذي يقدمه الفندق، كن هنا قبل التاسعة والنصف، لنذهب ونفرح عن أنفسنا، لا تحضر معك وردة الضفيرة.. كما في شهر عسلنا.

هذه آخر مرة لم تتصل.

الهيئة العامة السورية للكتاب

فصل ضعيف دون روح

كانت المقهى خالية تماماً من الزبائن، فصل ضعيف بدون روح لم يكن هناك سوى زبون واحد جلس ظهره للبار، وكان يقرأ كتاباً، وكل بضع دقائق كان يقلب الصفحة، ومن ثم كان يمرر يده على الحد الفاصل بين الأوراق، ليجعل الورقة التي يقرؤها الآن تنام، فلا تقلب إلى الصفحة التي قبلها.

كانت صفورا تمسح كل شيء موجود في البار، كل ما يمكن جعله يلمع كانت تلمعه، عندما اتصلت بريسما، تناولت الهاتف بينما كنت أفتح علبة ذرة لأحضر رقائق البطاطا والجبنة لقارئ الكتاب، وضعت الهاتف بين أذني وعلى كتفي، وحدثتها بينما أنا أدور بين هنا وهناك لأتناول هذا وأضع ذاك.

قالت: أريد أن أمر على البيت، هل أستطيع؟

قلت: ولم لا؟

سألت: وردة عندك أم في المنزل؟

أجبت: وردة أي حمار؟

قالت: كما تشاء.. وردة الضفيرة.

قلت: لم تأت اليوم مطلقاً إلى المقهى، كان الجو بارداً، خفت عليها أن تمرض.

قالت: قالت إذن سأمر قليلاً على المنزل.. هل أخذ لها الطعام معي؟

قلت: لا بأس، كانت من المفترض أن تتصل وتوصي على كباب، قولي لها ألا تتصل.

قالت: شكراً أنك سمحت لي.

قلت: شكراً لأنك تريدين أن تأتي إلى المنزل.

وضعت الهاتف من يدي، وكنت أشعر كل الوقت بأن صفورا ترقبني، لتعرف من المتصل، وماذا يريد مني، لأنه في اللحظة نفسها التي وضعت الهاتف من يدي وعدت إليها، تجاهلت الأمر وسألتني: هل أذهب وأشتري لك رقائق البطاطا؟ وأرتني كيس رقائق بطاطا فارغ كانت تحمله بأطراف أصابعها، وفوراً وضعت قدمها على دواسة سلة المهملات، وما إن فتح فمه حتى ألقت الكيس فيه، أي أفلتته من الأعلى بحيث التف في الهواء، وسقط في فم السلة المفتوح.

قلت: إن الأمر متعب لك؟

رفعت أكتافها: لا، أي تعب.

هذا ما جرى أدخلت يدي إلى الصندوق وأعطيتها أربعة تومانات، أخذتها وخرجت من باب البار الذي أخذ شكل فراشة، ولكن قبل أن تغيب عن نظري سألت: فقط رقائق بطاطا؟

أجبت: وعلبتا حليب أيضاً.

غمزتني غمزة لطيفة ناعمة، أي إنها فهمت ما أريد، وفي تلك اللحظة خرجت من المقهى، ولم يمض إلا القليل حتى عادت ومعها الأشياء التي طلبتها منها، أخرجتها واحدة تلو الأخرى من الكيس الورقي الخاص بدكان منطقتنا، لقد أعطاه لهم ليطبعوه اسمه عليه، فيتميز به عن بقية الدكاكين، لقد أعجبني أنه لم يطلب منهم أن يطبعوه على كيس نايلون، أخرجتها ووضعت

كل شيء في مكانه المخصص، من ثم، تناولت بوظة شتوية من الكيس، وبينما هي تريني إياها قالت: لقد اشتريت هذه لنفسي، إنها أجرتي.

في لحظتها اقتربت مني، ودون أن أتوقع حدوث الأمر، وضعت فوق أرنوبة أنفي القليل من البوظة الشتوية جهة الكريمة المغطى بطبقة من الكاكو، ودون تردد ضغطته على أنفي براحة يدها، ممرغة أنفي به. لا بد أن شكلي قد صار مضحكاً أو أصبحت شبيهاً بالمهرجين، لأنها أخذت تضحك بصوت منخفض حتى احمر وجهها، أما أنا فكنت مندهشاً من فعلتها، وتسمرت في مكاني كالمصعوق، ولم يكن بيدي حيلة إلا أن أضحك بلطف، عندها تقدمت نحوي، أمسكت بيدي وأخذتني إلى أمام المرآة التي وضعت فوق جدار المقهى بحيث يمكنك من البار الانتباه إلى ما يجري في قلب المقهى.

لقد تملكني الضحك من رؤية ما آل إليه حالي، ولكن ما إن أتيت لأسحب منديلاً ورقياً كان إلى جانبي لأنظف به أنفي، حتى أمسكت يدي، وبيدها الأخرى تناولت قطعة ويفر من البوظة الشتوية من على وجهي، ووضعتها في فمها، وأخذت تمضغها، بحيث كان يسمع بوضوح صوت قرمشتها من تحت أسنانها، وبسبابتها تناولت بقية الكريمة التي بقيت على أنفي، وحينئذ بدأت تلعقها، وبينما هي تلعق إصبعها بإغراء قالت: هكذا هي أطيب، هل جربتها يوماً؟

من جديد أردت أن أتناول منديلاً ورقياً لأنظف بقايا الكريمة من على وجهي، ولكن ما إن نظرت إليها حتى رأيتها قد وقفت ممسكة ببوظة شتوية أخرى في يدها أخرجتها من الغلاف وأخذت تريني إياها، نظراتها كانت تخبرني أنها تريديني أن آخذها منها وأدهنها على وجهها.

هذا ما حدث، تناولت البوظة من يدها، وضغطها على أنفها الصغير المدبدب الذي يصل إلى جبينها بتقوس ناعم، ومتناسق تأملتها قليلاً، ومن ثم ضحكت ضحكة خافتة، ووقتئذ قلت: الباقي لك.

لقد تفاجأت من فعلي: كم أنت حمار!

قلت: تقولين الصدق، أنا حمار.

وبينما هي تضحك بتلك الشفاه والفم والأسنان اللؤلؤية، قربت رأسها من طرف أذني وقالت: يجب أن يكون المرء حماراً ليضيع مثل هذه الفرصة من يده.

صادقت على كلامها بحركة من رأسي، أي هو الأمر كذلك كما تفضلت.

ناولتها المنديل الورقي الذي أردت أن أنظف وجهي به ولكني لم أفعل، أخذته مني وبحزن أخذت تنظف وجهها الذي جرى الدم تحت الجلد في أوردته وأصبح أحمر، ومن ثم، توجهت نحو المغسلة وغسلت وجهها بالماء البارد.

حقيقة الأمر أني قد لمت نفسي لأنني أفسدت عليها متعتها وجعلتها تستاء مني، ولكن فكرت في الأمر، لم يكن ينبغي علي أن أقربها مني أكثر مما ينبغي، وبعد أن تصبح مقربة مني بشدة، تسمح لنفسها أن تأتي وتجلس فوق أكتافي وتدلي قدميها من على طرفي رقبتي، ومن ثم تبدأ بتحقيري كشأن أغلب النساء اللواتي ما إن يحصلن على رجل حتى يُهرعن للركوب على أكتافه. إلى هذا الحد أصابها اليأس مني، فحين إغلاق المقهى ودعتني ومن ثم قطعت الطريق إلى تلك الجهة من الشارع، لتفتح باب العمارة وتدخل إلى منزلها، وكلما تلاقت نظراتنا كانت تنظر إلى وكأنها تقول، أعلم ما يجب القيام به الآن، وكان يبدو عليها القوة والحزن في آن معاً.

لديها كل الحق، فأي رجل آخر غيري، الذي لا يمكنه أن يبدل شعرة واحدة معفنة وسخة من شعر بريسما بألف امرأة أخرى من مثل مونيكا بلوتشي، لهذه الدرجة أحمق ليتجاهل كريمة فوق وجه فتاة لديها هذه الشفاه وهذا الفم، وتلك الأسنان المتراصفة كحبات اللؤلؤ، وتنتظر منك أن تمرر أصبعك على الكريمة التي على وجهها؟!، وفوق هذا كله، يعطيها في يدها منديلاً ورقياً كان يريد أن يستخدمه هو؟!

أريد القول إنه يجب أن تكونوا في صفي أنا، فأنا غير مستعد لأستبدل حتى ذكرى واحدة من امرأة كلما تشاجرت معي كانت تختار فندقاً رخيص الإقامة، حتى لا أدفع مبلغاً كبيراً من المال في اليوم التالي عندما أذهب في إثرها، مثل هذه المرأة لن أستبدلها بأي امرأة أخرى في العالم، حتى ولكانت تحقر من شأني بأني لست مثل الأمراء في كتب قصصها الطفولية.

الهيئة العامة السورية للكتاب

تعال، متى ما تشاء، تعال

حين وصولي للبيت، كانت وردة الضفيرة قد أوت للتو إلى سريرها، وحالما سمعت صوت دوران المفتاح في قفل الباب هُرعت نحو الباب لتوصل نفسها إليه قبل أن أفتحه أنا فتفتحه لي، وتلقي بنفسها دفعة واحدة بين أحضاني، وحسب طقوسنا الدائمة تعقف قدميها حول خصري وتسمح لي أن أقبل أسفل حلقها، والذي كنت أعشق نعومته المفرطة ولم أكن لأقايضه بأي شيء آخر في الدنيا.

وأخيراً قبلت أن تنزل عن أكتافي، فحالما انحنيت نحو الأسفل لتتمكن من أن تطأ قدماها على الأرض، أفلتت يديها اللتين كورتهما حول رقبتي، وكم كانت سعيدة وهي تخبرني خبراً حصرياً.. هل تصدق؟! لقد كانت أمي هنا؟

قلت: حقاً.. لا بد أنك تمزحين.

قالت: لقد كان أمراً ممتعاً، ألا يمكنها أن تأتي كل يوم؟

قلت: لو كان بإمكانها أن تأتي كل يوم لما كانت قد ذهبت أبداً.

قالت: كم هو أمر سيئ، عقدت حاجبيها ولوت شفتيها وفمها، مثلاً لتظهر حالة الحزن التي تملكتها وكانت تتأملني من خلف عيونها وكأنها تطلب مني أن أنسق الأمر حتى تتمكن من رؤية والدتها كل يوم في منزلنا، وإن لم أرضخ لطلبها فسوف تتضايق مني بشدة.

حينما كنت أخلع معطفي وقبعتي لأعلقهما على العلاقة، بدأت تسرد لي الأعمال التي أنجزتها وأمها، قالت: في البداية رتبتا غرفتها معاً، ومن ثم وضعتا الألعاب في الطبقة العلوية من خزانتها، فجميع العرائس والألعاب كانت على الأرض ولم يسمح حجمها الضئيل بأن تضعها في مكانها من جديد، ثم ذهبتا إلى المطبخ، وسخنتا يخنة الخوخ مع الحمص، التي كانت قد أحضرتها أمها معها، ومن ثم جلستا وأكلتاها إلى آخر لقمة فلم يتركوا لي ولو لقمة واحدة منها على الرغم من معرفتهما بمقدار محبتي لهذا الطعام، فأنا مستعد لأضحي بحياتي لأجله، ولكن قبل هذا كله اتصلوا على بائع الكباب وألغوا طلبهم، لأن أم وردة الضفيرة أتت وقد أحضرت لها يخنة الخوخ مع الحمص، ثم جلستا على الكنبة، وبينما هي في أحضان أمها، أخذت تقص عليها قصة من كتاب ثلاثي الأبعاد، نفس القصة التي يذهب فيها هانسل وغرتل إلى داخل كعكة الكريمة المصنوعة على شكل بيت، وكنت قد قرأتها لها مرات عديدة، ولكن أمها كانت تقرؤها لها بشكل مختلف تشعر معه وردة بأنها بحق قد ذهبت بنفسها إلى داخل كعكة الكريمة إذ كثيراً ما كانت تلتفت نحو أمها وتقول: أمي دعينا لا نجلس قريباً من المدفأة لئلا تذوب الكريمة، ومن ثم تضحكان معاً مما قالته وردة، لقد كاد يغمى على مامان بري من شدة الضحك، من ثم ذهبتا ورتبتا ملابس وردة، ووضعتاها في أدراج خزانتها، لقد رتبتاها بشكل فصلتا فيه الملابس الداخلية عن الخارجية، فيغدو البحث عن الملابس أيسر، بعدها أدخلت الأم رأسها في داخل خزانة وردة الضفيرة، وأخذت تشم ملابسها التي تخلعها على عجل، حالما تصل من المدرسة، ثم تعلقها، وقالت: إنها تود لو يبقى رأسها داخل الخزانة ويا ليته كان ممكناً لو تملأ قارورة عطر منها وتأخذها معها. من ثم قالت لوردة الضفيرة، اذهبي وشاهدي برامج الأطفال، فسألتها وردة إلى أن تريد أين تذهب هي، أجابتها بأنها تريد أن تجلس في خزانة والدها لتشتم رائحتها.

كان عملاً تقليداً في منزلنا، فكلما اشتاق أحدنا للآخر، كان يدخل إلى خزانته ولعدة دقائق كان يشتم رائحة كل شيء فيها، ويملأ رئتيه من عطر لباسه.

تريدون الحقيقة، تنبهنا للأمر أول مرة عندما ذهبت وردة لزيارة جدها من أمها «بابا حسين»، فوردة تناديه هكذا ولا تقول له جدي، لذا عندما تتحدث عنه نفهم بأنها تتحدث عن والد أمها وليس عن والد أبيها.

أغلب ظني أنه كان في غروب يوم خريفي كئيب، كنا أنا وبريسما نجلس أمام التلفاز، وفجأة انهمرت الدموع من عينيها على وجنتيها، فسألتها لماذا تبكي مثل مطر الربيع، فأجابت بأنها تشتاق لوردة، وأنها ستموت كمداً على فراقها، لأنه لم يحدث قط أن ابتعدت عنا وردة كل هذه المدة.

سألت: هل تريدين أن أتصل بها؟

أجابت: لا، منذ نصف ساعة تحدثت إليها.

هذا ما جرى، ذهبتُ إلى غرفة وردة وعدت وقد أحضرت من خزانتها رداءً أخضر قديم يعود إلى وردة أيام ما كانت طفلة، وحتى الآن لم نفكر أن نغسله في غسالتنا ستينك هاوس، أعطيته لبريسما وقلت لها: تعالي، وشميه، فتظني بأنها هنا إلى جانبك. أخذت مني الرداء وبدأت تشتمه، تحسن حالها عما كان عليه من قبل، التفتت نحوي وسألتني وكأنها تريد مني معلومة ما، قالت: أنت دائماً تفعل هذا، أليس كذلك؟

قلت: أجل، من أين عرفت؟

قالت: لأنني لم أرك يوماً تشتاق لنا.

منذ ذلك اليوم أصبح هذا الأمر معهوداً في منزلنا، فإن غاب أحد منا عن المنزل واشتاق له الآخر، لإزالة الشوق كاملاً، كان يدخل إلى خزانة غرفته

ويركع على أرضيتها ويشتم رائحة هوائها، بحيث، مرة - في الآونة الأخيرة عندما غادرت بريسما - في ليلة عدت من المقهى ولم أر وردة الضفيرة لا على تختها ولا على تختنا، ففهمت أن علي أن أجدها في خزانة أمها، وهذا ما فعلته، ذهبت وفتحت خزانة بريسما، رأيت وردة الضفيرة قد غافلها النوم هناك، وضعت رأسها على دب أبيض بحجمها، واحتضنت كنزة أمها الصوفية الملأى بالنقوش، وعلى ما يبدو أن بريسما كانت قد نسيتها في مكان ما عند مغادرتها للمنزل، نفس الكنزة الصوفية التي كلما كانت ترتديها وتضع قبعتها المنسوجة من نفس الصوف على رأسها، وتخرج خصلات شعرها العسلية من تحتها، ليتدلى من على كتفها إلى خصرها تقريباً، كلما فعلت هذا كانت تشبه المتزلجات السويديات اللواتي يذهبن في الأيام المشمسة للتزلج وعندما ينزلن عن المترفعات تتموج شعورهن تحت ضربات الرياح، وأحياناً ترجع إلى الخلف فتلتصق بنظارتهن الشمسية الجميلة، فتنعدم الرؤية أمامهن فيرتطمن في منتصف مسيرهن بالثلج فوق الأرض، ويبدأن ينقلبن فوقه فاقدات أي إرادة في السيطرة على أنفسهن -مع ألواح التزلج التي تنقذف إلى جانب آخر- حتى يصلن إلى أسفل ساحة التزلج، على أي حال، عندما كانت ترتدي هذه الكنزة كانت تصبح شبيهة بالمتزلجات كما قلت لكم، ولكنها لم تكن تعرف شيئاً عن التزلج أضف إلى ذلك عندما كان ينزل الثلج ويغطي الأرض إلى ساق الإنسان فما أعلى، كان عليك أن تمسك يدها لتتمكن من السير عدة خطوات فوقه، ولو مهما حاولت وتضرعت فإنها لن تخرج أبداً في آخر الليل لتصنع معك ومع وردة رجل الثلج.

أريد القول: إنها دائماً تعاني البرد، وليست مستعدة لأن تنهض من أمام المدفأة حتى ولو كانت توشك أن تنطفئ، لذا لطالما سألتها عند هطل الثلج أن

تخبرني الحقيقة، هل تحبني أكثر أنا أم المدفأة؟ ولم تكن يوماً لتقول: أنت، ولكن كانت أغلب الوقت تقول لي بدم بارد: الآن وفي هذه اللحظة، أحب المدفأة.

كثيراً ما كان يحدث أن كنا أنا ووردة نتوسلها من أجل أن تأتي معنا وتلعب بالثلج، ولكن لم يحدث قط، فكانت دائماً تجلس في مكانها أمام المدفأة، وإن حدث وأن أرادت أن تلاطفنا كانت تقف خلف النافذة وتصفق لي ولوردة، لأننا كنا نصنع كرات الثلج ونضربها على رأس أحدنا الآخر، أو كنا نضع الجزر على وجه رجلنا الثلجي، أي إننا قد صنعنا له أنفاً، تصفق لنا ومن ثم تضع يديها أسفل إبطيها.

وحتى أمام المدفأة كانت تبدو وكأنها تعاني البرد، وإلا فما الداعي أن تجعل يديها تحت إبطيها في المنزل لتشعر أكثر بالدفء، ربما كانت تتخيل نفسها معنا في ساحة المنزل وتحت الثلج لذلك كانت تشعر بالبرد، أو على الأقل هذا ما كان يترأى لها، ما يدريني، على كل حال، لم أصل يوماً إلى نتيجة واضحة وقطعية حول هذا الأمر.

عندما أوت وردة الضفيرة إلى فراشها، تناولت الهاتف وذهبت إلى جانب النافذة، تماماً المكان نفسه الذي كانت تقف بريسما فيه أغلب الوقت، وحقاً كانت تشبه جيمس غندولفيني في فيلم القلعة الأخيرة، فكان دائماً يقف خلف نافذة غرفته المشرفة على ساحة السجن، يترصد روبرت ريدفورد، فلا سمح الله أن يلقي خطاباً تحريضياً، ولا يتمكن من أن يراه، وأن يقمع الشغب قبل أن يتفاقم الأمر، كانت بريسما تقف على هذا النحو تتأملنا أنا ووردة نرمي مخاوف السنين وراء ظهرنا.

وطبعاً، لا يخلو الأمر من أن تصفق لنا أحياناً أو أن تفتح النافذة وتطلب من وردة التي ترتدي قبعة صوفية يدوية الحياكة على رأسها، هذا لا يمنعها من أن تقول: اسحبي معطفك فوق رأسك هل تسمعينني يا وردة؟.. وليس مهماً إن كان هناك من الأساس قبعة على رأسها، اسحبي المعطف أيضاً، أو تطلب مني أن أحكم عقدة شال وردة الذي ما انفك يتراخى عن رقبتها حتى كاد يسقط، وإلا فإن الرياح ستدخل إلى رأسها وصدرها ومن جديد سوف تلتهب لوزتيها، فتبدأ الشكوى من أنها لا يمكنها أن تتحمل مرض أحدهم.

هاتفتها وعاتبتها أنه من غير العدل، أنها تستطيع أن تأتي إلى منزلنا وتذهب إلى خزانتنا، ونحن لا نملك مثل هذه الفرصة أن نذهب إلى منزلها لنفعل الشيء نفسه.

قالت: تعال، متى ما أردت تعال.

الهيئة العامة السورية للكتاب

لفافة السجائر

واحد من أولئك الذين كنت أستثنيهم من قانون الجلوس والحديث معي خلف طاولة البار وإضافة ذلك إلى الحساب، هو رجل كبير في السن، بائع جرائد صاحب عزيمة، فكان كلما باع ما بحوزته من الجرائد يخصني بالجريدة الأخيرة.

دائماً يضعها فوق الطاولة أو في مكان ما من ثم يأتي إلى جانبي يحدثني بينما أقوم بأعمالي، يحدثني بأي شيء يريده، أريد القول: إنني لم أكن يوماً مهتماً بأن أعرف طبيعة عمله، مثلاً ماذا كان عمله السابق؟ ولماذا هو الآن بائع جرائد؟

فمن خلال طريقة كلامه وكيفية جلوسه فوق كرسي كانتر البار، كان كل من يراه يدرك أنه إما أنه اختار هذا العمل عن قلة حيلة وفقر، وإما اختاره لأنه أحب في هذه المرحلة العمرية مرحلة الشيخوخة، التي لا يمكنه أن يختار فيها عملاً آخر، اختار هذا العمل.

وإلا فإنه من الواضح من طريقة جلوسه واضعاً القدم فوق القدم، أنه كان يوماً شخصاً مهماً، وحذاؤه الذي ينتعله يؤكد هذا الأمر، من أولئك الأتراك الذين على الرغم من مضي السنين ما زال محتفظاً بقوته ولم يرمه الزمن.

وهو لا يبيع الجرائد وحسب، أي يحدث كثيراً أن يضع يده في جيبه ويخرج منها أشياء يريكم إياه ومن الممكن أنكم بحثتم عنها وقتاً طويلاً ولم يخطر ببالكم أنه يمكنكم أن تجدوها عنده، أو أن تحصلوا عليها في يوم من الأيام.

مرة أتى إلى البار وضع جريدتي فوق كانتر البار دس يده في جيبه، وأخرج من الجيب الجانبية لمعطفه لفافة سجائر فضية روسية الصنع صبت صورة القصير الروسي عليها، وأراني إياها، وأنا بدوري أمسكتها بيدي لنحو النصف ساعة وأخذت أقلبها هذا وذاك الطرف، وقلبي لا يرغب في أن أعيدها إليه، وكم تمنيت لو كانت لي، أي ألف بها سجائري، فأظن نفسي تشيخوف أو بولغاغف كاتب «قلب الكلب» التي قرأها أكثر من ستين مرة، وإن تأتى لي سأقرؤها من جديد لستين مرة أخريات، وأوصي الجميع أن يقرؤوها على الأقل عشراً إلى عشرين مرة.

هذا ما حدث، سألته من أين ابتعها فأذهب أنا أيضاً إلى هناك وأشتري واحدة لنفسي، ضحك وقال لي: إنه من الصعب إيجاد مثلها في الوقت الحالي، وتابع قائلاً: طبعاً النسخة الصينية منها موجودة في السوق حدث ولا حرج، ولكن إن أردت الروسي منها عليك أن تسير بين الأزقة تنادي على الجرائد، فربما تخرج لك سيدة مسنة من منزلها، وتعجب بك، فتقول لك تمهل قليلاً هاهنا لا تذهب لدي شيء لأجلك، شيء معتبر،.. أخبرني هل تدخن السجائر؟،.. فتقول أنت: هل هذا واضح من أسناني؟

فتجيبك المرأة المسنة: تقول الحق، لماذا لم أفكر بهذا الأمر أن ألقي نظرة على أسنانك، انتظر هنا.. سأعود حالاً.

تستغرق عودتها وقتاً فتحدثك نفسك بأنها قد لا تعود، أو تسأل نفسك هل يمكن أن تعود؟ ولكن عندما ترجع تحضر لك لفافة السجائر هذه التي لا تعرف كيف تستخدمها إطلاقاً،.. فتقول للمرأة والآن أخبريني يا أختاه كيف يلفون بها السجائر؟ فترجع وتقول لك: وأنا من أين لي أن أعلم؟! فليرحم الله

روح زوجي فهو من كان يلف بها سجائره، ولم يعلمني يوماً الطريقة، فدائماً كان يذهب إلى ساحة المنزل ليعمر سيجارته، وأنا لم يساورني الفضول حول الأمر، وإن أردت فعليك أن تتعلم بنفسك الطريقة يا سيدي الحاج.

من ثم عاودت وسألتني: ما خطبك؟

قلت: هل تريدين ثمنها؟

قالت: ولم لا، هل تظن أنني وجدتها على قارعة الطريق؟

سألته وأنا أنحني فوق البار ليصبح معظم ثقل جسمي فوقه: والآن كم قيمتها؟

قال: بنظرك كم تستحق؟.

قلت: هل لديك نية بالبيع؟.

قال: هي قطعة قديمة.

قلت: لا تبدأ برفع السعر.

قال: لا يحتاج الأمر، إنها لي.. لو تفضلت أسكب لي كأساً من الشاي، لقد جف حلقي من كثرة ما ناديت: جريدة.

سكبت الماء المغلي في فنجان أبيض كبير، ومن ثم فتحت خيط ظرف شاي اللبتون، وألقيته في الفنجان ووضعته بالقرب من يده، التي كانت تمسك بالسيجار الرخيص الرفيع الذي وضعه بين طبقات أصابعه النحيلة المرتعشة، كان دخانه المتكاثف والمزعج يدور ويلتف من حوله، ومن ثم يتصاعد نحو الأعلى، أو كان ينام فوق صفحات جرائد لوفيغارو واللوموند أو الغارديان

التي جعلتهم يلصقونها فوق أو بعضها إلى جانب بعض على الجدران وسقف المقهى، حتى أعطى لمقهى البيانو هويته الخاصة التي لا يمكن أن توجد في أي مكان آخر، بتلقائية ودونما تكلف.

عندما تسكبون الشاي للسيد دبيري، فإنه لا يلمسها لمدة من الزمن فيتركها لتخرج عصارة أسفل الفنجان بشكل جيد منها، فيصبح أسفله متكاثفاً، عندها يأخذ ورقة ظرف الشاي المعلقة بالخيط ويهزه مثل الباندول ليصبح محتوى الفنجان من لون واحد، ويتمكن من تناوله.

وصلت صفورا في اللحظة نفسها التي كنت أضع فيها السكر إلى جانب يد السيد دبيري، سلمت علينا، ودخلت البار، حملت الجريدة، ألقت نظرة عليها، ومن ثم قلت: تفضل وانظر إلى العناوين، فيها خطأ، ووضعت الجريدة من يدها فوق لوح البار بحيث أستطيع أن أرى بنفسي ما كتبوا: «تراجع أوربا عن التهديدات التي لا أساس لها».

علقت صفورا حقيبتها على العلاقة التي أصبحت الآن تقريباً ملكاً لها، فكلما وضعنا أنا أو وردة عليها شيئاً كانت تتناوله وتضعه على العلاقة الخاصة بنا، من ثم أتت والتحقت بجمعنا.

هذا ما جرى، أريتها لفافة السجائر وسألتها: كم تساوي في رأيك؟

سألت: هل تريد شراءها؟

قلت: أجل، لطالما وددت أن يكون لدي واحدة.

هزت رأسها في إشارة لعدم معرفتها، ورفعت أكتافها نحو الأعلى وقالت: لا يجب أن يكون أكثر من ثلاثة أو أربعة تومانات.

قلت: إنها أنتيكا.

قالت: إذن عمرها قصير.

سألت: أنى لك أن تعرفي؟.. هذه اللفافات لا تبلى، ضعي القليل من التوتون ومن ثم لفي السيجارة، وضعت صفورا ورقة فوق قالب اللفافة بحيث يدور قليلاً في يدي، وأتمكن من أن أشاهد بنفسي، وقالت: انظر إلى مدحرجها لقد أصبح مكانه واسعاً.

قاطعها دبيري قائلاً: هل تضحك علينا هذه السيدة، لا عيب في اللفافة، لقد أخبرتني المرأة المسنة أن زوجها ظل يلف بها السجائر إلى آخر يوم من عمره. قرب فنجان الشاي من فمه وقبل أن يرتشف منه تابع: لقد أصبحت أكثر مرونة وحسب يا سيدتي، تحتاج لمن يهتم بها، وبعد أن رطب شفاهه برشفه من الشاي، قال: أقول.. كم هن متميزات تلك العجائز اللواتي يخاطبن أزواجهن فتقلن: «سيدي»... هل سمعت مؤخرا سيدة من نساء هذا العصر تخاطب زوجها سيدي؟ زوجتي من تلك النساء القديمات، ابنة أصل وشجاعة وصاحبة عزيمة.

ضحكنا أنا وصفورا معاً، قلت: لا تضيع الموضوع، أخبرني كم سعرها؟

قال ديبري: ثمانية تومانات.

قلت: إنك تطلب سعراً غالياً.

قال: ليس كما طلبت أنت ولا السيدة، أعطني ستة تومانات، وبارك الله لك فيها.

توجهت صفورا نحو آلة القهوة، وأنا وضعت يدي في صندوق المال أخرجت ستة تومانات جديدة ونظيفة أعطيتها للسيد دبيري، أخذها مني

وطواها وجعلها في جيب الساعة في سترته، فأغلب جواكيت المسنين فيها واحدة أو اثنتان من هذه الجيوب.

لكن جيب السيد دبيري لم يكن فيها ساعة وربما كان، ولكنني لم أره قط يضع يده في جيب ساعته ويخرج منها واحدة من تلك الساعات التي يفتح غطاؤها عن الجانب، وحينما يرغبون بالنظر إليها يرفعون رأسهم نحو الأعلى ويضيقون مجال الرؤية على عيونهم ليتمكنوا من رؤية عقارب الساعة الرفيعة بشكل أفضل، فيعرفوا كم الساعة، ويتذكروا أنهم قد جلسوا وقتاً طويلاً، والآن يجب عليهم الذهاب إلى حديقة المنزل لسقايتها.

عندما كان يضع النقود في جيبه قال: وكأن أحوال الدنيا قد ساءت بشدة، الجميع بدأ تختلط عليه الأمور ولم يبق شيء حتى يشتبك بعضهم ببعضٍ.

سألته: وكيف ذلك؟.. هل تريد المزيد من الشاي؟

حك ظاهر يده بلحيته الحديثة النمو، وقال: كل يصيح على الآخر، وفي مثل هذه الأوقات يكفي أن يضرب الجنون رأس أحدهم أو أن يوجد أحد ما «فلان»، لينهي حياة ولي عهد النمسا برمانة يدوية ابنة حرام، عندها لا يمكن لأي أحد أن يفهم إلى أين سيؤول الأمر، مرة انقلبت الدنيا رأساً على عقب هكذا ببساطة تامة.

سألته صفورا: هل يسمح عمرك بأن تكون أحد معاصري الحرب العالمية الثانية؟

أجاب دبيري: كان عمري ست سنوات، لقد خرجت عيون الأمة من أحداقها بسبب الجوع.

حملت صفورا لفافة السجائر وسألتني: هل اشتريتها في النهاية؟

قلت: بستة تومانات، ليس كما طلبتي وليس كما طلب السيد دبيري.

قالت صفورا: ولكن مدحرجها أصبح واسعاً.

قلت: تقصدين محملها؟

جعلت يدها على شكل قبضة، وبينما هي تضغط عليه قالت: والآن، مهما يكن.. لا أعتقد أنه يمكن أن يضغط التوتون داخله جيداً.

لذلك أحكمت قبضتها أكثر وضغطت لتبين لي ما ينبغي أن تفعله لفافة السجائر التي اشتريتها بالتوتون، ولكن على الأغلب أنها لن تفعل ذلك.

قال السيد دبيري بنبرة متوسلة: يا أختي، لا تدخلي فيما بيننا، ودعيني لأتكسب.. هل تعلمين أن شعر فرنغيس هوي لي أنا قد نظمته؟

قالت صفورا: أحقاً ما تقول؟

قال دبيري: أجل، والله، أنا أعطيته لقميشي، لقد غناها أيضاً عماد رام، ولكن من قميشي كانت أجمل.

التفت إلي صفورا وسألتني بتعجب: هل يتحدث بجدية السيد دبيري؟

أجبت: هو يدعي أنه يتحدث بجدية.

قال دبيري: في تلك الآونة كنت في طهران، زاوية زقاق ناهيد في شارع جمهوري، كان هناك مقهى محل نصرت رحماني، وكنت أذهب إلى هناك فربما أصبح مؤنساً له، في يوم من الأيام جاءت سيدة مسنة إلى المقهى، وجلست وطلبت فودكا، ثم أخرجت حبة بطاطا مطبوخة من جيبها ووضعتها على

الطاولة، كانت تجلس وجهها للجدار،.. أخذت تضرب البطاطا بقبضتها، وهي تقول مكرراً: فرنغيس أيتها الكافرة،.. فرنغيس يا نذلة،.. لقد دمرت حياتي، إن شاء الله أن تدمر حياتك يا فرنغيس،.. وأنا في لحظتها جلست ودونت الشعر.

في تلك الأيام كان قميشي لديه غرفة أعلى ذلك المقهى، وأحياناً كان فرهاد رحمه الله أيضاً يزوره، يلحنون ويغنون معاً،.. آه.. يا لها من ذكرى طيبة، ذهبت لمنزله وقرعت الجرس، جاء إلى خلف النافذة، فرآني، رمى لي المفتاح... كنت مستمتعاً للغاية وأنا أصعد الدرج درجتين درجتين.

فتحت باب الغرفة، دخلت بحذائي، جلست على سرير نابض، كان قد وضع وسط الغرفة عدد من الآلات الموسيقية من مثل البيانو، وغيتار، ودرامس، وآلات القرع وما يشبهها، كان فرهاد يجلس أمام السرير يعزف الغيتار ويدندن مع نفسه،.. في تلك الأيام كان يغني باللغة الأجنبية وكذلك كان قميشي.

أعطيته الشعر وطلبت إليه أن يلقي نظرة عليه، فالآن قد كتبته في المقهى في الأسفل، قرأه من مكانه، وفوراً ودون تأخير لحنه في أغنية، فلو لم يكن فرهاد في ذلك اليوم موجوداً في تلك الغرفة لما أبصرت أغنية فرنغيس النور..

وثم، وكأنه قد تملكته تلك الحالة فأخذ يغني أغنية فرنغيس...

ليل.. عندما يأتي المساء.. أين أنت... لم الحزن... السماء.. المطر.. تمطر..

ولكن لم يستمر بالغناء، وعوضاً عن ذلك قال: لقد غنى ألبوماً كاملاً بصعوبة، ولكن الشركات لم تشترها منه، فقط قبلوا أن تذاع أغنية واحدة وهي فرنغيس وليس أي أغنية أخرى.

لم يمض يومان، حتى كانت كل الأمة تتمتم بأغنية فرنغيس أينما ذهبت شارع الجمهورية، أم لاله زار، أم بهلوي، أم تجريش.

قالت صفورا التي كانت مستغرقة في كلام دبيري: لا أصدق هذا، يعني أنت من كتبت شعر فرنغيس؟

انزعج دبيري: بماذا كذبت يا أختي، إن لم تصدقي فاسأليه.

التفتت إلي صفورا وقالت: هل هي موجودة لديك لنسمعها؟

قلت: أجل، ينبغي أن تكون هناك في ذالك القرص الصلب الأبيض المرسوم علية فراشة.

أخذت صفورا تبحث عنه بين الأقراص الصلبة وفعلاً وجدته في علبة مطاطية، في مكان ما بجانب كيس الكمبيوتر، وبالتحديد تحت البار بحيث من الصعب رؤيته بهيئته الضخمة والمزعجة التي تضرب الذائقة.

حينما كنا أنا ودبيري نحسب نقود الجرائد من الشهر الماضي، سمعنا أغنية فرنغيس وقد بدأت تصدح باثة الحياة في فضاء المقهى البارد والميت، لذا إلى أن وصلت أغنية فرنغيس إلى آخرها وبالتدريج لم نعد مستغرقين بالأغنية التي تلتها، لا أنا ولا دبيري ولاصفورا ولا واحد منا لم ينطق بكلمة ولم ترف له عين.

طوال مدة الاستماع إلى الأغنية كانت عيون دبيري مغلقة، ولكأنه عاد في مخيلته إلى شارع جمهورية في سبعينيات القرن الماضي ولم يخرج عن ذلك الخيال الجميل والمتفرد الذي كنت أحسده عليه بشدة، خيال ذلك المقهى رأس زقاق ناهيد، وتلك الغرفة التي يسكنها قميشي فوق سقف المقهى، وفرهاد أيضاً الذي كان أحياناً يرى هناك، ولا بد أنه كان هناك عندما دندن مع نفسه لأول مرة:

أفك.. ر.. في.. سق.. ف...وا.. حد.. سق.. ف.. بدون.. فت.. حا.. ت..

ويفكر كيف يمكن لأحد أي كان أن يتمكن من أداء فكر وسقف بالطريقة التي أداها هو؟ والتفكير لماذا لم يعطه أحد الفرصة ليعلمنا كيف هو اللفظ الأمثل والصحيح للكلمات؟ تملكتني الغصة في أعماق قلبي وفجأة امتدت إلى كل يدي وأكتافي وكل ظهري، إلى درجة كنت مجبوراً على ترك المقهى، أمسكت بكلتا يدي غصنين من أغصان تلك الشجرة في تلك الجهة المقابلة من المقهى وأطرقت رأسي نحو الأسفل، وأفرغت غصتي وألمي فوق الأرض بنفس عميق.

خرج دبيري من المقهي ووضع يده على كتفيّ، ومن ثم سحبني بين ذراعيه، وعندها لم أستطع كبح جماح نفسي، وضعت رأسي على صدره وسكبت كل عقدي فوق سترته الباهتة اللون والتي تفرح منها رائحة السجائر الإيرانية الرخيصة، وكمن فقد أخاه أخذت بالبكاء والنحيب.

الهيئة العامة السورية للكتاب

في مثل هذه الأوقات
لا يجب أن تكوني حوله

منذ بكرة الصباح، كنت مجبوراً على الذهاب إلى محطة القطار في إثر بريسما التي كانت قد أتمت امتحانات الفصل الأخير، فجمعت كل أشيائها وحملتها وأحضرتها معها، هذا ما جرى، فلا يصح أن أطلب منها أن تأخذ سيارة وتأتي إلى البيت فقط لأنني في الليلة الماضية بقيت مستيقظاً إلى وقت متأخر فقد كنت أكتب القسم الثاني والعشرين من مقهى البيانو، وعند الساعة الثالثة والنصف صباحاً صعدت إلى الأعلى وتسللت إلى تحت اللحاف إلى جانب وردة التي عادة ما تنام بجواري فوق السرير عندما لا تكون والدتها هناك.

والآن كيف يمكنني أن أستيقظ من جديد في الساعة الخامسة والنصف صباحاً وأذهب في إثرها، وأحمل كل تلك الأحمال، وأجلبها إلى شقتنا، مع أن عيوني من شدة التعب لا تكاد تفتح، وأصبحت حمراء كالدم، حتى هي إن رأتني على هذه الحال ستتألم لحالي لأنها أحضرتني إلى محطة القطار في هذا الوقت الباكر من الصباح.

كل متاعها الذي أحضرته معها يتلخص في أربع حقائب عادية وحقيبة سفر، ولكن كأنها أعطتها ليملؤوها لها بالرصاص، فلقد كانت ثقيلة جداً إلى درجة كنت مجبوراً أن أدمر قيلولة أحد الحمالين في هذا الوقت

الباكر، هؤلاء الحمالون ممن يتقنون كيف ينامون على الواقف ولطالما أردت معرفة كيف يقومون بذلك، أزعجته عن قيلولته ليحمل لنا أمتعة بريسما إلى موقف محطة القطار إن أمكنه ذلك.

في السيارة، وبينما كانت تمضي بعيداً عن محطة القطار بعد نحو كيلومترين، قالت بريسما إنها منزعجة لعودتها من جديد لهذه المدينة الكئيبة وأيامها الثقيلة، التي يود فيها قلب المرء أن يموت، لذا وبأي شكل ممكن يجب أن تقبل في امتحان الدكتوراه حتى تعود من جديد إلى طهران، قلت لها إن عادت إلى طهران أفضل لي ولوردة الضفيرة، لأنه إن حدث هذا، لن نضطر إلى أن نتحمل كثيراً من أوامرها التي لا تنتهي، ولن تكون وردة الضفيرة مجبورة أن تدلك أصابع أقدامها بالكريم.

سألت متعجبة: ما علاقة الكريم بالأوامر؟

أخبرتها عندما حضرت المرة الماضية، وجلست فوق الكنبة تدلك أرجلها بالكريم ومستغرقة في قناة الموضة، وردة الضفيرة هي الأخرى تناولت الكريم، وأخذت تدهن كف قدمها، وحينما أخبرتها ألا تتعلمي هذه الأمور من أمك، فقد منحها الله بشرة دهنية، وعليك أن تدهينها بكريم يخفف من طبيعتها الدهنية. همست في أذني: أنا لا أدهن الكريم لئلا تجف بشرتي وتتشق، ولكن أفعل هذا لأتحجج مثل أمي، التي دائماً ما تقول للآخرين: لقد دهنت الكريم على قدمي إن سمحت ناولني التلفون.. أنا...ناولني المبرد الأظافر من فوق كُمدينة غرفتي... إذا سمحت، أسكب لي كأساً من الحليب وأحضره لي، وما يشبه ذلك من الأوامر الصغيرة التي لا تنتهي أبداً.

كان الصبح ومع أن كلينا كنا متعبين وبصعوبة كنا نفتح أعيننا، ضحكنا كثيراً، قالت بريسما: أيها الخبيث، سترى.

قلت: إنها مصادفة، فما فهمته الصغيرة كان في غاية الحكمة، حتى أنا لم أتخيل أي حيلة كنت تحتالين بها علينا من خلال دهن الكريم على قدميك،.. عشر سنوات وأنت بحيلتك هذه تحملين علي أكثر مما يحمل الرجل على الحمار.

وصلنا للمنزل، فتحت صندوق السيارة، ولكن ما إن هممت برفع واحدة من تلك الحقائب - والتي كان واضحاً أنها ملئتها بالكتب الثقيلة من تلك الكتب التي تضم ألفي صفحة أدبية عن «الأدب الفارسي القديم»، وشيء من هذا القبيل - رأيت أنه من المحال أن أستطيع أن أرفعها من مكانها، وأن أدخلها إلى المنزل، هذا ما جرى، قررت أن أخذها في وقت آخر.

وعندما ارتفع صوت بريسما معترضاً، قلت لها: لو حدث وتضرعت لي هنا في ساحة المنزل أمام عيون الجيران، الذين أيقظتهم صوت السيارة، وليس لدي أدنى شك من أنهم هُرعوا إلى خلف النافذة ليتجسسوا علينا، من المستحيل أن أحمل ولو حقيبة واحدة وأضعها على كتفي، ومثل الحمالين أنتعها إلى الطابق الثالث.

هي لم تشاهد يوماً كيف يضعها الحمال على ظهره، ويأخذها إلى الأعلى، المهم تركناها هناك وذهبنا إلى الأعلى، خلعنا ملابسنا، وتمددنا إلى جانب وردة الضفيرة ونمنا إلى الظهر، أي بالتحديد إلى أن أيقظنا صوت أورك وردة الضفيرة، التي تعمدت أن تحمله وتأتي به إلى فوق رؤوسنا، وتبدأ بإظهار فنها، ومهما توسلنا إليها أن تكف عن إنتاجها الفني المزعج وصوته المخرش للآذان، إلا أنها لم تكف، ولم تكف.

لم يكن باليد حيلة، استيقظنا، توجهنا أولاً نحو المطبخ أشعلنا الإبريق الكهربائي، ومن ثم غسلنا وجوهنا وتناولنا الفطور، انتهينا من الفطور، وعندها تسنى لبريسما أن تلقي نظرة على أرجاء المنزل، وبدأت بالشكوى، أنه سلم الله أيدينا على هذا المنزل الذي هيأناه لقدومها.

قالت وردة: وما شأني أنا.. كان اقتراح أبي!

سألتها بريسما: ما هو الذي كان اقتراح أبيك؟

قالت وردة: قال أبي: إنك قد أرسلت إيميلاً من موقع الجامعة تعلمينه عن وصولك في الصباح الباكر، وعندما تصلين لن يكون السوق مفتوحاً، وعلينا أن نرتب المنزل، ومن ثم قال تعالي لنرتب لها المنزل بحيث عندما تصل إلى المنزل تفرح من عملنا هذا.

قالت بريسما: حسناً... ومن ثم؟

قالت كلمة حسناً،... ومن ثم.. بحيث إنها تفهم ما الذي جرى بعد ذلك ولكنها أرادت أن تسمع الأمر من على لساننا، وعندما قالت حسناً.. ومن ثم.. نظرت إلي نظرة تهديد، أما أنا فقد كنت أضع الزبدة على خبزة التوست لأدهن فوقها المربى، وأعطيها لوردة التي كانت تحب هذا المزيج الثلاثي.

قالت وردة: حسناً.. ثم أخبرني أنه يمكنني اليوم عندما أعود من المدرسة أن ألقي ملابسي في أي مكان أريد، وأنا فعلت ذلك، قسماً بالله إنني أقول الصدق.

قالت بريسما: تابعي.. أخبريني.. إنني أسمع.

قالت وردة: حالما أنهينا طعامنا لم يغسل الأطباق، ووضع الخبز اليابس على أرضية المطبخ، ومن ثم طلب مني أن أوزعها بقدمي جيداً هنا وهناك، وأن أسحقها تحت قدمي بحيث تصبح فتاتاً.

نظرت إلي بريسما، فأطرقت نظري، ولكن كلامها كان مع وردة: يا للعجب!.. تابعي.. لقد بدأت القصة تزداد جمالاً كل دقيقة.

تناولت وردة سندويشة المربى من يدي، ولكنها لم تأكل منها ولا قضمة حتى انتهت من توضيح المسألة برمتها لأمها بشكل مفصل، لتعرف ما حصل بدقة، استمعي يا أمي لهذا الجزء من القصة.. عند العصر أحضر السكر والكريب فروت لنأكلها بالملعقة، وعندما كان يضع السكر على الكريب، لم يكن يأبه إن تساقط منه على الأرض، ومن ثم عندما أكلناها، قال: تعالي لنلقي القشور بعضنا على بعض، أنت إيران وأنا روما القصة.

قالت بريسما: روما القديمة وليس القصة،.. يا ليتني كنت هنا وشاركتكم اللعب، أرى أنكم قد استمتعتم كثيراً.. إنني لست امرأة، إن لم آخذ حقي منكم.

أخذت وردة قضمة من السندويشة وقالت: انظري، كل قطعة سقطت في مكان.

وبيدها أشارت إلى مكانهما، الأولى سقطت فوق طاولة التلفاز، والأخرى سقطت فوق أعمدة المدفأة، ولم يبق منها إلا جسدها المحترق، من مكاننا حيث نجلس في المطبخ نتناول الفطور، كانت كلتاهما ترى بشكل واضح، وبالتأكيد كان منظرهما منفراً لسيدة ندعوها أنا ووردة الضفيرة بين بعضنا «ملكة المكانس الكهربائية»، والآن لماذا ندعوها هكذا؟ لأنها دائماً تنشغل بالكنس، ودائماً تبعد عن قدمها خرطوم المكنسة الذي يلتف حولها، أو تسحبه من الكهرباء، أو تصل البريز بالكهرباء، أو تضع قدمها على دواسة المكنسة الكهربائية التي ما إن تضع قدمك عليها حتى يتجمع شريطها الطويل ومثل البكرة يلتف حول نفسه.

لقب ملكة المكنسة الكهربائية منحناها إياه في وقت كانت تضع يدها على خصرها، وفي يدها خرطوم المكنسة الكهربائية، وقد وضعت قدمها فوق الدواسة التي تجمع الشريط كالمتصرين، وعندما انسحب الشريط إلى داخل المكنسة، كانت تتأمله من الأعلى بغرور محارب قديم، ينظر من فوق مرتفع ما إلى المنطقة التي استولى عليها، تفحصت أرجاء المنزل بعينيها، فلا سمح الله، أن يكون مكان قد أفلت من قبضة المكنسة الكهربائية.

وبينما كانت ما تزال على وضعها هذا، تمددت على الأرض والتقطت لها صورة بجوالي، وطلبت من وردة الضفيرة أن تلقي نظرة عليها، ومن ثم سألتها ما هو الاسم الأنسب لهذه الصورة؟، عندها قالت وردة: ملكة المكنسة الكهربائية، كيف هو؟

وبقي هذا الاسم ملازماً لها، مع اختلاف بسيط بأنه وبمرور الزمن أصبح اكثر تكاملاً من قبل، أي في يوم من الأيام، قررنا أن نضيف علامة الجمع إليه، فلا نحد مجال حكومتها فقط بالمكنسة الكهربائية ماركة بارس خزر - التي في وقت ما علق الكيس بداخلها ولم تستطع بريسما يومئذٍ أن تفتك بالبيت ولو لدقيقة واحدة- هذا ما حدث، منذ ذلك اليوم ببعد كنا نناديها: «ملكة المكانس الكهربائية»، الآن وبعد غياب عادت «ملكة المكانس الكهربائية» إلى بيتها ووجدت نفسها في مواجهة كارثة حقيقة، رتبت ونفذت عمداً ترحيباً بعودتها إلى المنزل.

كنت أضحك بهدوء، وأهيأ نفسي لسماع شكوى بريسما، واستعد لأضحك من كل قلبي على تصورها الساذج في القطار، من أننا حتماً استجبنا لطلباتها ورتبنا المنزل احتفاءً بقدومها.

لكن وردة لم تكن ترغب بالتوقف عن تقديم تقرير لأمها، وما زالت مشغولة بسرد ما حدث، وما هي الأشياء الأخرى التي فعلناها،.. قالت: وأكثر، يجب أن تذهبي وتنظري إلى غرفتي، كل ما في الخزانة مبعثر على الأرض، لعبة البازل، وبقية الألعاب، كل ما يمكن أن تفكري به الآن مرمي على الأرض.. اللوم كله يقع على أبي.

قالت بريسما: سأنزع جلداً من كليكما، لتكونا عبرة.

في لحظتها نهضت من مكانها، وذهبت وأحضرت المكنسة الكهربائية، التي لا أشك أبداً أنها تحبها أكثر مني، ويود قلبها لو كانت أكثر قوة واقتلاعاً مما هي عليه الآن، ناولتني إياها في يدي لأكنس في الحال كل البيت، حتى تحت الفرش واحدة واحدة.

اصطحبت وردة إلى غرفتها وأغلقت الباب في وجهها وقالت: إن لم ترتب غرفتها بشكل كامل ليس لها الحق في أن تخرج من غرفتها، أما هي فقد دخلت المطبخ وانقضت على الرفوف، ولا أعلم سبب العداوة معها، فلا يمر يوم دون أن تنظفها بواحدة من إسفنجات برايت الأصلية الغالية الثمن.

في النهاية وقت الغروب، انتهت جولة تنظيف المنزل التحذيرية، جلست فوق الكنبة فلم أكن أقدر على الوقوف على قدمي، من كثرة ما ذهبت من هذه الزاوية إلى تلك لأكنسها، ومن ثم أمسحها بالمناديل، وأخذت أقرأ الجريدة.

جلست وردة الضفيرة فوق واحد من كراسي السفرة، كانت تكتب واجباتها المدرسية، وبريسما حسب المتعارف عليه كانت غارقة في قلب الصوفا، تدلك أقدامها بالكريم في مراسم وطقوس خاصة، مراسم وآداب

خاصة تستمر على الأقل لعشرين دقيقة، وتمهد الطريق لطلباتها، فما إن يهم أحدنا بالوقوف، حتى تطلب منه أن يذهب ويسكب لها كأساً من الحليب من علبة الحليب في البراد، ويعطيها إياه لتشربه، لماذا؟ لأن أقدامها مدهونة ولا يمكنها لبعض الوقت أن تضع أقدامها على السيراميك، ورسوم وآداب تستغرق وقتاً أكثر من المعتاد والمدة المتعارف عليها ليمتص جلد الإنسان الكريم، أكثر بكثير.

كان الوقت مناسباً لتسألني عن رواية مقهى البيانو، فسألتني: إلى أين وصلت؟.. ما أخبار علي؟.. وتلك الفتاة المؤدية ماذا حل بها؟ ماذا حدث لهمايون؟ ما الجديد حول السيد باربد وأمه؟ أسئلة من هذا القبيل.

قلت لها: إن الوقت مناسب لأعطيها لتقرأ الاثنين والعشرين جزءً التي إلى يوم الأمس كنت قد كتبتها، هذا ما جرى، ذهبت وأحضرت لها النسخة الورقية التي كنت قد طبعتها في وقت سابق ووضعتها أعلى المكتبة، وناولتها إياها، في الأسبوعين الماضيين كانت قد قرأت إلى الجزء الثاني عشر وقال: إنها قصة جيدة.

حسناً، هي أيضاً مشروع راوية،.. فإن قالت: إنها ستكون رواية جيدة فمن الممكن الأخذ برأيها، ولكن ما إن ناولتها القصة في يدها حتى قالت لي بما أنني واقف فلأتطلف وأسكب لها كأساً من الحليب، فقد وضعت الكريم على قدمها لذا لا تستطيع أن تمشي فوق السيراميك.

نظرت إلى وردة بتلصص، وابتسمت ضاحكة، وقالت دون أن تسمعها أمها: في مثل هذه الأوقات لا يجب أن تكون بجوارها، لم تفهم هذا الأمر إلى الآن أيها المسكين.

إحساسي يخبرني
أنها فتاة حقيقية

بالنسبة لبريسما التي تقرأ ترهات الكتب التي تقع في ألفي صفحة، التي لا يحتمل المرء محتوياتها، بالنسبة لها أن تجلس وتقرأ بجلسة واحدة اثني عشر فصلاً قصيراً من قصة طويلة بهذا الجمال والإثارة، لم تقرأ مثيلاً لها في أي مكان، ليس بالأمر الصعب ولا يتطلب منها الكثير من الوقت.

وسواء أردت أم لا، هذا العمل كغيره من أعمالها الأخرى كسريان الدم في جسدها، كتنفسها، كتفكيرها، وكأشياء كثيرة أخرى، سينجز ببطء، فدائماً ما كنت أمازحها فأقول، عندما خلقها الله لا بد أنه وضع جهازها على ضغط خفيف، لأنه لو أعطيتموها أصبعكم وطلبتم منها أن تضغط عليه، ستضغط بشكل يثير ضحككم، لا تصدقون بأن شخصاً بطولها وشكلها، لا يمكنه أن يضغط أكثر على إصبعكم، أي بصدق، حتى عندما تريد أن تكتب شيئاً وكأنها فقط أرادت أن تترك لها أثراً، أريد القول، إلى هذه الدرجة لا يمكنها أن تضغط على نفسها.

هي باردة في إنجاز الأعمال، فما يستغرق من الآخرين إنجازه من خمس عشرة إلى عشرين دقيقة، يستغرق منها على الأقل ساعة كاملة، من أمثلة غسيل الأطباق بعد العشاء أو الغداء، فإلى أن تنتهي نكون أنا ووردة قد مللنا، وعندما تنضم إلينا نكون قد نعسنا، ويجب أن نخلد للنوم، أو كما كانت تقول وردة حينما كانت طفلة: «نانا».

وبينما هي تتصفح الصفحات المطبوعة، وتنظر إلى القصص واحدة واحدة، كانت تنظر إلي من تحت عينيها، كنت أفكر في أنها عندما تتخطى الجزء الرابع عشر وما بعد ألا تفكر مع نفسها ولو للحظة هل صفورا هي شخص حقيقي وتخطط لاصطياد زوجي؟ أو يمر في خيالها كم أنا حمارة لأنني تركت كل شيء وذهبت إلى طهران لأنال شهادة الماجستير، فيزداد راتبي من عشرين إلى ثلاثين تومان، ودائماً تلوم نفسها لماذا ذهبت لأنال الماجستير، هل كنت سأموت لو جلست في منزلي بالقرب من قلب زوجي وحافظت عليه بقوة؟

من الممكن أنه كانت غارقة في أفكارها النسائية عندما هاتفني علي -نفس الشخص الذي سبق أن حدثتكم عنه، كم هو شخص حسن وسيد بكل معنى الكلمة، وقبل أن يخرج من المنزل لا يضع خنجراً على خصره فيشق به بطن هذا أو ذاك دون سبب ويستمتع بذلك - هاتفني ليقول لي: أنه في الجزء الذي تلا خروج صفورا من مقهاي، وإحضارها مفتاح القفص من منزلها، كان يتوقع منطقياً أن تأخذ الأمور منحىً عاطفياً أكثر جدية، ولكن ما أثار عجبه أنه رأى صفورا قد أتت في اليوم التالي للمقهى وكأن شيئاً لم يكن، وأخذت تعمل في المقهى، لقد قال منحىً عاطفياً أكثر جدية بحيث ضحكنا كلانا من طبيعية ذلك المنحى الذي كان يتوقعه أو يتخيله، ولكن لم يظهر أحدنا للآخر هذا الأمر.

كنت أوضح لعلي أن هذه هي طريقة اللعب عند صفورا، تبدأ من أعلى مستوى، وفجأة تهوي بك إلى أدنى مستوى، ومن جديد بهدوء تصعد بك نحو الأعلى، هكذا تريد أن تفهم قصتي، بأن آخر اللعبة في نظره أين يجب أن تكون، أو في الحقيقة هو موجود، ولكن يأتي ويقف فوق أسفل نقطة حتى يثبت له كيف على الرغم من أن مقهاي يعلم النهاية وخاتمتها، ولكن لا يستطيع أن يفعل شيئاً حيال الأمر، ويجب أن يستسلم للعبة صفورا.

في اللحظة نفسها التي كنت أوضح فيها الأمر لعلي، كانت بريسما تصلي صلاة المغرب والعشاء، ولكن حالما أنهت صلاة المغرب قالت: هل تراهن أن صفورا هذه فتاة واقعية؟

وبينما تملكني الضحك من قولها، طلبت من علي أن ينتظر قليلاً لأن الأمور بيني وبين بريسما بسبب تلك الفتاة أخذت تنحو منحىً وخيماً، وبدأت جذور القصة تنمو، عندها قلت لبريسما: أكملي صلاتك، إن سمحت، ولا تتدخلي في جدال الرجال الأدبي.

كان علي يضحك عبر سماعة الهاتف، وقال: صادف أنني أردت سؤالك حول هذا الأمر، أي أنت وبريسما لم تتشاجرا يوماً بسبب هذه القصة والفتاة صفورا؟

قلت: إلى الآن لم يحدث، ولكن من الجزء الخامس عشر ببعد لا أعلم، فالفتاة بصدق بدأت تصدق الأمر.

لكن بريسما لم تكن لتكف عن الأمر، مع أن الابتسامة كانت لا تفارق محياها مع هذا كانت مصرة بأنه ليس لديها أدني شك من أن الفتاة حقيقية.

قلت لعلي: إن الأحداث أخذت تنحو منحىً جدياً، سأتصل بك لاحقاً، وضعت الهاتف من يدي، ونظرت إلى بريسما التي كانت ترتدي ثياب الصلاة وكانت تبدو أكثر من أي وقت مضى بريئة ولطيفة، ودون أن يكون على جسدها لباس الراهبات كانت أكثر من أي شخص تذكر المرء ببرناديت سوي.

قلت: لا تفقدي صوابك يا بري... هل جننت؟

وبينما هي في لباس الصلاة، جاءت وجلست فوق الكنبة بالقرب من يدي وقالت: إن أغلب شخصيات رواياتك أسماؤهن حقيقية، ويشبهون إلى حد كبير شخصياتهم على أرض الواقع، فقط هذه من بينهم خيالية، هل تريد مني أن أصدق هذا؟

قلت: حسناً، نعم، لأن القصة يجب أن يكون لها عقدة، فيلزم الأمر مني أن أدخل منافس امرأة إلى القصة، لذا كنت مجبوراً على خلقها.

قالت: ولكن من بين ثنايا الكلمات يفهم بأنك تميل إليها أكثر من زوجتك.

قلت: حسناً، أجل، يجب أن أبقي المخاطب في هذه المعمعة ما الذي سيحدث في النهاية، يجب أن يكون المخاطب أمام هذا الشك، بأن الراوي من سيختار في نهاية المطاف صفورا أم زوجته؟

سألت: أنت أم الراوي؟

انتبهت وردة إلى جدالنا، هذا ما جرى، تركت قلمها ودفترها وأتت إلى جانب أمها وألقت نفسها في أحضانها كقطة مغنجة، ودون أن تحظى باهتمام أي منا، سألت: أي جملة ممكن أن نشكلها من الكلمة (جميع).

هل جننت؟...حسب ما تزعمين، لا ينبغي لأي كاتب أن يجلس ويكتب قصة، لأنه من الممكن أن تتساءل زوجته، هل يمكن أن يكون البطل زوجي وهل يعقل أن تكون هذه المرأة منافستي؟

قالت: ولكن في أعمال أولئك الكتاب كل الشخصيات خيالية لا تمت للواقع بصلة، من تأليفهم.

قلت: من أين لك أن تعرفي هذا، هل أطلعوكِ على الأمر واحداً واحداً؟

لم تعرف بماذا تجيب، لذلك نهضت وذهبت لتقف وتصلي صلاة العشاء، ولكن بينما هي تلف عباءة الصلاة حول رأسها، قالت: لا أعلم حول بقية الكتاب، ولكن قلبي يخبرني أن هذه الفتاة واقعية.

قلت: قلبك مخطئ، من أين لقلبك أن يخبرك مثل هذا الأمر، ما دليله؟

كانت قد استقامت ونوت التكبير للصلاة، ولكن أنزلت يداها وقالت: الليلة الماضية في القطار، في مقطورتنا، كانت هناك امرأة لم تتوقف عن النحيب والبكاء منذ بداية مسيرنا من طهران إلى هنا.

قلت: حسناً؟

قالت: إحدى السيدات علقت على الأمر... لماذا تبكي هذه السيدة بهذا الشكل، ما خطبها؟

قلت: حسناً؟

مجدداً، أتت وجلست على الكنبة، وتابعت: في نهاية الأمر عند بزوغ الفجر أخبرتنا أنها تشم رائحة الخيانة من خطيبها الذي يعمل في البتروكيميا.

قلت: حسناً؟ وما علاقة هذا الأمر بي، هل أنا هو خطيب تلك الفتاة؟

قالت: لا، ولكن قلبي تألم لحالها، وقلت لنفسي: الحمد الله أن زوجي لا يملك المال، وعاطل عن العمل، ولا يدخن، أو أي عيب آخر لديه، ولكن ليس لديه هذا العيب.

بحق لقد نالت مني.

ضحكت وقلت: لقد جننت يا بريسما جوادي،.. وما علاقة روايتي بتلك المرأة في القطار؟ هل تدركين ما تقولين؟

قالت: من الممكن أن يكون الأمر غير منطقي، ولكن قلبي ينبئني بأن صفورا حقيقية، فلا يعقل ألا تكون حقيقة.

قلت: لا تكوني حمارة يا بري، أنت تعلمين أن ما تقولينه هراء.. ومن يسمعك سيضحك عليك، إياك أن تتفوهي بهذا الكلام في مكان آخر.

قالت: تغيبت عن المنزل لعامين كنت مشغولة بحياتي، وأي أحد في مكانك كان سيتعلق بشخص ما؟

نظرت إليها وقلت: لقد بدأت تثيرين غضبي.

لم تقل شيئاً، نهضت، ووقفت على سجادة الصلاة، وأقامت الصلاة، خلال المدة التي كانت منشغلة فيها بالصلاة، كنت أنظر إليها من حيث أجلس، وكان واضحاً أن تركيزها كان في كل مكان عدا المكان الذي يجب أن يكون فيه الآن، لذلك حالما انتهت من صلاتها، سألت: كم سجدة سجدت؟

قلت بحزن: لم أحسب لك، فلست محاسباً.

سألت وردة الضفيرة التي كانت قد أتت وجلست على ركبتيها: وهل المحاسب يحسب يا أبي؟

قلت: أجل، حسناً، المحاسب عمله الحساب.

من ثم سألت: ماذا يحسب؟

قلت: الكهرباء، الغاز، الماء.... وما يشبه ذلك.

قالت: لماذا؟

قلت: من أجل أن يعطي الفاتورة رأس كل شهر للسيد رحيم ليحضرها لنا.

سألت: من تلك الأربعة التي يلقونها إلى منزلنا من تحت الباب؟ تشبهها؟

قلت: أجل يا بنتي هي بذاتها.. لماذا تسألين؟

ضحكت وقالت: المحاسب ليس لديه إصبع بماذا يحسب؟

قلت: بعلب السرعة.

قالت: فهمت.

قالت فهمت مع أنها بالتأكيد لا تعرف معنى علبة السرعة، وقطعاً كانت تود أن تعرف كيف يمكن للمحاسب بعلب السرعة أن يحصي الغاز مثلاً، فهو غير قابل للعد، ولكنها أدركت إن أرادت أن تسأل عن هذه الأشياء لتدرك ماهيتها، من المحتمل أن أقول لها أن تكف عن ذلك، فالآن ليس الوقت المناسب لمثل هذه الأسئلة.

لذا مضت إلى درسها وواجباتها المدرسية، وبينما هي تضع نهاية القلم في فمها، لا بد أنها كانت تفكر الجملة التي يمكن صياغتها بكلمة (جميع)، لأننا لم نقدم لها يد العون، وكان واجبها وعليها بأي شكل كان أن تؤلف جملة بهذه الكلمة، جملة ذات معنى وجميلة.

بريسما عندما أنهت صلاتها، أخذت تدور المسبحة في يدها وتقول الأذكار، ومن ثم وضعتها في وسط سجادة الصلاة وطوت سجادة الصلاة كما كل مرة، بتأن، فلا يمكن أن تروا سجادة صلاتها، ولا تكون قد طويت مثل المرة السابقة، أريد القول: إنكم لو رأيتم من قبل سجادة صلاتها، لظننتم أنها لم تفتحها منذ آخر مرة رأيتموها تصلي، ولم تصلِ عليها، في الحقيقة، إلى هذه الدرجة هي دقيقة في عملها وبإتقان كامل، فسجادة صلاتها مهمة جداً بالنسبة لها.

حالما أنهت صلاتها وكعادتها طوتها، ودون أن تنظر نحونا ذهبت إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها ولم تشعل ضوء الغرفة.

حتماً لقد أرادت الاختلاء بنفسها في زاوية الغرفة، تحتضن ساقيها بين يديها وتفكر كم هي مسكينة وسيئة الحظ، فزوجها عاشق لامرأة أخرى، امرأة ذكية وتسلب العقل، ليس هذا وحسب، بل هي مستعدة لأن تأتي معه إلى محل بيع القشة في وسط المدينة، تجلس معه لتأكل لحمة الرأس، ولا تخشى أبداً من أن تأخذ ثيابها رائحة من أجساد العمال الذين على أقل تقدير منذ شهر لم يغتسلوا، فلم يسعفهم الوقت لذلك، ومطلقاً، لا يسوؤها أن يضعوا لها القشة في الصحن نفسه الذي وضعوا فيه لأحد العمال منذ نصف ساعة، فقطع خبز السنكك داخله إلى قطعات صغيرة وتناوله.

وغالب الظن أنها بعد أن تخيلت كل هذا، ساورها الأسى حول نفسها وأخذت بالبكاء، دون أن نسمع لها صوتاً، فقط نشعر أحياناً أنه من مكان ما يأتي أنين خفيف لامرأة أدركت أنه قد تمت خيانتها، والآن هي تبكي لذلك.

بعد مضي القليل من الوقت أدركت أن صوت الأنين لا نية له في الانقطاع، توجهت نحو غرفتها، وفتحت الباب عليها، وقلت: بما أن الأمور قد آلت إلى هنا، وتركت عنان الخيال لنفسك، الآن، فوراً سأذهب إلى بيت صفورا وأقضي معها وقتاً ممتعاً إلى بزوغ الفجر، ولتستمر هي في النحيب والنواء مثل تلك القطط التي جاءها المخاض آخر الليل، فحرمت الجميع من النوم، ولم تدع أحدً لينام، وتصرخ حتى لا يتسنى لأي أحد من الجيران أن يخلد للنوم، قلت قولي وخرجت من المنزل، لأنني مهما فكرت لم أجد حلاً أفضل من هذا لإنهاء المسألة التي بدأت تتشعب وتكبر.

فلتتحدث بشكل لائق

أيها الحمار، من لا يعقل هو أبوك

إنني لا أضع ساعة في يدي أبداً، لأنني أخشى من النظر إليها، فأرى عمري ينتهي بسرعة مخيفة على الرغم من أني لم أنجز أي عمل من أعمالي إلى الآن، وعليه كنت مجبوراً أغلب الوقت أن أستوقف أحداً، وأطلب إليه أن ينظر إلى ساعته ويخبرني كم الوقت.

على الرغم من أنه ليس لدي ثقة كبيرة من أنهم سوف يلبون طلبك ببساطة، فيقولون لك بدقة الوقت الذي أنت فيه الآن، أي حالهم دائماً هو جمع كل ما يصب في مصلحة كسلهم المخيف، بحيث إنه ما زال هناك سبع دقائق لتصبح ثمانية لكنهم يقولون لك ثمانية، وحتى إن كانت أكثر بثماني دقائق أي ثمانية وثماني دقائق، أيضاً سيقولون لك ثمانية.

أريد القول، حقاً لا أعلم لماذا يشترون ساعة فيها عقرب الدقائق، ولكن قلما يستخدمونه، فلا يكترثون مطلقاً أنه قد مضت على الساعة الثامنة سبع دقائق إضافية، أو ما يزال إلى الآن سبع دقائق أخريات لتصبح ثمانية.

سألت رجلاً مسناً كان مرتباً وملتزماً، يعبر فوق جليد أرضية ممر المشاة باحتياط وحذر تام، فلا سمح الله أن تنزلق قدمه وينكسر حوضه، فيضطر إلى آخر عمره - وطبعاً حسب اعتقادي لم يبق له الكثير ليبلغه - أن يمشي على طرف واحد أو يصبح قعيداً في المنزل، سألته: عفواً، كم الساعة الآن؟.

رفع رأسه نحوي، نظر إلي من خلف نظارته الطبية، وقال: ليست للبيع، وفي اللحظة نفسها ضحك لهذه المزحة الباهتة، التي يستلذ بتكرارها كبار السن، وكلما استخدموها يظنون ولا بد أنهم أصحاب فكاهة ولديهم روح الشباب، ثم دس يده في جيب الساعة وأخرج منها ساعة بيضاء الغطاء ماركة ويست اندونش، التي أعتقد أنه قد ورثها عن أبيه، لأنني لم أر ساعة جيب من هذه الماركة منذ ما يقرب الثلاثين عاماً، وإن وجدت ما زالت تعمل، كان للساعة سلسلة فضية جميلة تلمع من شدة نظافتها.

وبعد أن نظر إلى عقارب ساعته تحت أشعة المصباح، كان عقرب الثواني ليس من تلك العقارب التي تعد الثواني فيتوقف عند كل ثانية، عاد وقال لي: الحادية عشرة والثلث وثلاث دقائق وخمس عشرة ثانية، وأكمل طريقه دون أن ينتظر مني كلمة شكر، وبهدوء تام ابتعد عني، ولكن أنا آثرت الوقوف احتراماً لتلك القيمة التي أعطاها الرجل لعقرب الثواني، لذا تأملته لبعض الوقت، وأطريت عليه مع نفسي، فقد استطاع أن يحتفظ بساعته كل هذه السنوات، ولم يتعامل معاها بحيث بعد فترة من الزمن يضطر لرميها وشراء واحدة من تلك الساعات الجديدة، التي بالمجان لا تستحق الشراء، ويثير غيظ المرء أن يراها في يد أحدهم، ناهيك عن أن يشتريها لنفسه، ويراها في يده، ولا يفكر كيف سينظر الناس إلي، وماذا سيكون رأيهم بي إن رأوا مثل هذه الساعة في يدي.

من بيتنا إلى المقهى وبيت صفورا مسافة كبيرة لا يمكن طيها مشياً على الأقدام، أي ليس الأمر غير ممكن، ولكن في هذا الوقت من الليل مع وجود هذا البرد القاتل الذي يهب ويزحف من أنفك إلى رئتيك، تخشى لا سمح الله أن تبتلى بذات الرئة وتسقط صريع الفراش في زاوية المنزل، ولا تستطيع

أن تواصل عملك، كان من الجنون أن تود الذهاب من هنا إلى بيت صفورا مشياً على الأقدام.

هذا ما جرى، توجهت نحو طرف الشارع، وألقيت نظرة على الطريق فقد تصل سيارة أو أي شيء إلى هنا، فتوصلني إلى مكان قريب من المقهى، أو إلى رأس الشارع الذي يتفرع عن الشارع الرئيسي، ويقع المقهى في وسطه.

السيارة التي حصلتها تعد في حد ذاتها أثراً قيماً وتحفة قديمة، أريد القول: إلى هذه الدرجة أتت عليها السنون، فلا يمكن أن ترى مثيلاتها إلا في المتاحف، نوع رامبلر موديل من حقبة الستينيات، كحلية اللون، كانت تجر نفسها بشق الأنفس وبصعوبة بالغة نحو الأعلى من رأس المعبر السفلي للشارع إلى الأعلى.

في الحقيقة، يخيل للمرء بأنها الآن ستتلاشى، وأن إطارات السيارة سوف تنفك من مكانها، وتدور حول نفسها، وتسقط على الأرض أسفل سلم المعبر السفلي الذي كانت تصعد منه بصعوبة بالغة.

سائقها رجل في متوسط العمر، متسخ، أسنانه صفراء وقد عفَّى عليها الزمن، وحالما يفتح فمه يعكر صفو المكان برائحة فمه المزعجة، فلم أر يوماً هذا المقدار من العفن يخرج من فم أحدهم.

وفي حقيقة الأمر، لقد ظنت أن زوجته لا بد أنها قد خرجت عن طاعته، وتخلت عنه، وذهبت مع رجل آخر، لا يفوق زوجها بأي أفضلية تذكر سوى أن رائحة فمه لا تعطي هذا القدر من الرائحة العفنة، ولهذا فرت من المنزل، أي لهذه الدرجة كانت رائحة فمه مزعجة، فقد اضطررت في منتصف الطريق إلى أن أطلب منه أن يتوقف، لأنني نسيت وصل الغرامة المالية الخاصة بسيارتي

الذي أريد أن أسدده، نسيته فوق المكتبة، لهذا علي أن أعود وأحضره، سألني الرجل الساذج: هل يعقل في مثل هذا الوقت من الليل أن يسدد أحدهم وصل غرامة مالية؟!

عندها أخبرته أن الشرطة قد وضعت مفرزة ليلة خاصة لمثل هذه الأمور، فمتى ما أردت ورغبت تستطيع أن تذهب وتسدد الغرامة المالية، لقد أثاره كلامي كثيراً، بأن الشرطة إلى هذا الحد هي مهتمة براحة وصفاء بال الناس، لذلك كان يردد: يا عزيزي، هل حقا أنت تقول الصدق يا سيدي؟ وكان يقول: إنه لا يمكنه أن يصدق أنهم قد فعلوا ذلك، ولكن الآن بما أنني قد أخبرته بذلك لا بد أنني أقول الصدق، ويوجد هكذا مكان، فلست مريضاً لأكذب عليه.

وأضاف: أن الحال قد تغير وتبدلت الأوضاع، وشيئاً فشيئاً بدؤوا يتعلمون كيف يجب عليهم أن يخدموا الشعب وهذا أمر يبعث على السرور حقاً.

عندما ترجلت من السيارة دسستُ يدي في جيبي، وأعطيته أجرته، هو الآخر بعد أن لوح لي بيده، داس على البنزين وذهب، ولكن بعد أربعين أو خمسين متراً لاحظت أنه قد وضع يده على الزمور، لا بد أنه أراد أن يعود ويسألني، والآن أين يقع بالتحديد هذا المكان الذي أخبرتني عنه؟! لأنه كان قد نسي أن يسألني عنه.

ولكن عندما، وربما بمرآة سيارته الأمامي، رأى أنني واصلت مسيري وعبرت إلى الطرف الآخر من الشارع، تخلى عن سؤاله، أين يمكن أين يسدد في مثل هذا الوقت من الليل غرامته المالية، وأكمل طريقه وذهب.

قلت لنفسي لا بد في الغد عندما يركب أي أحد سيارته العتيقة، سوف يخبره أن الشرطة قد ارتأت أن يكون هناك مثل هذا المكان، وسوف يسألهم هل

يعرفون أين هو هذا المكان، أم لا، وسيظن الجميع أن هذا الرجل ليس فمه وحسب من يعطي رائحة قذرة عفنة، بل إنه عديم الفهم وقد فقد عقله أيضاً، وإن لم يضطروا لمغادرة السيارة، لا بد أنهم سيضحكون عليه كل الوقت أن ضغوطات الحياة قد أثرت في عقله، فبدأ ينسج الأوهام والخيالات.

لقد استمتعت للغاية من أني قد استغفلته، وأعتقد أنه قد استحق ذلك بهذا الفم العفن، الذي لم أر مثيلاً له في حياتي، لقد استحق أن يأتي أحدهم ويفعل شيئاً يجعل الجميع يضحك عليه، ويحدثون أنفسهم أن هذا الرجل أحمق.

في تلك الجهة من الشارع، لم يكن هناك من داع أن أعبر من جديد لهذا الطرف وأنتظر مرور سيارة أخرى أو أي شيء، تريدون الحقيقة، لقد اعتقدت أن هذه الليلة منحوسة، فإن خاطرت وذهبت إلى تلك الجهة من الشارع وبقيت أنتظر سيارة ليس مستبعداً أن يعود السائق نفسه، ويحاول بأي طريقة ممكنة أن يعرف عنوان مفرزة الشرطة، أين تقع.

هذا ما دفعني لأفضل الذهاب سيراً على الأقدام، وفي ذلك السكون المطلق الذي كانت تخترقه أصوات السيارات العابرة بين الحين والآخر، أستمع لصوت الثلج المتجمد تحت أقدامي الذي كان يعلو صوت صراخه من ضغط أقدامي، ويرسو على مسامعي.

لم يتبق شيء لمنعطف الشارع الذي يوجد فيه المقهى، رأيت شخصاً ممدداً فوق سياج حديدي وتخرج من خلاله الرياح الدافئة التي تعود لتأسيسات مبنى البنك، وقد سحب فوق جسده لحافاً شتوياً من تلك التي ترى الكثير منها في مهاجع العسكر، حيث يعطون كل عسكري واحداً منها أو اثنين ليكون لديه سبب جيد ليحك نفسه في أثناء أدائه لخدمة العلم المقدسة لمدة عامين كاملين.

نظرت إليه قليلاً ربما أفهم رأسه من قدمه، فلقد تمدد وألقى الغطاء فوق رأسه بحيث لا يمكن تشخيص رأسه أين وقدمه أين، وفوراً أزحت الغطاء عن رأسه، فرأيت شاباً يحدق إلى بعيونه الواسعة البراقة، قلت له: عذراً، إني أيقظتك يا أخي،.. لدي مقهى بالقرب من هنا، إن أردت يمكنك أن تقضي الليلة هناك وتنام، فمهما يكن هناك أكثر دفئاً من هنا.

فكرت في نفسي إن قبل ونهض وجاء معي إلى المقهى، سأعد له مكان دافئ ومناسب بالقرب من المدفأة لينام فيه، فأعدل عن الذهاب إلى بيت صفورا، وأنام أنا أيضاً في المقهى، ومن الممكن أيضاً أن أقدم له كوباً أو كوبين من الحليب الدافئ مع قطعة كيك، وإن رغب يمكنني أن أعد له رقائق البطاطا مع الجبنة، فيدعو لي ولزوجتي ولابنتي.

ولكن لم أفهم من لهجته شيئاً، فقد صف الكلمات بعضها وراء بعض، وفي النهاية لم أفهم هل يريد القدوم معي أم لا؟ سحب الغطاء من جديد فوق رأسه متجاهلاً وجودي، فاضطررت للوقوف ومتابعة طريقي.لا بد أنه ظن بأنني شاذ أو شيء من هذا، وقال في نفسه: إن الأمر لا يستحق من أجل كأسين حليب دافئين أو صحن رقائق بطاطا وجبنة، الذي لم يتناوله يوماً ولا يعرف مذاقه، كي يخاطر ويلقي بنفسه إلى التهلكة، فينهض ويأتي معي إلى المقهى وليس واضحاً ما يمكن أن يحدث له في تلك الخرابة.

لقد أزعجني أن يكون قد ظن هذا مع نفسه، ولكن بينما أنا أتمشى، عادت بي الذاكرة إلى أربع سنوات مضت، عندما كنت ما أزال في طهران أؤسّس مجلتي، وآمل أن أجعلها تقف على قدميها، مع أنها لم يكن لديها قدم لتقف عليها، ولكنني لم أكن متيقظاً للأمر آنذاك.

ما حدث، أنه غاب عن بالي تماماً قصة الشاب، وماذا يمكن أن يكون قد فكر، ومطلقاً لم يخطر ببالي أنه لماذا يجب أن يكون الوضع الأخلاقي للمجتمع على هذا النحو، فلا يتجرأ أحدنا على الذهاب إلى مقهى أحدهم لينام فيه، وطبعاً لا يخطر على بال أحد منا أن يقلق حول الأهداف الخفية وراء الدعوة للنوم في المقهى وألا نفكر أنهم قد يفعلون لنا شيئاً.

تقريباً عند منتصف الليل، كنت قد أنهيت تنضيد مجلتي، وأهم بالذهاب إلى المنزل للنوم، رأيت رجلاً مسناً في السبعين أو الثمانين من العمر، ارتمى على قارعة الطريق، يتلوى مع نفسه، يلبس لباساً برتقالياً كالذي يرتديه الكناسون لئلا تصطدم بهم سيارة أو شيء أو يصبحوا تحت عجلاتها في الليالي المظلمة، ترجلت من سيارتي، تقدمت نحوه، وجلست إلى جانبه، وسألته: لماذا تمدد في هذه الزاوية ويتلوى؟، قال أشياء باللغة التركية مثل هذا الرجل السابق، ولم أفهم أي شيء منه، ولكن رأيته يرتجف، ما دفعني لأمسك بيده، وأدركت أنه يعاني الحمى، قلت له: إنني لا أفهم شيئاً مما تقول، ولكن إن كنت تفهم أنت ما أقول، فأنا مستعد لأنقلك إلى المشفى أو أي مكان آخر تريد.

ولكن مجدداً أخذ يقول أشياء لم أفهم منها شيئاً، فظننت أنه ربما شكرني، وقال: إنه لا يريد أن يتعبني، لقد ظننت أنه يجاملني لذا وضعت يدي خلف ظهره لأرفعه عن رصيف الشارع البارد، وأصطحبه معي، ولكنه أرخى بثقله كاملاً والتصق بالأرض.

لقد أصابني العجز والحيرة في ذلك الوقت من الليل، ماذا يجب أن أفعل، ما كان، أنني من يأسي وقلة حيلتي ذهبت إلى هامش الشارع الرئيسي، ووقفت أمام أول سيارة عبرت من أمامي، وقلت للمرأة والرجل وطفلهما الصغير الذين كانوا يجلسون في السيارة أن هناك رجلاً كبيراً وقع على رصيف

الشارع بالقرب من الحديقة، ويقول أشياء باللغة التركية لا أفهم منها شيئاً، فإن كانوا يتقنون التركية ولا يزعجهم الأمر فليتفضلوا معي قليلاً ليروا الرجل ويفهموا منه لماذا لا يريد أن يذهب معي إلى المشفى مع أنه يعاني الحمى الشديدة وعلى وشك الموت.

ما كان، أنهم انعطفوا بسياراتهم أيضاً إلى شارعنا، وترجلوا من السيارة، وسألوا الرجل المسن، ما عمله؟، ولماذا لا يقبل بالذهاب معه إلى المشفى؟ وبعد عدة دقائق من التحدث معه، أخبروني أنه مما أخبرهم، فهو بستاني الحديقة المحلية، وفي الليل في الساعة الحادية عشرة أو قريب ذلك الوقت، يقطع أربعين كيلومتراً من تلك الجهة ليأتي إلى هنا، ويعتني بالورود والنباتات، نحو الساعة الثانية عشرة ليلاً ساءت حاله، واضطر مجبراً ليتمدد هنا، ولكن قبل ذلك هاتف جيرانه ليخبروا ابنه البالغ من العمر أربعة عشر عاماً فقط، ولذلك لم يرض أن يأتي معي إلى المشفى، فلو وصل ابنه الصغير إلى المكان ورأى أن والده ليس هنا سيقلق كثيراً عليه، وربما يفكر في الأسوأ، وكان الرجل يردد أن ابنه صغير في العمر، وقلبه مثل قلب العصفور.

إن قلبي من النوع القاسي، فلست ممن يذرفون الدموع بمناسبة ودون مناسبة، ولا يمكنهم السيطرة على أنفسهم، ولكن مع قساوة قلبي، في تلك الليلة الخاصة ذهبت وجلست فوق الحافة الإسمنتية للساقية، خلف السيارة في مكان ما لا يراني فيه ابنه الصغير، فيسوء الأمر، جلست وبكيت، أطرقت رأسي نحو الأسفل ووضعت يدي من الكوع فوق ركبتي وانهمرت دموعي، ليس بسبب الحدائقي العجوز الذي يفهم مسؤوليته وكل يوم في الساعة الحادية أو الثانية عشرة ليلاً، يقطع مسافة أربعين كيلومتراً، ولا بد أنه يأتي بالباص الذي يغير خطه على الأقل عشر مرات، يأتي ليعتني بورد ونباتات الحديقة المحلية رأس الشارع، والآن

سقط في زاوية الشارع وأخذ يسلم الروح، لا لم يكن هذا ما أبكاني، بل شغلني ابن الرجل الصغير، ما الذي يدور الآن في قلبه الصغير، وفي هذا الوقت من الليل كيف سيوصل نفسه إلى والده المسن، الذي سقط على زاوية الشارع، وأخذ يموت من الحمى والارتعاش، وفكرت أيضاً في قلبه الصغير ذلك القلب الأصغر من قلب العصفور، فهو لا يملك المال ليركب سيارة أجرة ويوصل نفسه بسرعة إلى والده الملقى على الأرض بين الحياة والموت، ومن حرقته أنه لا يملك في جيبه المال، مجبور في هذا الوقت من الليل أن يذهب إلى بيت جيرانه ويوقظهم ليقترض منهم مبلغاً من المال، لقد أردت أن أموت، لأننا سنكون عبرة للآخرين، ولكن ليس بالحالة العادية، وإنما بالحاة المأساوية.

لقد أردت أن أتقيأ، عندما تذكرت أننا أنا ووردة وبري في وقت سابق أكلنا الدجاج المقلي، ومن ثم أتبعناه ببوظة دسمة وملأى بالكريمة وحبات الفستق الحلبي، وأنا في وقت متأخر أكثر ذهبت مع علي إلى مقهى كنج القريب من مكتب مجلتنا في شارع كشاورز هو أخذ الإسبريسو وأنا فنجاني قهوة تركية وإلى ما شاء الله تحدثنا عن كارلوس قوسي كيف استطاع من خلال انتقاله إلى نيسان أن يأخذ بها نحو النجاح ولم يسمح لها أن تنهار، وكيف أن المدير القوي لا ينقذ الشركة وحسب من الإفلاس والخسارة، بل يحييها من جديد، وكيف أن المدير الضعيف يستطيع أن يصير كل شيء إلى مكان مجهول عفن.

وللحظة روادتني تلك الفكرة، أن أحمل خشباً أو شيئاً ما وافتك بسيارتي، التي سموها «غرور» ولكن المرء ما إن ينظر إليها حتى يأتيه الإسهال، وكلما نظر إليها ود لو أمكنه أن يذهب إلى اجتماع المديرين الذين انتخبوا هذا الاسم لسياراتهم ويقضي حاجته فوق طاولتهم، وتحديداً فوق كيكة الكريمة

التي لا بد من أنهم بعد الاجتماع سيرغبون بتقطيعيها بسكينة الروبان ويتسمموها على شرف الذوق الرفيع الذي بذلوا له جهداً.

ولكن عندما فكرت أكثر في المسألة، ارتأيت أنه ربما تنفعني هذه السيارة «غرور بيروزي» في نقل هذا الرجل المسن إلى مكان ما، فلا يموت بهذه السهولة، ما جرى، توجهت نحو الرجل والمرأة اللذين كانا ما يزالان يقفان فوق رأس الرجل بقلق والطفل الصغير ملتصق بقوة بإصبع أمه، فتظن أنه قلق من أن ينسوه في مثل هذا الوقت من الليل لا سمح الله ويلوذوا بالفرار.

ما حدث أني طلبت منهم إخبار الرجل المسن أنني سأنقله إلى المشفى رأس هذا الشارع، ومن ثم أعود بسرعة وأقف منتظراً ولده حتى إن أتى لا يموت من خوفه على والده، من أنه لا بد قد مات وحملوه وأخذوه إلى المقبرة أو مكان ما، وكانت تلك هي اللحظة التي قبل فيها الرجل المسن أن ينهض من مكانه ويأتي معي إلى المشفى.

في المشفى تشاجرت مع الدكتور المناوب كان رجلاً مدوراً وفمه أشبه بالقرد، يرتدي الزي الأبيض ولم يكن يود أن يلمس ثياب الرجل المسن، أي إنه لم يرفع ملابسه ليتمكن من وضع سماعته الطبية فوق قلب الرجل، وكان يطلب إلي أن أرفعها للأعلى، أو أن أطوي أكمامه ليستطيع قياس ضغط دمه، أو أن أنزل بنطاله للأسفل ليستطيع أن يضربه الإبرة.

أريد القول بعد أن أعطاه مسكناً ضربه إبرة خافضة للحرارة، من ثم طلب إليه أن يجلس على السرير، وأخذ يسأله مرتين أو ثلاث مرات هل أصبح أفضل أم لا، ولم يكلف نفسه عناء أن يضع يده على كتف الرجل ولو على سبيل التظاهر، ويطمئنه أن حالته ليست سيئة، وعندما تأخذ الإبرة مفعولها سيتحسن

حاله، لا، لم يفعل، بل التفت نحوي وقال: كم هو شخص أحمق هذا الرجل، مما دفعني للقول: تكلم بأدب أيها الحمار، أبوك هو الأحمق.. هل لديك أدنى فكرة عن أن هذا الرجل كل يوم في الساعة الثانية عشرة ينطلق من على بعد أربعين كيلومتراً من تلك الناحية ليسقي ويهتم بورود ونباتات الحديقة في رأس هذا الشارع.. ليتمشى فوق عشبها فتى أحمق مثلك.

في الحقيقة أن ما حدث أثار غضبي بشدة، ولولا أن أمسك الرجل المسن يدي بإحكام ليمنعني عنه بالتأكيد من حيث كنت أقف -في ذلك الطرف من التخت وخلف الرجل المسن- كنت سأثب عليه وأهوي بقبضتي على فمه المنحوس الذي ليس له رائحة عفنة ولكن من حيث الوضاعة والقذارة التي كانت تخرج منه ما لم يكن من الممكن تمييزه من مؤخرته التي لا بد أنها واسعة ووسخة.

حتى إني فكرت في قرارة نفسي أنه لا ضير من أن أنتزع منه سماعته الطبية، وألف شريطها الذي لا بد أنه مصنوع بإحكام، دورتين حول رقبته وأسحبه بقوة من كلا الطرفين من الخلف إلى أن يوسخ بنطاله من شدة الخوف.

الرجل كان منذهلاً، فلم يكن ليخطر على باله أن التفت نحوه وأقول له: إنه حمار، لذلك لم يتورط أكثر معي وبعد أن خلع سماعة الهاتف المنحوسة، ووضعها بهدوء على السرير، انسحب من الغرفة بذلك النعال الواسع الذي كان ينتعله في قدمه يسحبه فوق أرضية المشفى التي كانت معقمة ومبلطة ولامعة.

إنني على يقين أنه بقي كل الليل مستيقظاً، أريد القول: لقد قلت له حمار بحيث كان يتقلب في سريره بين هذا الجنب وذاك، وكان يسأل نفسه باستمرار هل أنا حقاً حمار ولم أكن أعلم هذا؟

فقط لم أكن أغليها
كما الإسبريسو

كان ضوء الغرفة مضاءً، ولكنها لم تكن لتُرى، لقد أصابتني الحيرة هل أنام في المقهى، أم أدق جرس باب صفورا؟ في المقهى كان ينبغي لي أن أنام وأن أتسمم فنجاناً من القهوة، وأن أشعل سيجارة، ومن ثم أخلد للنوم، ولكن عند صفورا لا بد أن الأمر سيكون أكثر إمتاعاً.

هذا ما جرى، فما إن رفعت باب المقهى نحو الأعلى قليلاً حتى ترددت وقلت لنفسي أنني سأستمع أكثر مع صفورا، ومن ثم أنزلت الباب وقفلته، وفي لحظتها ذهبت إلى ذلك الطرف من الشارع، ودققت جرس صفورا، لذلك توجهت على الفور إلى جهة المدخل الرئيسي للبناية التي تقع شقة صفورا في الطابق الثالث منها، وكيلا أندم على هذا، وضعت إصبعي فوراً على الجرس الذي كنت أعلم أنه جرس بيتها، وطبعاً كان الثالث عن اليمين من الأسفل.

ردت من خلف الأيفون: نعم؟

قلت: لماذا لم تخرجوا قمامكتم إلى أمام الباب؟

لقد ميزت صوتي، فبعد أن تريثت قليلاً قالت: يا لك من عامل نظافة حسن الصوت، يود قلب المرء أن يدعوك للصعود إلى منزله.

وضغطت على الزر لينسحب الجنزير إلى الخلف، وبدوره يسحب معه لسان القفل إليه، فيفتح الباب وأتمكن من الدخول، وأصعد على الدرج المرمري للبناية، وأدخل من باب شقتها إلى داخل المنزل الذي تركته نصف مفتوح لأجلي.

لم تكن على مرمى نظري، ولكن صوتها كان يصل إلى مسامعي وهي تقول: لا تخلع حذاءك، خذ راحتك.. سآتي حالاً، إنني أجمل نفسي لأجلك.

لقد كانت مغرية تسلب العقل، وتتقن كيف ترمي بك إلى التهلكة بكلمة واحدة أو بنظرة ذات معنى.

لحظة تطأ قدمي منزل أحدهم وقبل أي شي أتوجه نحو مكتبته، لأنه أمام مكتبة أحدهم وأفضل من أي مكان آخر يمكن معرفة روحية صاحب البيت، أضف إلى ذلك أمام المكتبة وبينما تمسك أحد الكتب بين يديك ويدك الأخرى في جيبك، هي وضعية جميلة ومكان متميز لبدء جدال وحوار.

في مكتبتها التي رتبت بعناية وصنفت على أساس المحتوى، وقعت عيني على كتاب عقائد المهرج تأليف هاينريش بول، الذي لم أشبع أو أمل يوماً من قراءته.

كان من تلك الكتب التي في وقت ما طبعته مؤسسة الكتب الجيبية، وكان يضعف قلب المرء أمامه ليجلس ويشتم رائحة أوراقه الصفراء، ويتصفحه باستمرار، ليرى ماذا سيكون مصير ذلك الشاب المتنعم الذي غادر منزل والده الأستقراطي، ذهب وأصبح مهرجاً من أولئك المهرجين الذين يقدمون العروض في مقاهي درجة الثانية والثالثة.

وأنا الآخر كلما قرأته، كنت أقول لنفسي: إنني أشارط أن بول قد وضع نسخه من رواية «الحارس في حقل الشوفان» بجانب يده، وأخذ عهداً على نفسه أن يكتب أفضل منها.

ولكنني لم أخبر هذا الأمر لأحد مطلقاً، فلا يعتقد هذا الشخص أن هذه الرواية لا تساوي شيئاً فقط لأنها كتبت بتأثير من رواية «الحارس في حقل

الشوفان»، بل كنت أقول صحيح أنها ليس بجمال راوية الحارس في حقل الشوفان، ولكنها قصة رائعة، وكنت أوصيه ألا يشتري واحدة من نسخها الحديثة الطباعة، بل أن يشتري نسختها الأصلية ترجمة شريف لنكراني، لأنها طبعت على ورق أصفر، والآن بعد كل هذه المدة، لا بد أن أطراف الورق قد أصبح أكثر اصفراراً، ولعل حواف الورق قد لانت، فيتصفحونها بصعوبة.

عندما تبدت في النهاية كانت ترتدي الملابس، ترتدي ملابسها بشكل لا يتوافق مع المنظومة الأخلاقية لمجتمعنا، ولا يمكن أن نفصل فيه أكثر من ذلك.

كانت تنتعل في قدمها جوزاً من الأحذية الصوفية القصيرة الساق المسماة غالش التي لا تصل إلى العرقوب، وعندما ينظر إليها المرء يتذكر تلك الأحذية الخشبية الهولندية التي لا ترى مثيلاً لها إلا في رسومات كتب الأطفال. أي لهذه الدرجة هوامشها غير منظمة ودقيقة وضرب لونها للأسود، فيظن المرء أنها حذاء فعلي، جلس حذاء هولندي دون رغبة وعناية منه وصنعه لابنته.

لم تتقدم مني لتصافحني، وجلست في مكانها على أريكة مريحة من تلك الأرائك النفخ التي يظهر ما خلفها، الآن فهمت أم لم تفهم، ومدت أرجلها فوق طاولة مربعة الشكل كان عليها الكثير من الأشياء، بحيث عندما همت لتضع قدمها فوق الطاولة، كانت مجبورة أن تبعدهم بطرف إصبعها، لتضع أقدامها براحة أكبر، وعندها قالت: في مثل هذا الوقت من الليل في هذه النواحي ضللت طريقك؟

كنت أضغط الكتاب بمشقة بين طبقات الكتب الأخرى، للحظة أريتها إياه وسألتها هل قرأت هذا الكتاب؟

أجابت: ألف مرة،.. طبعاً ألف مرة فيها مبالغة، لقد قرأته سبع أو ثمان مرات.

ذهبت وجلست على الأريكة المقابلة لها، ولكن لم أمدد قدمي فوق الطاولة كما فعلت هي، بل وضعت كفت قدمي على حافة الطاولة وحسب، وبعد أن التفت إليها سألتها: ماذا تذكرين منه؟

قالت: ذلك الجزء عندما يذهب الأب الكبير الرأس بعد مدة لرؤية ابنه.

قلت: ذلك الجزء تحفة فنية، لا مثيل لها.

ضحكت وقالت: كان الشاب قد خرج لتوه من العربة، من هلعه، يسكب بودرة القهوة على نفسه، عندما يراه والده يقول له: إنه لم يكن يعتقد أن للقهوة مثل هذا الاستخدام.

تملكني الضحك، استخدام! هؤلاء الآباء بحق كيف هي اصطلاحاتهم التي يستخدمونها، أريد القول، تذكرت منتصف إحدى الليالي، ففي عصر ذلك اليوم كنت قد أخذت الكتاب بين يدي، ولم أستطيع أن أضعه على الأرض، وعندما وصلت إلى هذا الجزء تملكني الضحك، بشكل أمسكت فيها بطني، ومن شدة الضحك كنت أتلوّى وألتف على نفسي، ولم أستطع أن أمنع نفسي عن الضحك.

فأيقظت ضحكاتي والدي، الذي أتى وفتح باب غرفتي، وسألني بك؟ كان يعتقد أنني ولا بد قد تعاطيت مخدراً لأضحك هكذا دون توقف، فلا يمكنني أن أمنع نفسي عن الضحك.

أتى نحوي بقلق وكنت ما أزال مستمراً في الضحك ولا أستطيع أن أجيبه، وسألني: هل أخذك للطبيب؟ وكل ما استطعت قوله له، لا، لا أعاني أي شي، اذهب أنت ونم.

ولكن من جديد نمت على الأرض، وبينما كنت ما أزال أضحك وأضغط على بطني، وبعد أن أغلق أبي الباب، قلت: حمار... ابن حرام، وكأن أبي سمع ما كنت أقوله، ففتح الباب من جديد وسألني بحزن: هل تعلم ما بك؟ لماذا تتفوه بالحماقات؟

لابد قد خيل له أنني أشتمه، لذا تحول شكه ليقين أنني لست في هذا العالم، مع أني كنت فقط أطري على عمل هاينريش بول، وفي الواقع، ووفق عادتي الدائمة عندما أريد أن أطري على أحد ما، كاتب أو أي شخص أشعرني بحالة متميزة، كنت أشتم أخته، أي بينما الكتاب ما يزال مفتوحاً، أعتدل فوق السجادة، أنهض ومن شدة الإثارة أشعل سيجارة، أتمشى، ومع كل نفس أسحبه من السيجارة أشتم أخته بشكل منتظم، دون أن أقيم وزناً لأي شخص أو أي شيء على الإطلاق لا بد أني أفعل ذلك من باب الحسد، أي لماذا لا يمكنني أن أدفع لأحدهم ليطري علي.

كنت ما أزال مستمتعاً بذكرياتي عن تلك الليلة عندما سألت: أتيت متخاصماً؟

قلت: أرادت أن تجلس لتنتحب، فآثرت الخروج من المنزل.

سألت: هل أخبرتها أنك ستأتي إلى هنا؟

قلت: أجل، أخبرتها... لا بد أنها الآن تنتحب أكثر.

كانت تضع في أذنيها أقراطاً من تلك التي أحب، من تلك الأقراط الدائرية الكبيرة التي تضعها بعض النساء والفتيات في آذانهن، وعندما يفعلن ذلك، إن كان لونهن أسمر أكثر من الحد المتعارف عليه، يبدون لك كالجاريات المطيعات والمروضات، فيعتقد المرء أنهن سيمنحنك كل ما تطلبه منهن.

قلت: هي تظن بأن شخص حقيقي،.. وتقول لا يعقل أن يكون هناك شيء في هذه الحياة له حضور حقيقي، إلا أنت.

تناولت سيجارة من علبة السجائر أمامها الملقاة فوق الطاولة وأشعلتها، من تلك التي تعطي نكهة النعنع، والتي أكرهها بشدة، ولكنها أخذتها في يدها، أي وضعتها بين طيات أصابعها، بطريقة أموت لأجلها، أي أن تضع امرأة ما السيجارة بهذه الطريقة بين طيات أصابعها، فتمسك السيجارة من وسطها وليس من عنقها، أي ليس من مكان قريب من الفلتر كما يفعل الرجال عادة.

سألت حينئذ: ألست حقيقة؟

قلت: يجب أن ألمسك.

قالت: حسناً، المسني،... هل تخاف أن تشتعل؟

غيرت مكان أقدامها فوق الطاولة في حال أردت أن أنحني وأمسك قدمها وأضغط لأرى هل هي حقيقية أم لا.

وعليه، رفعت أقدامي عن حافة الطاولة، ووضعتها على الأرض، وقربت يدي من طرف قدمها، ومن فوق حذائها الصوفي أمسكت خنصرها وضغطت عليه، المقدار المطلوب، لقد بدت حقيقة، أقصد أن وجودها حقيقي بمقدار يرفع عنك الشك حول هل هي موجودة فعلاً أم لا؟

ولكن ليطمئن قلبي أكثر، قربت يدي أكثر إلى الأمام، ومررت إصبعي فوق عرقوبها الهرمي الشكل والحاد، ولكن يصل إلى ساقها بتقوس لطيف، وفي لحظتها تراجعت من جديد نحو الخلف وتوغلت داخل الأريكة.

سألت: ماذا حدث؟ هل كنت حقيقية؟

قلت: أجل.. ينبغي أن تكوني حقيقية، فلا يصح ألا تكوني كذلك.

رفعت رأسها وأخذت بالقهقهة، فيمكن للمرء الآن أن يرى غبغبتها الناعمة واللطيفة بشكل واضح، وأن يستمتع من مشاهدتها.

وهكذا كان رأسها مرفوعاً نحو الأعلى، أخذت نفساً من سيجارتها وقالت: لا بد أنك أتيت تريد مني أن أسحب نفسي من حياتك.. مثل تلك الأفلام المثلثية، أليس كذلك؟

رفعت أكتافي إلى الأعلى فقط ولم أقل شيئاً.

أخفضت رأسها، وحدقت بي، في تلك اللحظة جمعت عيناها وكأنها تريد أن تستحضر شيئاً من ذاكرتها، من ثم رفعت رأسها من جديد، نظرت للسقف، وقالت: أخبرني.. عندما تريد أن تقول "غير ممكن" ماذا تقول عوضاً عنها؟

وبينما أنا أضع يدي بين خصلة شعري، مددت لها يد العون: أقول «مستحيل أن يكون ممكناً».

أخفضت رأسها وقالت: أجل.. تقول من المستحيل أن يكون ممكناً،.. من المستحيل أن يكون ممكناً أن أتراجع، يجب أن تكملها إلى آخرها.. لا تنسحب.

قلت: اللعبة ليستمتع بها المرء.

قالت: إنني أستمتع بها للغاية.

وضعت سيجارتها على إحدى مسكات المنفضة المعدنية التي لم أر لها مثيلاً في أي مكان، بحيث عليك أن تضغط على سيجارتك من الفلتر

لتدخلها في إحدى هذه المسكات، فتتمكن من حفظها لك، حتى إن وضعتها في وقت ما وذهبت، ونسيت أن سيجارتك ما تزال تحترق، فلا تعود وتسقط فوق الطاولة أو أي مكان فتحرق شيئاً ما.

في ذلك الوقت، وقفت لتذهب إلى مطبخها الصغير الذي انفصل على الصالون بستارة خرزية، من تلك التي تتشكل من مجموعة من الحبيبات الزجاجية الملونة الصغيرة والكبيرة التي أُدخلت في عدد من الخيوط الزجاجية الطويلة، وتتعلق جميعها من مكان واحد، ولتتمكن من العبور من خلالها، عليك أن تبعد بظاهر يدك مجموعة منها إلى الجانب حتى تتمكن من فتح طريق لنفسك، من تلك التي لم أفهم يوماً ما الجميل فيها حتى ترى في كل منزل منها على الأقل اثنتي عشرة واحدة معلقة، بحيث لا يوجد مكان تقريباً تريد الدخول إليه إلا وتكون مضطراً بادئ ذي بدء من أن تبعد جانباً حفنة من الأخشاب أو السيراميك أو الزجاج.

عندما أدخلت يدها بين طبقات الستارة وكانت تبعدها إلى الجانب، عادت وسألتني: ماذا تريد أن تشرب؟

لدي آلة قهوة إسبريسو منزلية، دلونغي،.. أساسية؟

قلت: لم لا.

من مكانها في المطبخ، عندما ضغطت زر آلة الإسبريسو الدلونغي ليسخن الماء، ومن ثم انحنت لتتناول فنجاناً أو شيئاً ما من خزانة المطبخ، قالت: ليس لدي فنجان خاص بالإسبريسو، لدي فناجين أكبر حجماً من تلك المخصصة للإسبريسو، في ذلك الوقت أرتني واحدة منها، ثم، توجهت على أطراف أصابعها باتجاه نافذة مطبخها الصغيرة التي كانت

مفتوحة على ساحة البناء، أبعدت الستارة الشبكية إلى الجانب، مسحت يدها فوق البخار الرقيق الذي كان قد غطى وجه الزجاج، وقالت: إنها تنزل معوجة، معناها أن الحركة ستتوقف.

كانت تتحدث عن الثلج، فعندما أتيت لأقرع جرس منزلها، كان رذاذ الثلج الناعم قد بدأ بالهطل، وقلت لنفسي كم هو أمر حسن أن يهطل الثلج فوق الثلج، لربما كان ممكناً أن نصنع أنا ووردة الضفيرة في الغد رجل الثلج، رجل ثلج كبير، يمكن أن نلقي على رقبته واحدة من تلك الحقائب الجلدية التي يملكها الرسل في أفلام الكرتون، وثم بعد أن نضع قبعة صوفية على رأسه، ندخل غليوناً مطاطياً في زاوية فمه الأعوج، بحيث يبقى صامداً على الأقل لثلاثة أو أربعة أيام ويمكن من الأعلى أي من خلف النافذة متى ما أردت أن تبعد الستارة جانباً وتتأمله فترى كيف أخذ يذوب تدريجياً.

حالما أنهت جملتها، أخرجت نفساً فوق الزجاج ليزداد البخار، وأخذت ترسم شيئاً بإصبعها من حيث كنت أجلس كان يبدو كمهرج مخمور، يعني هذا ما أمكنني استنباطه من شكل عيونه وشفاهه ووجهه. لقد كان شكله لطيفاً، بتلك القبعة القمعية ذات النجوم على رأسه، وأنفه المدور الكبير، وفمه العريض الذي غطى كل وجهه، ولكن حالما أكملته، وحالما تأملته لبضع ثوان، سحبت ظاهر يدها فوقه، بحيث لم يبق منه شيء، ماعدا نهاية قبعته التي انعطفت وتدلت فوق جبينه، في ذلك الوقت، ودون أن تعود وتنظر إلي، سألتني: أي جملة بقيت في ذاكرتك قلت: في تلك القطعة التي يقول بها: «المهرج المخمور يقع أسرع من بنّاء مخمور»، أخذت الجملة وكتبتها بطرف إصبعها على البخار المتشكل فوق وجه الزجاج الذي لم تمسحه بعد، وعلى حالها هذا سألتني: هل تعلم أن لكل قصة جملة ذهبية؟

هززت رأسي وقلت: أجل.

قالت: هل تعلم أن كل القصة تختزل في هذه الجملة؟

قلت: أجل،.. تماماً.

وضعت الإسبريسو فوق الطاولة، وأتت وجلست إلى جانبي، فوق يد الأريكة، وضعت قدميها فوق حافة الطاولة واحتضنت رأسي، اشتمت رائحة شعري، وأدخلتها إلى رئتيها وكأنها تشتم حفنة من الفل، ثم، وبينما ما زالت تحتضن رأسي، وضعت وجهها فوقه، وحدقت بالبخار الذي كان يصعد من فوق سطح الإسبريسو الأبيض اللون، ويختفي في جو الغرفة، نفس المكان أنا أيضاً كنت أتأمله، وكان جسدي من الداخل قد أصبح ساخناً مثل فنجان الإسبريسو، ولكنني لم أكن أتبخر مثل الإسبريسو، ولم أكن ألتف في الهواء، ولم أكن أختفي إلى غير رجعة.

سألتني: لو كتبت قصة طويلة ماذا ستكون الجملة الذهبية فيها؟

فكرت قليلاً وقلت: ربما هذه «إن صادفتم شخصاً لا يفعل أمراً عظيماً، فلأنه إما ليس لديه ملابس تعطيه واجباً، وإما هو في الأصل إنسان وضيع»، أو ربما هذه «ليس جيداً أن يتصرف أحدهم مع لعبته وكأنها فقط لعبة، لا قلب لها، ولا تستطيع أن تلعنه، من القضاء، أن آهاتهم مسموعة بشدة».

الهيئة العامة السورية للكتاب

لشدة ما هو مر مثل السم!

بحيث يكون واضحاً أنني أطلب منها شيئاً، وليس الأمر أنني آمرها.

قلت: لا تفكري بالأمر يا صفورا.

سحبت نفسها للخلف وقالت: لماذا؟

قلت: ما يدريني، مثلاً لأنه ليس أمراً صائباً.

قالت: لا.

في تلك اللحظة وقفت وبعد أن جلست من جديد في المكان نفسه الذي كانت تجلس فيه قبل أن تذهب للمطبخ قالت: في البداية كانت لعبة ولكن... بمرور الوقت أصبح الأمر جدياً بالنسبة إلي.

قلت: لا تمازحيني.. شيء واحد يهم النساء وهو ما الموديل الجديد للأظافر، هل ينبغي أن يكون مدوراً أم أملس طلاؤه.

هكذا هي الحال دائماً، لعبة النساء مع الرجل، دائماً ما تكون في بدايتها نوعاً من التفنن، ولكن بعد مضي القليل من الوقت، يفهم الطرفان أنه لا، لم يكن الأمر متعلقاً بالتفنن وحسب، وكأن أشياء أخرى كانت نائمة خلف هذه اللعبة، أشياء لا يمكن غض النظر عنها.

شيء تكون بدايته في قلب الإنسان على شكل نقطة صغيرة، يمكنك أن تتغافل عنه، ولكن ما إن تعطيه الاهتمام يكبر إلى درجة من الممكن أن يتملك كل قلبك.

مدت أرجلها من جديد فوق الطاولة: هل يمكنك أن تنزع الغالش عن قدمي، يكاد يخنقني.

بكلتا يدي أمسكت أطراف الغالش وسحبتها من قدمها إلى الخارج، وقلت لها: بهذه السهولة التي تنزعين فيها الغالش من قدمك يمكنك أن تبدلي رجل حياتك.

وعندما تراجعت نحو الخلف وأسندت ظهري إلى الأريكة، تابعت: لذلك أنا أحسد النساء.

كورت غالشها أحدهما داخل الآخر، ورميته لها.

قالت: من الممكن أن تخسر أشياء ولكن انظر ماذا ستكسب بالمقابل.

قالت: ماذا ستكسب وكأنها بيونسي أو كانديس برغن في شبابها، وهذه الأخيرة تشبه فرساً برية بيضاء بشعرها الطويل، في مزارع يوركشاير الخضراء، تسير متبخترة، والرياح تضرب شعرها فيتموج في الهواء، ويقع على عينيها الزرقاوين الساحرتين، التي كلما شاهدها المرء، ولتكن أينما كانت في فيلم العسكري الأزرق أو أي مكان آخر، ودَّ أن تكون ملكاً له وحده، أو على الأقل أن يستطيع أن يمتطيها مرة أو مرتين.

قلت: إنني لست على ما يرام، في لحظتها تناولت فنجان الإسبريسو ورطبت شفاهي، ومع أنني لم أتمكن يوماً من شربه كاملاً لشدة ما كان مراً كالسم، أريد القول، لم أشعر يوماً وأنا في المقهى بأن هناك شيئاً ينقصني، وما يدريني ربما يكون فنجاناً من الإسبريسو.

لقد استاءت من الأمر وتغيرت ملامحها، وغرقت في التفكير، لا بد أنها لم تتوقع مني كل هذه الصراحة والصدق، فأخبرها أنني قد فكرت ملياً

بالأمر، فلو أردت أن أخسر بريسما لصالحها، لن أكسب شيئاً بالمقابل على العكس سأكون متضرراً، ولذا من الأفضل لها أن تنهي لعبتها وتدعني أمضي في حياتي.

كانت قدماها ما تزالان على الطاولة، نهضت قليلاً من مكانها وتناولت فنجان الإسبريسو، ومن ثم أسندت نفسها من جديد إلى الأريكة، وضعت الفنجان على شفاهها ومررت حافته قليلاً حولها كان البخار المتصاعد منه يدور في فتحتي أنفها الصغير الناعم بشكل جيد، وبنفس عميق سحبت رائحة القهوة إلى داخل رئتيها، وفي تلك اللحظة أخذت تمزمز من قهوتها.

قلت: صحيح أن بريسما لا تخيط لي أزراري أبداً، أي لا تأتي كل مدة وتلقي نظرة ولو لمرة واحدة على قمصاني، وإن كان أحد الأزرار على وشْك السقوط أن تخطيه لي، أو لم يحدث قط أن جلست أمام الطشت لتغسل ياقة قميصي بالصابون، إضافة أن لديها بعض من تلك التصرفات النسائية الخبيثة التي تخرج المرء عن طوره، وأمي كانت مثلها، وأختي أيضاً.. ولكن مع هذا كله هي في المقابل سيدة مستقيمة.

أي لو قلت لها ألا تودين أن تلبسي واحدة من تلك الجينزات القصيرة في يوم ما، التي كان من المستحيل أن ترتديها، حتى ولو أرادت ذلك بشدة، تقول لندع الأمر إلى وقت لاحق عندما أكون معك سألبسها مرة أو مرتين، فلا تتحول إلى عقدة لدي..

الشيء الذي أزعجني بشدة أنها ذهبت إلى المحامي الخبيث وجلست تفضفض له مكنونات نفسها.. إلى الآن عندما أتذكر هذا الأمر أنزعج بشدة.

وضعت الفنجان على الطاولة في مكان بين قدميها والمنفضة العجيبة، مدت يدها وتناولت سيجارة من علبة السجائر النسائية على نكهة النعناع، فعندما وقعت العلبة على الطاولة خرج فيلتر بضع سجائر من أعلى العلبة، وأشعلتها بالقداحة التي كانت فوق الطاولة، من تلك القدحات التي تملك قاعدة، وتشبه مصباح الزيت، أطلقت النفس الأول من الدخان إلى الخارج ومن ثم مجددا، وضعت السيجارة على زاوية شفتها وقالت لي: إنك الآن تظهر لي خوفك.

قلت: من ماذا؟

قالت: واضح.. من الجدة،.. من حالة غير مجربة، من وضع تجهله أو لا تثق به.

لقد كانت تقول الحق، فالشيء الذي آلفه يستحيل علي أن أتمكن من أن أغيره، ويود قلبي لو يبقى معي إلى آخر العمر، في أغلب الأحيان، مرة حدث أن رأيت لعبة بالية فقدت أقدامها ويديها، وضعها أحدهم على طرف الشارع، أردت أن أتناولها، وآخذها إلى صاحبها النذل وأريه إياها، وأسأل وجوده العديم النفع ومروءته، عندما كانت ما تزال لعبة جديدة، وكانت عيناها ما تزال في مكانها هل كنت مستعداً آنذاك لأن تتخلى عنها وترميها في الشارع، وتماماً في تلك اللحظة وبينما هو حائر في أمره، ولا يدري هل يصدق أم لا الشيء الذي يراه أو يسمعه، ويتأملني بطريقة خاصة، عندها سأمسك بيده وأرفعها نحو الأعلى وأضع اللعبة تحت ذراعه وأقول له: لا تضعها على طرف الشارع فيركلها أحدهم، أو ترشها السيارات بالطين، أو في وسط حاوية القمامة ويدها قد خرجت منها، وكأنها تطلب العون من أحدهم، لأنك ستسأل عما

فعلته بها،.. في بيتي لدي عين لعبة، أمر صعب ولكن إن بذلت جهداً يمكنك إصلاحها، فتعود كما كانت في أول يوم اشتريتها،.. ليس أمراً لطيفاً أن يتعامل المرء مع لعبته بهذا الشكل، وكأنها مجرد لعبة، أيها الشحيح، لا تكن ساذجاً إلى هذه الدرجة، ولا تظن للحظة أن الألعاب هي فقط ألعاب لا قلب لها، ولا يمكنها أن تلعنك، اتفاقاً، آهاتها مسموعة جيداً.

تابعت: إن الروتين اليومي لحياتك يشعرك بالطمأنينة، ولو أراد أحدهم أن يغير هذا الروتين تستاء منه، ولذلك أنت غاضب من زوجتك، أنها ذهبت إلى المحامي، وأخذت تفضفض له عن مكنونات قلبها، كلها حجج واهية،..إنك تخاف من أي شي يضرب روتين حياتك، أمر أنت لا تجرؤ على فعله ولا تريد أن يمتلك أحدهم الجرأة لفعله، قلت: يمكنك أن تتفلسفي يا صفورا حتى الصباح، ولكن تبقى مجرد فلسفة، فالشيء الذي أتحدث عنه أنا هو حياتي.

قالت: هل هو أمر سيئ أن أدخل بعض الإثارة إلى حياتك؟

وضعت يدي داخل شعري وقلت: اتفاقاً، إن ما أخشاه بالتحديد هو هذه الإثارة.

ضحكت، أي بدأت بالقهقهة، ومن جديد رفعت رأسها نحو الأعلى وعندما أنزلته قالت: أحقاً تريد أن ننهيها بهذه البساطة؟

أجبت: أجل، هكذا بهذه البساطة.

نفضت رماد سيجارتها فوق يدها وأخذت نفسا مجدداً منها، ومن ثم انحنت ومدت يدها لأخذ ما تبقى من سيجارتها.

قلت: هذه بنكهة النعناع، لا تعجبني.

نفضت الرماد عن يدها داخل المنفضة وقالت: بشرط.

لم أقل شيئاً.

قالت: أن أعمل لديك.

قلت: لا.

قالت وكأنها تتوسلني: على الأقل اسمح لي أن أستمر بتجارب الأداء... أيام السبت فقط.

فكرت بأنها تريد مكافأة أو شيئاً ما مقابل المحبة التي أظهرتها لي، لذلك قلت: موافق،.. ولكن مرة في الشهر.

فكرت قليلاً وقالت: موافقة.. لا أريد أذيتك.. كما تريد.

هذا ما جرى، شكرتها وقلت لها: إن اللعبة كانت قصيرة فلم تبدأ بعد حتى انتهت.

ولكن في الحقيقة، كان للعبة جماليتها الخاصة، نهضت لأذهب وأنام في المقهى، فلم يتبق على بزوغ الفجر إلا ثلاث أو أربع ساعات، هي الأخرى نهضت ورافقتني إلى أمام الباب، كنت في الخارج وكانت هي تستند إلى باب منزلها النصف مفتوح، وقالت: كنا أعددنا شيئاً من الطعام لنتناوله معاً.

سألت: مثلاً؟

أجابت: إن أصدقاءها يموتون من الكوكو الذي تعده صفورا.

قلت: لا يسوؤني أن أعرف سبب موت أصدقائها ما هو.

قالت: تعال واجلس، دقيقتين ويكون جاهزاً.

قلت: سأذهب إلى المقهى لأحضر لنا ماء الشعير.

قالت لي بنبرة فيها معاتبة: هذا أيضاً يمكن أن نجده هنا، تعال واجلس أيها الملتزم، تعال.

قالت قولها ودفعت الباب بكتفها ليغلق من تلقاء نفسه بهدوء، وكأنها قد فعلت هذا ألف مرة من قبل أي أن تغلق الباب خلف رأس أحدهم بهذا الشكل، فعندما وصل الباب إلى درفته الأخرى أُغلق بحيث يسمع فقط صوت وقوع لسان القفل في مكانه من الباب وليس أكثر من ذلك.

ثم وبعد أن رفعت حاجبي نحو الأعلى، أثنيت على فعلها هذا كيف تمكنت من أن تغلق الباب بهذه الطريقة الخاصة، عدت وجلست فوق الأريكة في وسط صالون منزلها، ولكن حالما توجهت هي نحو المطبخ لتعد لنا العشاء، آثرت أن أنهض من مكاني وأذهب نحوها بحيث أكون أكثر قرباً منها، وأريها من الآن فصاعداً أنني قريب منها ولكن بشكل آخر، وأنني ممتن لها وأقر بفضلها علي.

قلت: إنه لمن السخرية أن ينهي أحدهم علاقة ومن ثم يفطن إلى أنه يريد أن يستكمل معلوماته، ولم تخبريني يوماً عنك.

بنبرة معاتبة قالت مكنية: هل منحت أي فرصة للوصال بيننا حتى يكون في انفصالنا مصداقية.

أخرجت الخضراوات المقطعة الجاهزة من الثلاجة (ماركة فيلكو) التي من الواضح أنها كانت مستعملة، ولكن على الرغم من هذا، فإن جثتها لها قيمة أكبر من برادات ال جي الكورية، سألت: هل حقاً تريد أن تعرف؟

ولكن لم تنتظر مني جواباً رداً على سؤالها تابعت: هل تريد الصدق، إنني وحيدة أهلي، أبي من أولئك المتنفذين أصحاب رؤوس الأموال، لم يكمل دراسته أكثر من الصف السادس أو السابع، ولكنه أستاذ في كسب المال.

أغلقت باب الثلاجة وتابعت: يعمل في المعادن، ويقول: إنه يبيع التراب ولكن بسعر الذهب.

سكبت الخضراوات من العلبة في الخلاط ليزول عنهم الثلج، قالت: أراد أن أصبح طبيبة، ولكنني كنت عاشقة للمسرح، أشعلت الخلاط ووضعت يدها على وسطه، وأمعنت النظر إلي، رفعت طبقة صوتها قليلاً: لقد أخبرته، إنني أكره الدماء يا أبي، هل تفهم؟، ولكن لم يكن ليفهم، لقد قال لي إن درست المسرح فسوف يطردني من المنزل، قلت له: ليفعل، من يهتم.

أطفأت الخلاط وأضافت البيض إلى الخضراوات المقطعة وقالت: جلست ودرست الفن، وأتيت إلى هنا لئلا أبقى في طهران..لعليّ أتخلص من مضايقاته، هكذا هو رجل صاحب مروءة، فهمت أم لم تفهم.

أخرجت القليل من الجبنة من البراد، وأضافتها إلى الخضار التي ظهرت رغوتها، قالت: عندما أعلمونا النتائج قال لأمي: إنه سيتبرأ مني إن درست الفنون، قلت: لجهنم، ليتبرأ، لقد قال أيضاً: إنه لن يمنحني مصروفاً، قلت: لا يهم، سوف أنفق على نفسي.

تملكها الضحك، سكبت مزيج الخضراوات والبيض والجبنة في طاسة عميقة، وتابعت: مع حبات الجوز هل أنت موافق؟، قلت: لا يسوؤني الأمر.

قالت: مع الزرشك، ما قولك؟

قلت: لا.

قالت: أنا أيضاً لا أحبذ فكرة الزرشك، فهي تترسب جميعها أسفل المقلاة وتحترق.

في تلك اللحظة انحنت وتناولت من أحد خزائن المطبخ من علبة غطاؤها زجاجي، بعضا من الجوز، طحنتها بيديها، وألقتها فوق المكونات.

قلت: لتنتفخ المكونات لم يكن ينبغي أن تضع البيض أولاً، فهذه الخطوة تكون في آخر مرحلة، عندما تريدين أن تخلطيها معاً، وفي الحقيقة ليس عليك أن تخلطيها، يجب أن تقلبيها أعلى وأسفل وحسب، وإلا فإنها لن تنتفخ كثيراً.

قالت: لديك المزاج لذلك،.. إن أردت أن تتقيد كثيراً بهذه القواعد لن يكون الطعام لذيذاً.

في تلك اللحظة، توجهت نحو مشبك الأواني، وتناولت مقلاة نحاسية، ووضعتها على شعلة الموقد لتسخن، ثم التفتت إلي وقالت: في هذه المقلاة النحاسية تطهى بشكل أفضل.

ثم تناولت قالب الزبدة من البراد وأزالت لفافة الألمنيوم الفضية من حوله، وألقتها في سلة المهملات، ووضعت لوح الزبدة وسط المقلاة، وفجأة كأنها تذكرت شيئاً لم تسألني عنه: يا إلهي، لم أسألك هل تحب أن نقيلها بالزبدة أم الزيت؟

وبعد أن لحست باقي الزبدة من على إصبعها، التفت نحوي وسألتني: إن كان الأمر مهما بالنسبة إليك سوف أغير المقلاة.

أجبت: لا... هكذا ستصبح لذيذة أكثر.. كنت تقولين..

إلى أن تذوب الزبدة، قالت: حسناً... نهض وجاء إلى هنا، واشترى لي هذه الشقة، وكل شهر يرسل لي مصروفاً نحو أربعمئة إلى خمسمئة تومان، يا إلهي، هل رأيت ما حدث؟ كنا نوشك أن ننسى الملح.

ذهبت وتناولت المملحة من على كانتر المطبخ، وأخذت ترش الملح فوق مزيج الكوكو، ولكن للحظة توقفت عن رش الملح وسألتني: كيف تفضله: ملحه قليلٌ أم مالح؟

أجبت: مثلك.

هذا ما جرى، فأخذت من جديد ترش الملح.

ولكن وبينما هي ترش الملح على مزيج الكوكو نظرت إلي نظرة عتاب، ولتعاتبني من جديد قالت: ليس الأمر أنك قد تذوقتها أيها السيد المشرف.

في تلك اللحظة رمقتني بنظرة خاصة، ولكنها لم تكن طويلة إلى الحد الذي ترى فيه ابتسامتي الخفيفة والمتعبة، إذ اضطرت لأن تأخذ مزيج الكوكو وتذهب به في اللحظة المناسبة إلى المقلاة التي ذاب فيها قالب الزبدة كاملاً، وأخذت رغوة الزبدة بالاحتراق شيئاً فشيئاً، فكان لونها يتغير لتصبح بنية أكثر وأكثر.

جلست على كرسي رباعي القوائم وقلت: مكان خبز البربري فارغ.

قالت: في مدينتكم عليك أن تحلم بخبز البربري، صحيح، لماذا ليس هناك بربري هنا؟

قلت: لأنه ليس لدينا طبقة كادحة هنا.

ضحكت وقالت: انتبه لما تقول، فلا تقل شيئاً عن الأتراك، وقد قلت لك سابقاً لن يمر الأمر بدون حساب، لا تقل لم أخبرك بذلك.

أفرغت كل خليط الكوكو في المقلاة ومسدتها جيداً بظاهر الملعقة، ومن ثم وضعت الغطاء الزجاجي فوقها، سحبت كرسي رباعي القوائم إلى جهتها وجلست عليه: حسناً، أنت أخبرني... حان دورك الآن..

سألتها: من أين أبدأ؟

أجابتني: من نفسك، من عملك،.. فمهما كان عملك لم تكن قهوجياً.

قلت: كنت أدير مجلة.. لم تكن لتبيع، لذلك أوقفتها.

سألت: لماذا؟

سألتها: لماذا لم تكن تبيع، أم لماذا أوقفتها؟

أجابت: لماذا لم تكن تبيع؟

سألتها: ليس لديك نوع آخر من السجائر، لقد أنهيت كل سجائري؟

قالت: أجل، من حسن حظك لدي، ومن مكانها حيث تجلس، أدخلت يدها في البراد وأخرجت منه علبة سجائر مختومة ماركة وينستون حمراء، ودفعتها نحوي فوق الطاولة، وقالت: أصلية.

أشعلت سيجارتي، وقلت: لم تكن تبيع لأنني في آخر عدد كنت قد نشرته، كنت أعلم ولكن لم أكن لأفهم أن على الصحفي أن يأخذ مكانه خلف الناس، فيرى أين يذهب الناس فيذهب هو إلى نفس المكان،.. والآن فليكن هذا المكان ما يكون، جحيماً أم وادياً، فليكن.. ولكنني كنت دائماً متقدماً على الناس ببضع خطوات إلى الأمام.

مثل الحمقى، توقعت أن يسيروا خلفي ويأتوا إلى حيث أكون، ومن ثم طبعاً كانوا يذهبون إلى نفس المكان الذي كنت قد سبقتهم إليه قبل أن آتي إلى

مكاني الحالي، ولكن في تلك الفاصلة الزمانية التي كنت قد ذهبت فيها ومن ثم هم قرروا أن ينهضوا ويأتوا نحوي، كنت قد ذهبت إلى مكان آخر، هذا ما جرى، فلم نتمكن أبداً أنا وهم من أن نجتمع في مكان واحد وزمان واحد، ولذلك، كل ما كنت أطبعه كان يعود إلي، اللعين، أي لقد أصبح الأمر على النحو التالي، كلما كنت أذهب إلى مكتبي في القبو، كان قلبي يكاد يتقطع من الحرقة لأن الأعداد كانت تعود إليّ وتعلو شيئاً فشيئاً.. عدد تلو العدد.. ويا ليتها فقط كانت تعلو وحسب وتثبت في مكانها، بل كانت تزداد باطراد.

من تحت الغطاء الزجاجي للمقلاة وانعقاد البخار عليه كان يبدو أن الطعام قد بدأ ينضج وينتفخ شيئاً فشيئاً.

الهيئة العامة السورية للكتاب

هجرة الأغنام!

حالما لمّعت أرضية المقهى بالممسحة، ورتبت المكان، ذهبت باتجاه الحاسوب الذي وُضعت شاشته فوق لوح البار من تلك الشاشات الرفيعة العديمة الهيبة، ويحار المرء في إلكترونها كيف يصل إلى واجهة الشاشة، أشعلته وانتظرته ليقلع، لأتمكن من أن أتفقد صندوق الرسائل في إيميلي، وذلك بعد أربعة أو خمسة أيام لم أكن قد فتحته فيها، فأرى هل لدي رسائل أم لا. ضغطت على زر الاتصال بالإنترنت، وانتظرت الصوت الخاص بوصل الإنترنت، وعلى الرغم من أنني أكره وبشدة وشوشات الجهاز اللاسلكي المضحكة الخاصة بالشرطة، إلا إني عاشق لسماع صوت وصل الإنترنت في كل يوم على الأقل لمرتين أو ثلاثة، على الرغم من أن ظاهر الأمر هو بعد أن تأتي الموجات إلى الأسفل والأعلى وقد تسحب وقد لا تسحب، فتصل إلى المسامع أنواع وأقسام الذبذبات، ولكن لا أعلم لماذا أنا قتيل هذا الصوت إلى هذا الحد، وإن لم أسمع هذه الموسيقا المتداخلة بعضها مع بعض كل يوم على الأقل فلن يكون حالي على ما يرام.

حتى يصل الزبين، سأكون قد أرسلت الرد على معظم الرسائل التي قد وصلتني، لقد كتب لي همايون: «ألن تأتي إلى طهران؟»، وطبعاً كان قد أرسل لي صورة لأحد الرجال من أولئك الذين وكأن أجسادهم قد خلت من العظم، ويمكنهم كيف ما أرادوا أن يطووها، أريد القول، أن الرجل قد انحنى من ناحية الخصر إلى الخلف بحيث تمكن من أن يدخل رأسه من بين ساقيه وينظر إلى نفسه من الخلف.

كتبت له جواباً على سؤاله: ربما سآتي، لأن قهوة ستاربكس قد نفذت وعلي أن أذهب إلى المقهى الرئيسي لأشتري بضعة كيلوات منها، أضف أنني أتمنى أن يأتي اليوم الذي ستتمكن فيه مثل ذلك الرجل من أن تكون على هذا القدر العالي من الليونة، فتطوي نفسك بحيث تفهم واقعك، وتعثر في النهاية على نفسك المفقودة.

كتبت لي فرحناز: آسفة أنني لم أتمكن في المرة الماضية من المجيء إلى المقهى، كان الذنب ذنب بريسما، فهي من أخبرتني أن الأمر قد انتهى بينكما، ولا يمكن لأي أحد منا أن يفعل حياله شيئاً، بحق، لقد أخبرتني وردة الضفيرة أن لديك زميلاً جديداً في المقهى، أخبرني.. هل حقاً لا يمكن إصلاح ما بينك وبين بريسما؟

كتبت لها: لقد أهانتني أختك إلى درجة لا يمكنني أن أتحمل الحياة معها، حتى ولو كانت مستعدة لأن تجعل من جسدها خيمة لأتمكن من إشعال سيجارتي، أو أن تخرج من بين صفحات كتب طفولتها، ولا تعود إلى هناك باستمرار فتتوقع مني أي شيء من تلك الأشياء التي تتوقعها النساء من أحد أمراء الدنمارك أو أصيل إنكليزي، أو حتى لو أنجبت لي خمسة وستين طفلاً بين قصير وطويل يتحلقون حولي ومن فوقي، أيضاً لست مستعداً لكي أسامحها.

مع البيع بالإجبار وخدمت هذا وذاك إلى الآن لم أتمكن سوى أن أجمع لها نصف مهرها، ونصفه الآخر سأجمعه قريباً، وأعطيها إياه لتذهب وتكمل حياتها، ولتجد رجلاً ميسور الحال فتتزوجه ومنذ اليوم الأول إذا ما استطاعت فلتشترِ الذهب والمجوهرات، أو من تلك الفساتين ذات الياقة الأرنبية، فلتشترِ عشرة أو عشرين فستاناً وتعلقها في خزانتها، وليذهبا متشابكي الأيدي إلى

داخل أحد تلك المولات التجارية الراقية، ليتبضعا من هناك باستمرار، وليعطيا أحدهم كل مشترياتها ليضعها لهما في صندوق سيارة السوناتا البترولية، ويذهبا في السنة اثنين وخمسين مرة إلى الشمال، فيستأجرا فيلا جميلة في مواجهة بحر مازندران المتسخ الذي أشمئز منه، يستأجرانها لمدة مئة وخمسين ليلة، وعندما يعطي الرجل أجارها تفتخر أختك بنفسها أن خلفها يقف رجل قوي وكريم، وليشتريا لهما من تلك التلفازات البلازما أربعمئة وعشرين بوصة، ويضعاه في غرفة الضيوف في منزلهما، التي يبلغ طولها وعرضها بحيث يمكن لضربة نايغر وودز أن تجعل طابة الغلف تتنقل إلى نهايتها، أو لتوظف لديها عشراً أو عشرين خادمة وخادماً يسكبون لها الحليب رأس كل دقيقة.

لا! مع هذا كله أحبها كثيراً وهل تعلمين، ما زالت أموت لأجلها، ولكنني لست مستعداً مهما كان الثمن، أن أضع نفسي بصورة حمقاء من جديد فتنظر إلى امرأة وتقول لي: «منحوس»، فالكثير من النساء يرغبن بمنحوس مثلي، لا يسمح مهما كانت الظروف بأن يتطاول عليهن، أو يقاتل ذلك الذي تسول له نفسه أن يستقوي عليها، حتى وإن عانت زوجاتهم وأطفالهم صعوبات الحياة، أو اضطروا أن يعملوا بعمل لا يليق بهم، أو أن أجرة ذلك العمل لا تمكنهم من أن يشتروا شيئاً لزوجاتهم أو لعيد ميلاد ابنتهم، أريد امرأة تفهم لماذا نعاني الصعوبات.

لست شخصاً شريفاً كثيراً، أما ذرة الشرف هذه التي لدي لا أمنحها لأشتري خط تلفون يدوي ورأس كل دقيقة أتصل بزوجتي، لأقول لها: أحبك، ليهدأ بالها، مع أنني أحبها بحق، ولم تصبح شيئاً عادياً بالنسبة إلي.

إنني مسؤول عن أحلامي أنا، وليس عن أختك ولا عن أي امرأة أخرى، وتتمثل مسؤوليتي تجاه وردة ابنتي بقدر ما يتحمل الإنسان، أن يمتلك

عزة نفس، فلا يتنازل عن نجابته من أجل جوز من الأحذية ود لو كان بإمكانه أن يمتلكها. وصفورا أيضاً فتاة طهرانية، تدرس المسرح هنا، كان لديها كل سبت أداءً في المقهى، ولكن من الآن فصاعداً سيكون الأداء مرة كل شهر، طمئني أختك ووردة الضفيرة من أن هذه الفتاة مثل «الشمس في دقائقها الثماني الذهبية» إلى هذا الحد مجازية، وإلى هذا الحد عابرة.

بعد أن كتبت ما كتبت أعدت قراءتها، ورأيت أن رسالتي لفرحناز أشبه بإبلاغ ضد الاستهلاك، من كونه جواباً يرد به المرء على أخت زوجته، على أي حال لقد حفظته في مكان ما بين ملفاتي.

كتبت لآرشام وهو صديقي الإنترنتي ولا أعرفه مطلقاً، ولكنني أعلم أنه من مكان لا يتحدث فيه القوم مثل عموم البشر، لأن رسائله كتبت بأسلوب فارانكليسي خاص، سألني عن وردة ما أخبارها؟ وكتبت: ليس واضحاً لماذا تلك الفتيات حالما يتذكرن «حرف الطاء» يتناولنها بسرعة ويكتبن فوق ورقة «إن سمحتم ممنوع الدخول»، ويلصقنها على زجاج مدخل غرفهن، وليس واضحاً، لماذا حالما يفهمن شيئاً، يطلبن من المرء أن يشتري لهن دفتر مذكرات، وإن أمكن أن تضع لها قفلاً، وتحتفظ بالمفتاح لديك.

أمسكت وردة الضفيرة وكتبت بخط غير منظم ومعوج خلف قطعة ورق مقوى اشتن باخ «إن سمحتم ممنوع الدخول!»، ووضعتها فوق باب غرفتها، لعل الحل كان ألا أدعها تذهب إلى المدرسة لتتعلم، أو كان علينا أن نذكرهم بألا يعلموها «حرف الطاء»، على كل حال لقد وصلوا إلى حرف الطاء، وفي هذه الأيام عندما يتعلمون العين والغين، ستكتب أشياء أخرى غير مترابطة على الورق المقوى البرتقالي الملصق على باب غرفتها.

عندما أنهيت ردي على آرشام، شعرت بأن شيئاً قد سقط في فمي، عندما تحسسته جيداً بلساني، وتفحصت نوعه، فهمت أنه ينبغي أن يكون قطعة صغيرة من سني الذي أعطيته ليضعوا لي حشوة فيه، ولكن يحدث أحياناً أن تنفصل قطعة صغيرة منه، فيساورني القلق من أني كل يوم أصبح أكبر وأكبر، ولم أحقق بعد أمنياتي.

ما جرى، أنني تناولته عن طرف لساني، وأخذته بين أطراف أصابعي، تأملته لمدة من الزمن، ومن ثم بعد أن شتمت طبيب الأسنان شتيمة تتعلق بشرفه لأنه حشا سني بحشوة مغشوشة، ولكن أخذ مني أموالاً حقيقية، ألقيته في المنفضة.

لقد أصبحت متصلاً بالنت، أرسلت بالبريد جواب كل من همايون وفرحناز وآرشام أرسلتها معاً، ومن ثم قطعت الاتصال من جديد لأجلس وأكتب رداً على بقية الرسائل.

أعددت طلب قهوة تركية لزبون غريب عن المقهى كان قد وصل لتوه وطلب قهوة تركية قليلة السكر، أعددته بحيث عندما يجلس في هذا الوقت من الصباح ينسى كل شيء، ليس الأمر أن أضع المزيد من القهوة لا، بل أن أحاول أن أخمرها بعناية.

كان رجلاً في منتصف العمر، دعاني للجلوس إلى طاولته، ومع أنني لم أكن أريد الجلوس فلا طاقة لي بالحديث مع أحد، ولكني جلست، وأنصت له. كان يتحدث إلي بينما يقلب بعجلة وملل صفحات جريدة صباحية محلية، قال: إن عمله مندوب قهوة، وأغلب المقاهي الجيدة والرسمية في هذه المدينة تشتري منه القهوة، وإن أردت، سيحضر لي أيضاً

القهوة، ويقبل مني أن أدفع بشيك مؤجل، تشكرته وقلت له: إنني أشتري قهوتي من طهران ومن خاجيك فقط، ولا أعتقد أن أي مكان آخر سيعجب زبائني أو دع زبائني جانباً، لا أعتقد أن أي مكان آخر سيعجبني أنا. رفع أكتافه نحو الأعلى، وسحب جريدته من جديد ربما أراد أن يتظاهر بقراءتها مجدداً، وحالما فعل هذا قال: حسناً، كما ترغب. كانت تلك اللحظة التي وقفت بها، وعدت لأكتب بقبة الرسائل، كتبت لدانيال طالب طب في السنة الأخيرة، وشاب لطيف، وعنوان إيميله الملك دوني، ولذلك كنت أخاطبه بكلمة حضرتكم لأحافظ مثلاً على احترامه:

سلام على حضرتكم:

لأكتب قصة قصيرة راودتني فكرتها الليلة الماضية علي أن أعلم العوامل الدموية تتألف من كم فقرة، كل واحدة منها ما هو الخطأ الذي ترتكبه في دم الإنسان، ما هو أو من هو الذي يعطيهم هذا الترتيب، ما هو أو من هو الذي ينظم موتهم، الذين أعرفهم عملهم أكل الغرباء، كيف يميزون بعضهم من الآخرين، هل يحدث أن يضرب الجنون العوامل آكلي الغرباء فيبدؤون بأكل أنفسهم، ويدمرون النظام بأسره؟ أخبرني لأعلم كيف هو شكل كل واحدة منها، وما هو عدد الأيام أو كم هو عمرها، وبعد أن يموتوا كيف يتم دفنهم أو كيف يتم طردهم من الجسم، فقصتي هي حول العوامل العاملة التي تنقل الأوكسجين من هذا الطرف إلى ذاك، ولكن سيأتي يوم يحرض أحدهم البقية ألا يكترثوا للأمر وليضعوا أحمالهم على الأرض، وليتجمعوا في مكان ما، ليقولوا إن لم تتحسن أوضاع عملهم، من المستحيل أن ينقلوا شيئاً من مكانه، وعلى الطرف الآخر سيحرض أحد آكلي الغرباء البقية، أنه حالما يبدأ الامتحان فليأكلوا أنفسهم، لذلك أنا بحاجة لعونك، بأسرع وقت إن سمحت.

عندما حفظت رسالته انتقلت إلى رسالة علي، الذي كان قد كتب لي: أمر غاية في العجب، لا فيلم، ولا موسيقا، ولا أي منها يعطيني شعوراً كسابق العهد، ليس واضحاً ما حل بي، ماذا تعتقد؟

كتبت له:

فليغفر الله لك، أمرك منتهٍ، قلبك يريد امرأة.

فقصته على الشكل التالي، كل رجل يصل إلى مرحلة ما لا يعود فيها أي شيء في حياته كسابق عهده، وهو نفسه لا يفهم هذا التغيير من أين يأتي ماؤه، المعنى الواضح لهذه الحالة بأن الشخص يحتاج لحضن دافئ يكون له وحده، ولا يزول الأمر بطرق ملتوية، يزول فقط من خلال امرأة تكون لك وحدك، وإلا فليس مستبعداً أن يقودك الأمر نحو الجنون إن أردت أن تكبحه، فلا يتبقى لك شيء حتى تفقد عقلك، خشية أن ينكبت، ولكن هناك طريقة يمكنك بها أن تخرج من هذه الأزمة التي أسميتها (أزمة الحضن الدافئ للإنسان) ولبضع سنين ستحتال على هذا الإحساس، هذا الحل يتمثل أنه وبأي شكل ممكن يجب عليك أن تحصل على حبيبة حسناء وتتمسك بها، تعقد عليها مدة شهرين أو ثلاثة، وطبعاً كن حذراً ألا تفعل شيئاً أنت وامرأتك، فلا أراك بعد شهرين وقد كتبت لي أنك قد أصبحت عاشقاً لها، ولا يمكنك التخلي عنها، يمكن التخلي وترك أي امرأة، أو ما يدريني..قد انتفخ بطنها ولا تدري ما عليك فعله وتريد نصيحتي حول العقوبة القانونية للكورتاج لأنك لا تعرف شيئاً عن هذا الأمر؟ أردت أن أختم رسالتي ولكنني عندها تذكرت «هجرة الأغنام» فأضفت:

عندما يحين موعد الهجرة الشتوية للأغنام، يصعد أبيضها صوفاً إلى فوق الصخرة، ويقف مواجهاً الشرق، ويشتم الهواء، وحالما يشعر بقدوم الثلج، ينحرف بوجهته إلى تلك الجهة التي تكون فيها الرائحة أقل، في تلك اللحظة يسير قطيع الأغنام خلفه، وأينما ذهب يذهبون معه، والآن من الممكن خلال مسيرهم أن يتساقط العشرات منهم من فوق الصخرة وينفقون، لذلك كانت الهجرة الشتوية للأغنام ملأى بالدم والنزيف، وحراس الغابة ليخدعوا هذه الأغنام فلا يدعوها تمضي في هجرتها، وتعرض نفسها للقتل دون فائدة حسب رأيهم، يلجؤون إلى حيلة تظن معها الأغنام أن الخاروف المعمر لو فعلاً قد أدرك بقطعية قدوم الشتاء إذن لماذا هذا القدر من كمية العلف منتشر على الجبل وسفحه؟ لا بد أنه قد فقد عقله، وأخطأ بتوقعه أن الشتاء على الأبواب، الحيلة هي أن الحراس يأتون بكميات كبيرة من العلف وينشرونها على طريق الأغنام الحمقى، بحيث حتى لو أقسم لهم الخاروف المعمر بالله وبزوجته وأولاده بأنه قد اشتم رائحة الشتاء بأنفه هذا وفهم أنه في الغد أو بالكثير بعد غد سوف تنزل الثلوج، لن تتحرك الأغنام من مكانها قيد أنملة، إضافة أنه من الممكن أن ينظروا إليه نظرة بأن خذ يد زوجتك وأولادك وارحل من هنا، فيتألم الخروف المعمر إلى آخر عمره من جحود قومه وقبيلته، إلى درجة إن أرسلوا الربيع التالي في إثره، لن يعبأ ويكترث بالمصير الذي سيحل بهم، فليذهبوا، ويأكلوا فضلاتهم عندما يكونون لهذه الدرجة حميراً، وتنطلي عليهم حيلة الحراس الأربعة للحياة البرية، فلم يدعوه ينجز عمله على النحو المعهود، وكما صمم له ليفعل.

والآن أنت أيضاً يا علي فلتعطِ قلبك «حضناً دافئاً» يكون لك وحدك، فلا تظن في قلبك أن هذا الحضن الدافئ هو ملك لغيرك أبداً، وعليه إلى سنة أو سنتين طبعاً لن تأتي تلك الأزمة التي حدثتك عنها في إثرك، وستتمكن من جديد أن تستمتع بالفيلم والقصة، فتجلس وتشاهد للمرة العاشرة أو الثانية عشرة «بعيداً عن الاجتماع الغاضب» ومن جديد يتألم قلبك لأجل راعي الغنم، أو أن تشاهد تمثيل جيرمي برات في فيلم شارلوك هولمز وتشتمه شتائم متعلقة بالشرف؛ لأن ابن الحرام يتقن السحر، فهو يمثل بغمزة من عينيه.

الهيئة العامة السورية للكتاب

لو كان خطأ شخص واحد

حالما أرسلت الرسالة لعلي ودانيال، وصلت وردة الضفيرة من الخارج ركضت إلى البار وأخبرتني أنها تريد مئتي تومان لتعطيها للرجل الواقف أمام باب المقهى، فإن أعطاه أي شخص مئتي تومان فسوف يعزف له على الكمان.

وضعت يدي في جيبي وناولتها مئتي تومان جديدة وعندما كانت تركض لتخرج من باب المقهى قلت لها: أخبريه أن يأتي إلى داخل المقهى ليعزف.

الشاب الذي كان يعزف الكمان، شاب أبيض الشعر، نحيل، ضئيل الحجم، أحدب الظهر، فهمت أم لا، يضع على عينيه واحدة من تلك النظارات الخاصة بالعميان، وفي يده عصا من تلك العصي الخاصة بهم أيضاً، التي قد لفها بإحكام بواسطة حبل طويل ومحكم ولفها حول معصم يده اليسرى نفس اليد التي كان يمسك بها الكمان وقد وضع نهايته فوق كتفه.

سأل وردة الصفيرة التي كانت قد أمسكته من يده وأدخلته إلى المقهى وهناك أفلتتها: ماذا أعزف لك أيتها السيدة الشابة؟

سرت وردة الضفيرة من أحدهم يناديها أيتها السيدة الشابة، التفت نحوي وسألتني: ما هو رأيك، ماذا يعزف؟

أجبت: أي شيء يتقنه، فليعزفه.

أمال الشاب صاحب الشعر الأبيض، الذي لا يتناسب وعمره، رأسه نحوي وقال: إنني أتقن أغلب الألحان يا سيدي.

سألته: هل يمكنك أن تعزف «الليلة لدى قلق في رأسي»؟.

أجابني: أجل، يمكنني.

في تلك اللحظة وضع قوسه فوق أوتار الكمان الباهتة، مرره لمرة أو مرتين، ومن ثم أخذ بالعزف، كان كمانه كامل الدوزان، تصدر منه نغمات حزينة فريدة من نوعها، ولم أكن قد سمعت مثلها إلا نادراً.

وردة الضفيرة جلست في مكانها وكانت غارقة في التفكير دون أن يكون لديها أدنى اطلاع أو معرفة سابقة بهذه الأغنية لابد بد أن قلبها قد حن لأمها بري، أو لعلها كانت تفكر لماذا بعض الناس عميان، أو لماذا بعض الفتيات لا يقرضن أحجارهنّ الملساء للآخرين ليلعبوا بها لعبة الحجلة؟ لأنني رأيتها وقد انفصلت تماماً عن هذا العالم، وإلى أن أنهى الشاب المعزوفة ورفع قوسه عن الكمان، لم تكن لتعود عن المكان الذي كانت في داخله.

لقد عزف الشاب بشكل جميل جداً لذلك فكرت أنه من المؤسف ألا أدعوه للجلوس لأتعرف عليه، طلبت من وردة أن تمسك يده وتجلسه فوق الكرسي الرباعي القوائم بجانب البار، وعندما جلس، سألته هل يشرب الشاي أم القهوة؟ فقال لي الشاي لو سمحت.

لذا، صببت له الماء المغلي في فنجان خاص ووضعته بالقرب من يده، دورت ظرف الشاي قليلاً في داخل الفنجان وعندما أعطى لوناً جيداً، تناولته وألقيته في سلة المهملات، في تلك اللحظة أخذت يده وألصقتها بالفنجان ليعرف مكانه، خشية أن تضرب يده في وقت ما الفنجان ويحرق نفسه.

كنت أفكر كيف أنه لم يبعد يده عن الفنجان حتى ولو للحظة خشية أن يضيع عنه، وفجأة خطر على بالي أن أطلب منه أن يأتي كل يوم إلى المقهى ولساعة ونصف عند غروب الشمس ليعزف للزبائن التي ترغب بذلك،

بالمقابل سأمنحه راتباً وإن أعطاه الزبائن إكرامية فليحتفظ بها لنفسه، وليضعها في جيبه.

قال: لربما ضايقتكم في رزقكم؟

قلت: أي مضايقة،.. إنني أتمنى هذا من الله.. سيزدهر المقهى.

كانت وردة صامتة إلى تلك اللحظة التي قربت فيها رأسها من أرنوبة أذني وقالت: ممتاز يا أبي، ولكن أخبره أن يأتي في وقت أكون أنا أيضاً موجودة.

بهدوء تام، وبحيث تسمعني فقط هي قلت لها: في النهاية عند الظهيرة يكون المقهى خالياً ولن يكون هناك أحد ليطلب منه العزف، وعندها لن ينال المسكين شيئاً.

هزت رأسها في إشارة إلى قبولها الكلام الذي قلته، لذلك التفت نحو الشاب وقلت له: موعدنا بدءاً من الغد عند مشارف الغروب.

وبعد أن أنهى الشاي نهض ليذهب، فأتت وردة الضفيرة من خلف البار راكضة لتساعده، فتناولت كمانه من فوق كانتر البار بحذر وأعطته إيّاه، وأخذت يده الأخرى وخطوة بخطوة رافقته إلى خارج المقهى.

عندما عادت، علقت حقيبتها على مقبض أحد الكراسي ومن ثم دخلت إلى البار، عقدت مئزرها وسألتني: العميان لا يرون أي شي يا أبي؟

أجبت: من قال إنّ العميان لا يرون أي شيء؟ رؤيتهم أفضل من رؤيتنا بكثير.

سألت: كيف ذلك؟

أجبت: عندما يحرم الله الإنسان من شيءٍ فإنه يبدله عوضاً عنه عشرة أشياء أخرى.

سألت: من مثل؟

أجبت: مثلاً أن العميان وإن كانوا لا يرون شيئاً ولكنهم في المقابل لديهم آذان تسمع أفضل بكثير من آذاننا نحن الذين نرى.

سألت: هل من الصعب أن يكون المرء أعمى؟

أجبت: جربي ذلك.

سألت: كيف؟

أجبت: خذي قراراً اليوم أنك سوف تغسلين الأواني وعيونك كل الوقت مغمضة.

قالت: حسناً.

ما جرى أنها أغمضت عينيها وحاولت أن تتلمس طريق عودتها كالعميان باتجاه المجلى، وأنا جلست وظهري لها، جلست أكتب الأشياء التي سأضعها على موقعي على النت، وبين الحين والآخر، كنت أسألها وهي خلفي ووجهي أمام شاشة الكمبيوتر: أخبريني، أنت لم تفتحي عينك مصادفة. كانت في كل مرة تجيب بلا، وكنت في كل مرة أيضاً أنظر إليها فأراها وقد أحكمت إغماض عينيها، وضغطت على رموشها بجدية تامة، خشية أن تفتح عينيها في وقت ما، وشاهدتها كالعميان تماماً تمسح كفها فوق الفناجين ومن ثم تشطفها بالماء.

كانت صامتة كل الوقت، سألتني مرة فقط: صحيح.. أين هي السيدة صفورا؟

أجبت: من الآن وصاعداً لن تأتي لمساعدتي.

بتلك الأيدي المتسخة، وبينما ما يزال كأس الميلك الشيك الطويل في يدها تقدمت نحوي وسألتني: أي من الآن وصاعداً لن تأتي أبداً؟

سألتني وكأنها قد فرحت لسماعها هذا الخبر، فمن شدة سعادتها نسيت وعدها وعهدها الذي قطعته دون أن تنتبه فقد فتحت عينيها.

رفعت يدي عن لوحة المفاتيح واستدرت نحوها وأنا فوق الكرسي وقلت: لقد فتحت عينيك.

قالت: آه.. عفواً، لقد نسيت، قالت عفواً وكأنها أكثر أسفاً مني على ما جرى أن نسيت عهدها ووعدها، وفتحت عينيها من غير قصد، وحقاً كان الأمر على هذا النحو، ولذا من جديد أغمضت عينيها وذهبت إلى جهة المجلى كالعميان.

أجبتها: ستأتي فقط من أجل الأداء.. مرة واحدة في الشهر.

في تلك اللحظة التفت إلى شاشة الكمبيوتر من جديد ووضعت يدي فوق لوحة المفاتيح، سألتني من مكانها أمام المجلى: هل تظن أنها سوف تحضر معها صفا في نهاية الأمر؟

أجبت: لا، لا أعتقد، أمر مستبعد أن تتمكن من الحصول على إذن من والدها.

من كثرة ما كتبت لهذا وذلك لم يبق لي طاقة لأكتب منشوراً طويلاً للموقع، لذلك اكتفيت بجملة واحدة فقط كتبتها وأرسلتها للنشر كانت جملة تعود لشخص فرنسي اسمه لاروش، وقد قرأت هذه العبارة في مكان ما يوماً ما وكانت عبارة قيمة جداً: «الجدال لن يدوم إلى هذا الحد لو كان المخطئ شخصاً واحداً».

إنه جميل،
يحث المرء على التفكير

آخر زبائن المقهى الذي وصل متأخراً، اختفى فجأة، ومن ثم كنت مجبوراً أن أطفئ الأضواء الواحد تلو الآخر، وأن أنجز حفنة من الأعمال الروتينية الأخرى، فأنزل باب المقهى نحو الأسفل، وأذهب إلى البيت، كان الزبون رجل أمن في وقت ما أجرى معي ومع زوجتي مقابلة ليفهم هل نحن جواسيس أو أي شيء آخر أم لا، ليكتب ذلك ويرسله إلى مكان ما أنه وحسب رأيه يمكننا أنا وبري أن نمتلك مجلتنا الخاصة، أم لا، ومن ثم صادف بعضنا بعضاً مراتٍ عدة.

كان المقهى قد أصبح خالياً تماماً من الزبائن عندما ظهر، ومع أنه قد أصبح أكثر سمنة مما كان عليه سابقاً، كان يبدو خفيفاً، فقد أعطاهم ليحلقوا ذقنه بآلة درجة أولى، وكان يصح مما تراه من خط وخطوط وجهه أن تميز كم هو شخص لطيف بينما كنت قد حدثت نفسك من قبل: هؤلاء هل لديهم قلوب أم لا؟ وهل يحملون أطفالهم على ظهورهم أبداً، فيجعلونه حماراً لهم؟ أم لا، فهم معتادون لكثرة ما يبرزون أنفسهم لهذا وذاك ويفتخرون بها، أن يكونوا مغرورين حتى مع أطفالهم؟ بحيث تفقع مرارة هذا الصغير ليذهب ويمتطي ظهر والده.

كلما فكرت بهم، يذهب تفكيري نحو الله، وكم هي صعبة الألوهية، أريد القول: أن يكون مطلعاً على كل الأسرار الكبيرة والصغيرة للإنسان، وأحياناً لا يسوؤك أن تستخدمها، فهي أمر مثير مغرٍ، من هذا الباب أقول هم

آلهة أنفسهم فإلى هذه الدرجة يعرفون أسرارك الخفية، بل يعرفون أمام أي شجرة وفي أي وقت أنزلت بنطالك نحو الأسفل وتبولت في مكانك، وبسبب تلك الجنايات المرعبة التي ارتكبتها من الممكن إلى آخر عمرك ألا يسامحوك.

أريد القول: يتشددون في الحياة أكثر بكثير من الله، وكثير من الأشياء من الممكن أن يتغاضى الله عنها ويغمض عنها عينيه، ولكن هم لا يمكنهم ذلك، فيظنون أنهم إن تغاضوا عنها أو تغافلوا عن شيءٍ لعل الله لا يسامحهم، ويخافون من أن يسلب منهم يوماً الحساب، لأنهم لماذا وعلى الرغم من قدرتهم على ذلك، لم يسحبوا لبنة قميص المرء فوق رأسه لأنه نسي أن الناس الصيام وأخذ يحرك فمه.

وعليه في الحقيقة إن عملهم شاق للغاية، ولم أرغب قط في أن أكون بمكانهم، فأكون مسؤولاً عن حساب الآخرين على ذنوبهم، فهل مشاغلي أنا الآخر وذنوبي قليلة لأسوق الحساب على الآخرين، على الرغم من أن كثيراً ممن أعرفهم يتوقون ليكون لديهم مثل هذه الأعمال التي يقوم بها بيرس بروسنان، فحالما يمسك بأحدهم يقع على الأرض مغشياً عليه، أي تصطدم به موجات صوتية تصيبه بالدوار، أو يربطون شيئاً على خصرهم يكون نافراً من تحت سترتهم وهكذا يخيفون به البقية، أو يمسكون اللاسلكي في أيديهم وأمام الجميع وأمام وجوههم يقولون: شاهين شاهين.. المركز.. شاهين شاهين.. المركز، ثم يرفعون يدهم من على الزر، وبعد مدة يرسل اللاسلكي صوت تشويش ومن جديد يقولون: شاهين شاهين..المركز، يستمتعون للغاية من كونهم شاهينات، ولديهم اتصال مع مركز ما.

فلو قلت لكم: إني انتظرت قدوم أي شخص ما عداه، فقد صدقت القول، ولذلك عندما أدرت ظهري عن المجلى، ورأيته يجلس وأخذ ينظر

إلي، تجمدت في مكاني، ولكن بعد ثانية تقدمت للأمام وسلمت عليه وقلت له ممازحاً: هل أتيت إلي كقهوجي أم علينا أن نجري مقابلة؟

ضحك وأجاب ممازحاً هو الآخر: إلى القهوجي متى يكون، ماذا عندنا من القهوة، أتيت إلى القهوجي!

قلت: تجده إما في الصباح وإما في آخر الليل، فيصاب المرء بالهلع لذلك، فأيام الله فيها الظهر أيضاً، يا مؤمن الله.

من جديد تملكه الضحك وطلب إلي أن أجلس وأرتاح.

من كلمة «ارتاح» التي قالها كان واضحاً أنه لا داعي للخوف، على الرغم من أني لم أخف يوماً منهم لا منه ولا من غيره، فكلما فكرت لم أستوعب الأمر لماذا علينا أن نخاف منهم، صحيح أنهم يشبهون الله من عدة أوجه، وهم متشددون أكثر منه أضعافاً مضاعفة، ولكن مهما كانوا هم ليسوا آلهة، أريد القول، بمقدار ما لدي من أمور ومشاغل حياتية هم أيضاً لديهم.

توجهت نحوه وسلمت عليه، سألني بينما يدي ما تزال في يده: في النهاية أتيت لرعي الأغنام.

ضحكت وأجبت: أجل.

قصة راعي الغنم تعود إلى ذلك الوقت الذي عادت فيه بريسما من مقابلته، وقالت آنذاك لي: إن الشخص الذي أجرى معاها المقابلة كان يسألها باستمرار ألا تشك بي؟ مثلاً ثيابي لا تعطي أي رائحة؟ وكأنه أرادها أن تفهم أني أدخن، ولكنني أخفي الأمر عنها، ما جرى أن بريسما عادت وسألتني: لربما أنا أدخن وأخفي الأمر عنها؟

في عصر ذلك اليوم حينما ذهبت إلى مكتبي اتصلت وقلت له: إنه يجب أن أراه، أعطاني موعداً عند غروب اليوم التالي في لوبي أحد فنادق المدينة ذات الأربع نجوم، كان قد وصل قبلي، وجلس فوق الكراسي الخمرية اللون الموجودة في لوبي الفندق، والتي رُكِبت على قاعدة معدنية، فيمكن للمرء إلى ما شاء أن يدور بها، حالما جلست بالقرب منه، أطرقته السلام، وقلت له: إنه وبرأيي ولمدة من الزمن من الأفضل أن يذهب لرعي الأغنام، فيذهب إلى الريف أو أي مكان آخر، ويطلب منهم أن يسمحوا له ليومين أو ثلاثة أن يأخذ قطعان أغنامهم للرعي.

تعجب من طلبي، لأنه قد جمع عينيه وسألني: وكيف ذلك؟

أجبت: لأنني أعتقد إن أخذ عدداً من الأغنام للرعي في ظرف يومين أو ثلاثة سيصبح عاشقاً لأغنامه، ولا بد أنه عند الغروب سيشعل ناراً، وسيخمر شاياً لنفسه، وسيجلس يعزف الناي لهم، وبينما يصدح صوت الناي في الوادي سيغرق في عيون أغنامه الواسعة والمظلومة، التي أغلب الأحيان تكون رطبة، فيخيل للمرء من أنها الآن ستنفجر من الحزن، وتبدأ بالبكاء.

لم يقل شيئاً حتى ولو كلمة، فقط نظر إلي، لذلك تابعت كلامي وقلت: عملك مثل عمل القصابين، فليس يلزمك كالقصابين إلا أن تتناول ساطورك وتفتك بأرواح الأغنام أو أن تقطع رؤوسهم، وتعلقها على مسمار لتسلخ جلدها لا أريد القول: إنك تفعل هذا، لا ليس الأمر كذلك، بل ما أريد قوله: إن لديك تصرفات قلما يود المرء أن يظهر رحمة أو مروءة نحوها، فطبيعتها بحيث إن فعلت هذا الشيء وكنت صديقاً مع الطرف الآخر أو قلبك يتألم لأجله، لا يمكنك أن تمضي بعملك، ولكن بحسب متطلبات عملك من الممكن شيئاً فشيئاً أن يفرغ قلبك من المحبة تجاه الأفراد، مما سينعكس عليك،

فلو لا سمح الله انسكب الماء المغلي على يد طفلتك فظهر القيح وانسلخ جلدها، فلا يحزن قلبك عندما يقع نظرك عليها، ولا تشيح بنظرك عنها، فإلى هذه الدرجة سيصبح قلبك قاسياً، لذلك، ينبغي لك في السنة على الأقل ولشهر واحد أن تخرج من هذه القوقعة، فتذهب وتصطحب عدداً من الأغنام للمرعى، وتحاول أن تحبهم، على الرغم من أن الأمر لا يتطلب منك مجهوداً يذكر، ويا حبذا لو تنظر مرتين أو ثلاثاً في عيون الأغنام الواسعة والرطبة، فينتهي عملك، حينها يمكنك أن تعود وتنخرط من جديد لمدة من الزمن في عملك هذا، وبالك مرتاح من أنه إن انسكب الماء الحار فوق يد ابنتك وأصابها القيح وأخذ الجلد يتقشر، فسيحزن قلبك إن وقع نظرك عليها.

دون أن يظهر أي ردة فعل، حدق بي وكان يستمع للموعظة التي كنت ألقيها والتي لم أكن أظن أنني سأنهيها، فقط أحياناً كان ينبغي أن أستخدم العتلة على قدمه التي كانت على الأرض ليحركها قليلاً نحو اليمين أو اليسار.

وأنا لم أكن لأتخيل أنني سأنزل بهذه السرعة عن المنبر الذي كنت قد اعتليته، ما جرى أنني تابعت: وعندها لن يكون لديك متسع من الوقت لتفهم إحدى نساء الناس التي تكره أن يدخن زوجها السجائر، وإن أدركت أنه يدخن السجائر بالخفية عنها من الممكن أن تدمر العلاقة بينهما، أن تفهمها بأي شكل كان أن زوجها يدخن السجائر بالخفية عنها، وأيتها الغافلة أنت لا تعلمين، ولكي لا تستمع أو تستلذ ولو للحظة من أنك دمرت حياة شخص لا يفكر مثلك، لذلك أقول لك، ليس سيئاً أن تذهب لمدة من الزمن وترعى الأغنام وتصبح راعياً.

أتريدون الحق، لو كنت مكانه وأتى أحدهم وأخبرني أنه من الأفضل أن أرعى الأغنام، وهذا لأبقى شخصاً عطوفاً ورقيق القلب، كنت سأعود

وأضربه على فمه، وطبعاً ليس جلياً إن كنت سأفعل هذا أم لا، يا لها من وجهة نظر، ربما سأشكره لأنه علمني طريقة أستطيع بمساعدتها أن أحافظ على نفسي ونفَسي، والآن قد قلت شيئاً وليس واضحاً ماذا كنت سأفعل في مثل هذا الظرف، ولكن ما فعله هو أنه عاد وأقسم إنه لم يكن يريد أن يفهم زوجتي شيئاً، فلو فهمت لا بد أنها كانت ستغضب بشدة، وستدمر علاقتنا، عندما أقسم، أخبرته مع أن تصديقه أمر صعب للغاية، ولكنني أقبله منه، ودون أن أتابع الأمر، جلسنا وتناولنا الشاي.

الآن وبعد مضي زمن على ذلك اليوم، كان يجلس فوق كرسي رباعي القوائم في مقهاي، في ذلك القسم من البار، وما تزال يدي في يده، وكنت أضغط عليها بحرارة.

وحين ترك بعضنا أيدي بعض سألته: ماذا يشرب؟

سأل: هل يليق بي أن أطلب كابتشينو؟

أجبت: ولم لا يليق بك، القهوة ليس لها علاقة بمكانة المرء، يا مؤمن الله.

قال: إذن واحد كابتشينو برغوة إضافية.

عندما أعددت له الكابتشينو، سألته عن أحواله وأيامه، فأخبرني أنه قد تقاعد، وهو الآن يعمل في الفخار، اشترى دولاب صنع الفخار ووضعه في زاوية كراج البيت، بعد صلاة الصبح يذهب إلى معمله، وقبل صلاة العشاء يخرج منه، ويسير أمور حياته براتبه التقاعدي والذي ليس سيئاً، واشترى أيضا تنوراً ليطبخ فخاره بنفسه، طبعاً كبير إلى درجة من الممكن أن يستقبل أعمالاً من الخارج.

جميع رفاقي المتدينيين الذين أعرفهم - ما عدا علياً- لديهم هذه الإرادة، فلو ربطت بأيديهم عشر ساعات رولكس مع ذلك يقيسون مكانهم وزمانهم وقفا لأوقات الصلاة.

قلت: يا لها من سكينة لا بد أنها تمنحها، عندما تعجن عجينة الفخار، أو تضرب قدمك ليدور الدولاب ويأخذ الطين في يدك شكلاً.

قال: لا يمكن وصفها.

وضعت الكابتشينو بالقرب من يده، جلست على كرسي رباعي القوائم داخل البار، وسألته: هل يعلم ما هي أسطورة الخلق عند الهنود الحمر؟ فقال: لا.

ما جرى أنني وضحت له: أن هؤلاء الخائبين يعتقدون عندما كان الله في معمل فخاره ويصنع آدم، صنع ثلاثة نماذج، الأول وضعه في التنور وأخرجه بسرعة، وهم البيض فيعود أصلهم وعرقهم إلى هذا النموذج، الثاني عندما وضعه تأخر قليلاً ليخرجه، السود هم من هذا الثاني، فيفهم الإله الآن المدة اللازمة التي يحتاج إليها النموذج في التنور ليخرج منها شيئاً لطيف اللون والماء، ليس نيئاً كثيراً، وليس محروقاً بالكامل.

قال: لا بد أنهم سيكونون الهنود الحمر.

ضحكت وقلت: أجل، فهم يقولون لسنا كالبيض طُهينا قليلاً، فما نزال نيئين، ولسنا كالسود طهينا كثيراً، فاحترقنا بالكامل.

ضحك وقال: تجريدي للغاية.

قال: وفيه الكثير من الأنانية.

قال: ولكنه جميل هل تعلم،.. يحث المرء على التفكير لعلهم محقين بما ذهبوا إليه.

مد يده ليمسك فنجان الكابتشينو ويرطب شفاهه سأل: كيف أنت والزمن؟

أجبت: أشكر الله، لست سيئاً.

سأل: والأهل والعيال؟

أجبت: في النهاية فهمت أنني أدخن بالخفاء.

قال: إنك تدخن يا عبد الله حتى إنّ أي شخص يمكنه أن يفهم ذلك، لا حاجة لي لأُفهمها الأمر.

ضحكت من النبرة الخاصة التي قال بها «أفهمها» فلم أقل شيئاً، تركته يمزمز الكابتشينو، وعندها سيضعه فوق خشبة الكانتر، وثم سيجمع باقي الرغوة بالملعقة ويتناولها.

جمع بالملعقة الرغوة من على سطح الكابتشينو، ووصل للقهوة وحركها، وحدقت عيناه بمركز الحفرة التي صنعتها قهوته التي كانت تدور، ولكن شيئاً فشيئاً خفت سرعتها وعادت القهوة نحو الأعلى، وحالما وضع الملعقة بجانب فنجانه، تأوه وقال: من تلك الأيام، فقط هذه بقيت لي من الرفاق، لعل واحداً أو اثنين منكم لم يكن يرغب بأن نكون رفقاء،.. فلم يفهموا أن كل شيء لعبة.

قلت: في النهاية لم أفهم ماذا علي أن أناديك.. في كل مرة كان لديك اسم.

قال: الآن أنا مجتبى.

قلت: لا تخطئ يا سيد مجتبى،.. من قبيل المصادفة أن من تتحدث عنهم، أخذوا اللعبة على محمل الجد أكثر مما كان ينبغي لهم.

أنهيت كلامي، أدرت وجهي ليرتاح بالي من أنني أطفأت آلة القهوة، دلكت عيوني من شدة التعب، وعدت باتجاهه، رأيته قد اختفى، ولم يعد موجوداً في المقهى، رأيت فنجانه الكابتشينو الذي تناوله للنصف ما يزال يتصاعد منه القليل من البخار، أما هو فقد كان قد اختفى، مثل قطرة الماء التي سقطت في ظهر يوم صيفي فوق الموزاييك المشتعل في باحة المنزل.

خرجت من المقهى، وقع نظري على بيت قديم مقابل المقهى، فكلما كنت عاطلاً عن العمل كنت أتناول غليوني، وآتي وأجلس خلف نافذته، أتأمل أغصان شجرة العرعر في ممر المشاة مقابل المقهى، وأسأل نفسي دائماً، أي أحمق قد اختار اسم عرعر لمثل هذه الشجرة الجميلة، وأحدق بالبيت المهجور القديم البناء وكأن أحداً لم يفتح بابه منذ خمسين عاماً، ولا أحد لديه النية ليفتحه.

عدت أدراجي إلى أمام المقهى لأنزل بابه نحو الأسفل وأقفله، شعرت أنني مشتاق للعودة للمنزل بعد هذا الوقت، لأزحف تحت غطاء وردة الضفيرة، أمرر يدي من تحت عنقها الناعم والطري بحيث لأوقظها، أرجع رأسها فوق كتفي أشم رائحة شعرها بينما أقبل جبينها.

أنا، أموت من أجل هذه الطفلة.

في الختام:

ينبغي أن أخبركم بملاحظتين:

أولهما، هل تريدون الحقيقة، الأمر الذي استدعى مني أن أبدأ في الحادي عشر من شهر دي[1] لعام ٢٠٠٦ بكتابة مقهى البيانو وصبح الحادي عشر من

---

(١) دي: فترة زمنية متعلقة بالبرج الفلكي من ٢٢/١٢ حتى ٢١/١. المترجمة.

بهمن[1] من العام نفسه أن أنهي كتابتها، هو: أنه في كثير من الأوقات كنت أشعر أنني غير مفيد وكثير الفراغ، أضف إلى ذلك أن ابنتي سألتني في مرة من المرات: أبي ما هو عملك؟!، لم يكن لدي جواب مقنع لأجيبها به.

حقيقة الأمر أني قد قلت لنفسي: ما دامت حياً، كم مرة من الممكن أن يحدث أن تسألني عن هذا، وأنا كم مرة يمكنني أن أرفع حواجبي للأعلى وأجيبها: أنا نفسي لأعرف يا أبي، ولكن إن جلست وكتبت قصة طويلة، ونشرتها، كنت أستطيع أن أقول لها: إن سألك أحدهم يوماً ماذا يعمل والدك، الآن ليكن في المدرسة أو أي مكان آخر، لتكن نسخة من رواية مقهى البيانو دائماً في حقيبتك، لتريه إياها، وتقولي: إن أبي كاتب، والآن ربما ليس كاتباً جيداً ولكنه كاتب، هذا السبب الذي دفعني للجلوس وكتابة مقهى البيانو.

والسبب الثاني: في خضم كتابتي للراوية استفدت كثيراً من الوقائع المحيطة بي، ما يخص الأحداث، وما يخص الشخصيات، حتى ما يتعلق بأسمائهم، والذي يوماً ما ذكرته على موقعي على النت تحت عنوان «بيكسيلات من الوقائع في العالم الافتراضي».

لذا علي أن أقول لكم: أغلب الشخصيات الحقيقية إلى حد كبير متطابقة مع شخصيات الرواية، حتى الأسماء حقيقية، والأحداث الصغيرة والكبيرة التي تحدث في المقهى، أكثر أو أقل، لديها أساس حقيقي، ولكن كل هذا لا يعد دليلاً، لتعتقدوا أن كل واحد منهم حقيقي ومماثل لما هو في الواقع، من مثل السيد سعيد دبيري مؤلّف أغنية فرنكيس، لم يكن بائع جرائد، وأنا لم أكن يوماً قهوجياً مع أني أحببت لو كنت يوماً كذلك.

---

(١) بهمن: فترة زمنية متعلقة بالبرج الفلكي من ٢١/١ حتى ٢٢/٢. المترجمة.

فهرس

الصفحة

مدخل المقهى ٥

هذه المرة أشتري اللون الكرزي منه ٧

متوسط الحال،أمر مزعج يا وردة الضفيرة ١٣

عش عصفور حقيقي هل أنت متأكدة؟! ٢١

ما أجمل هذه الأشياء غير المتوقعة ٣١

الآن إلى الجحيم إن لم ترد مصروفاً ٤٠

الأداء ٤٢

شوكولا ساخنة ٤٨

لا تخبره بهذا ٥٤

أنت لم تبك يوماً عليها، أبكيت؟! ٦٥

أمر مستبعد ألاّ يكون هناك أحد ٧٦

حزين مضحك، أو ربما مضحك حزين ٨٤

يا رب، ليته كان والدهم ٩٨

تابعي عملك يا أنستازيا ورتينس كايا ١٠٦

أناستازيا ورتيس كايا ١١١

الحق معك، كان عليّ أن ألقي نظرة ١١٦

الصفحة

اللعبة ١٢٥

أحقاً لم تسمع عن أشياء ١٢٩

علاقة صفورا ١٣١

كم هو أمر سيئ، أن يكون لكل شخص حجره الأملس الخاص به ١٣٨

الآخرون ١٤٦

الشمس في دقائقها الثماني الذهبية ١٤٨

هذه المرة الأخيرة ولكن لم تتصل ١٥٧

فصل ضعيف دون روح ١٦٧

تعال، متى ما تشاء، تعال ١٧٢

لفافة السجائر ١٧٨

في مثل هذه الأوقات لا يجب أن تكوني حوله ١٨٨

إحساسي يخبرني أنها فتاة حقيقية ١٩٦

فلتتحدث بشكل لائق أيها الحمار، من لا يعقل هو أبوك ٢٠٤

فقط لم أكن أغليها كما الاسبريسو ٢١٥

لشدة ما هو مر مثل السم! ٢٢٥

هجرة الأغنام! ٢٣٧

لو كان خطأ شخص واحد ٢٤٦

إنه جميل، يحث المرء على التفكير ٢٥١

فهرس ٢٦١

فرهاد جعفري
(١٩٠٣-...)

- كاتب وصحفي إيراني.
- درس في جامعة أزاد الإسلامية؛ في مدينة مشهد.
- ترشح إلى الانتخابات النيابية والرئاسية الإيرانية.

- من أعماله المؤلفة:

- امرأة قابلة للتنظيم، نشر المؤلف ٢٠٢٠.
- قطار الساعة الرابعة والعشرين دقيقة عصراً.
- (القسم الثاني من مقهى البيانو)، ١٩٧٩.

الهيئة العامة السورية للكتاب

د. فاطمة صفا

- مترجمة سورية.
- دكتوراه في الأدب الفارسي - اختصاص النقد الأدبي، ٢٠١٧.
- لها العديد من المقالات العلمية.

- من أعمالها المترجمة:

- السمكة الصغيرة السوداء، تأليف صمد بهرنكي، قصة مترجمة عن الأدب الفارسي المعاصر، صادرة عن مجلة الآداب العلمية، ٢٠١٩
- التلقي التأويلي العرفاني للنص القرآني (تمهيدات ورسائل عين القضاة أنموذجاً)، مجلة المنافذ الثقافية، العدد السادس عشر، ٢٠١٦.
- أربع قصص مترجمة عن الأدب الفارسي، دهليز، كان طائراً واحداً، شجرة البطم، أسود كالغراب أخضر كالببغاء، الكاتب هوشنغ قلشيري ، قيد النشر ، اتحاد الكتاب العرب.

الهيئة العامة السورية للكتاب

٢٠٢٣م